

بنات النبي

عليه الصلاة والسلام

الدكتورة بنت الشاطئ





بنات النّبى

عليه الصلاة والسلام

تأليف

الدكتورة عائشة عبد الرحمن

"بنت الشاطئ"

أستاذة بجامعة عين شمس

دار الهلال



الطبعة الرابعــة
أول مارس سنة ١٩٦٦
٩ من ذى القعدة سنة ١٣٨٥

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

تمضى القرون والأدهار ، وشخصية « محمد صلى الله عليه وسلم » موضع اهتمام الكتّاب والدارسين على اختلاف نحلهم وشتى مذاهبهم يجدون فيها المادة الخصبة للدراسة الجديدة أبدا ، ويلتمسون لديها ما يجلو أسرار العظمة الانسانية كما تمثلت فى بشر رسول ، بهر الدنيا وصنع التاريخ ، وإنه ليأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ..

ذلك لأن الانسانية ـ على كثرة من عرفت فى تاريخها الطويل من رسل وأنبياء ، وقادة وأبطال ـ ستظل أبد الدهر ترنو الى هذا النبى العربى الذى لم يحاول قط أن يبرأ من بشريته ، بل أصر على الاعتراف بها فى اعتزاز مؤثر ، لا يعرف التاريخ له مثيلا ..

وحين تختلف بالناس الأديان ، وتفرقهم المذاهب والملل والأهواء أحزابا وشيعا ، تظل البشرية مابقيت ، تباهى بأن يكون منها نبى ، حمل الى الدنيا رسالة التوحيد التى رفعت عنها وصمة الوثنية ولعنة الشرك ، وجاء الناس بدين الاسلام الذى أصر على تقرير بشرية الأنبياء :

« قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده »

« قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد »

« قل سبحان ربى ، هل كنت إلا بشرا رسولا »

« وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا »

« ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلنا بالبينات ، فقالوا أبشر يهدوننا ، فكفروا وتولوا واستغنى الله ، والله غنى حميد »

وهذا الايمان العميق بعظمة البشر الرسول ، هو الذى وجَّه دراساتى للجوانب التى اخترتها من شخصيته الفذة : فكان كتابى عن « أم النبى » محاولة لفهم جانب البنوة فى الوليد اليتيم الذى وضعته امرأة من قريش تأكل القديد ، كما تضع كل أنثى من البشر ، ليكون بعد أن يبلغ أشده ، المصطفى المبعوث بآخر رسالات السماء ..

وكان كتابى عن « نساء النبى » محاولة لدرس شخصية الزوج الرسول ، إذ يمارس حياته الزوجية فى بيته ببشرية سوية ، لم تجردها النبوة من العواطف والرغبات ، ولم تنكر على نسائه — أمهات المؤمنين — نوازع الفطرة وميراث حواء !

وهذا كتابى عن « بنات النبى » أحاول فيه أن أستجلى ملامح شخصية الأب الرسول ، وأن أعرض صورة أمينة لعاطفة الأبوة ، ممثلة فى شخص نبى إنسان ، سواه الله بشرا وأراد له أن يكون والدا لبناتٍ أربع ، فى بيئة وأدت الاناث وفُتِنت بالبنين ..

وبعد ، فأحسب أن قارئى يقدر أن لموضوع هذا الكتاب من الجلال والمهابة والحرمة عند مثلى ، ما يحميه من شطط القلم وجموح الخيال ، ومن ثم لا أرانى فى حاجة الى أن أؤكد أن مادة الكتاب تاريخية أصيلة ، قد أخذت من مصادرها الأولى ، وأن ليس لى من عمل فيه سوى جهد البحث وأمانة النقل وأسلوب التناول والأداء ..

لكنما يعنينى هنا أن أقول : إنه اذا كان بعض قومى يتحرجون من التحدث عن الجانب البشرى فى حياة الرسول زوجا وأبا ، فإنى لأحمد الله على أن عصم ايمانى من مثل هذا التحرج المنكر الذى يشعر بأن من أنباء الحياة الخاصة لخاتم الأنبياء ، ما يحتاج الى سترٍ أو كتمان ! .. ومعاذ الايمان بعظمة الرسول الكريم الذى تلا علينا من هذه الأنباء ، آيات قرآنية يتعبد بها منا من يؤمن بالله ، ويصدق برسالة محمد بن عبد الله الهاشمى القرشى ، عليه الصلاة والسلام ..

مصر الجديدة
رمضان : ١٣٨٢ — (مارس : ١٩٦٣)

بنت الشاطىء

الأبوة فى المجتمع العربى

- الأبوة فى الجاهلية
- الأبوة العربية فى الرسالة المحمدية
- وفى شخص الرسول الكريم

حين تهيأت للكتابة عن بنات النبى صلى الله عليه وسلم ، بدأت أقرأ فى كتب السيرة والحديث والتاريخ ، لأستخلص منها ما يتصل بهؤلاء الكريمات اللواتى شُرفن بأمجد أبوة عرفتها البشرية منذ كانت . غير أنى ما كدت أمضى فى القراءة ، حتى وجدت أنى لن أستطيع الوفاء بحق الموضوع ، اذا لم أبدأ قبل كل شىء بدراسة متفرغة لأبوة محمد ، وهى دراسة شاقة ، تحتاج دون ريب الى خبرة دقيقة بالمجتمع العربى ومعرفة مكان الأبوة فيه ، لكى يكون لنا من هذا كله ما يجلو صورة الأب الرسول ، ويزيدنا ادراكا لنواحى السمو والجلال فيها .

والحديث عن الأبوة فى المجتمع العربى ، حديث يطول ، وأخشى اذا أنا أرسلت قلمى يكتب فيه ملء عنانه ، أن يستغرق أكثر القدر المفروض لهذا الكتاب أو يجور على الموضوع الأصيل الذى يحدده عنوانه ، ومن ثم رأيت ضبطا للتناول ، أن أنسقه فى أجزاء ثلاثة : ألم فى أولها بالأبوة العربية كما تصورها الحياة الجاهلية ، وأنتقل منها الى هذه الأبوة كما تبدو فى الرسالة المحمدية ، ومن ثم فى شخص الأب الرسول ..

***

أما الأبوة العربية كما تصورها الحياة الجاهلية ، فربما بدا لأول وهلة ، أنها غير ذات اتصال قريب بموضوعنا ، لكنا اذا ذكرنا أن محمدا صلى الله عليه وسلم تزوج قبل أن يبعث بخمسة عشر عاما ، وأن بناته الأربع جميعا قد ولدن فى الجاهلية ، وأدركن المبعث وثلاث منهن متزوجات ، اذا ذكرنا هذا ثم أضفنا اليه ما نعرف من احتكام الوراثة وأثر البيئة ، بدت لنا صلة « الأبوة العربية فى الجاهلية » بموضوعنا ، قوية وثيقة الى حد لايسمح لنا بتجاهلها أو التغاضى عنها ، حين نحاول أن نتحدث عن « محمد » فى أبوته ..

ذلك لأنه اذا كان المنهج العلمى ، يأبى علينا أن نبتر شخصا من بيئته التى صنعته ، أو أن نفصل بينه وبين آبائه وأجـداده الذين تنقل فى أصلابهم جيلا بعد جيل ، فنحن أولى بألا نقترف هذا الخطأ ، فى الحديث عن بشر رسول ، طالمـا اعترف بفعل الوراثة فى مثـل قوله : « تخيروا لنطفـكم فان العرق دسـاس » أو قـوله : « لم يزل الله ينقلنى من الأصلاب الطيبة الى الأرحام الطاهرة مصفى مهذبا ، لا تتشعب شعبتان الا كنت فى خيرهما » كما طالما اعتز بأصله القرشى وبأمهاته « العواتك من سُليم » ، وباهى بأنه ابن امرأة من قريش تأكل القديد ..

وهذه الفطرة البشرية السوية فى رسولنا ، التى تعدها الانسانية ــ كما قلت غير مرة ــ على اختلاف الأديان والأجناس ، وعلى مر الأحقـاب والأدهار ، من آيات عظمته وأسرار بطولته . هذه الفطرة السوية هى التى تجعلنا نرجع بالحديث عن أبوة « محمـد » الى ماض قريب وبعيـد . ملتمسين من صميم البيئة العربية منذ جاهليتها ، الأصول الأولى للأبوة التى تجلت لنا فى « محمد بن عبد الله » قبل مشرق الاسلام ، ثم بعد أن اصطفاه الله نبيا ورسولا ..

والملحظ الأول الذى نسجله هنا ، هو أن المجتمع العربى فى الجاهلية قد كان يخضع لنظام القبيلة ، وللأبوة فى هذا النظام مقام جليل وشـأن ذو خطر ، ذلك لأن القبيلة فى أصلها لا تعدو أن تكون فروعا تكاثرت من جذر واحد هو الأب الذى تنتمى اليه . ثم ، بمضى الزمن تنمو الفروع فيغدو كل منها قبيلة مستقلة ، على نحو ما نرى فى انفصـال الخـلايا الحيوية أو الاجتماعية عن أصلها الأول ، عندما تتهيأ لها مقومات الحيـاة مستغنية عن ذلك الأصل ..

ويحدث أحيانا ، وبخاصة فى الأطوار البدائية ، أن تنتمى القبيلة إلى الأم ، وهو طور عرفته العربية فى جاهليتها القديمة ، وبقيت منه آثار فيها حتى بعد أن تطورت الى الدور الأبوى ..

وطبيعة هذا النظام ، تجعل شيخ القبيلة ــ الذى هو فى الواقع أبوها

الكبير ــ ملكا غير متوج ، وحاكما لا يُعصى له أمر . فمن حدثته نفسه بالخروج على سلطانه ، كان الخلع والطرد والنبذ من مجتمع القوم ..

وما بنا من حاجة الى التماس الشواهد على ما كان للأب من مكانة فى الجاهلية العربية . فما ذاك بالأمر الذى يخفى ، ولنا أن نقول بعد هذا إن لقريش على وجه الخصوص . أن تدَّعى فضلَ تمثيلها لأعزّ ما عرف المجتمع العربى من تكريم للأبوة ، اذ كانت هى القبيلة التى ذهبت بأكثر ما للعرب فى الجاهلية من أمجاد ، واجتمع لها من العزة والمنعة والجاه والشرف . ما لم يجتمع مثله لقبيلة أخرى غيرها . فلا ريب أن اعتزَّت بالأصول والآباء ، وحرصت على نقاء النسب وتخير الأرحام ، وآية ذلك ما نرى من تسجيلها لنسب بطونها وأفخاذها ، ماضية به الى آلاف السنين ، لم يفتها منه أم ولا أب . على ما نعرف من صعوبة ذلك والأمية فيهم فاشية . والعهد بهم جد قديم . ولمن شاء أن يطعن فى صحة هذا المروى عن سياقة النسب من قريش الى اسماعيل جدهم الأعلى (١) . فلن نبذل جهدا لننفى شيئا من هذا أو نثبته ، ولا علينا هنا أن نجادل المنكرين فى الذى زعموا من أن سلسلة النسب هذه من صياغة الرواة واختراع كُتَّاب السيرة فى عصور متأخرة . بعد الذى تم لقريش من مجد الدهر باصطفاء الرسول العربى منها ونزول القرآن المعجز بلسانها . وانما حسبنا أن نقول إن حرص القوم على سياقة النسب ، يحمل وحده دليل احتفالهم بالأصول وعنايتهم بالأعراق ، وليس يضعف هذا الدليلَ أن تكون الأنساب قد اختُرعت بأخَرة ، بل ان هذا الاتجاه ــ إن صدق ــ أبلغ فى الدلالة على ما للأبوة من خطر فى تقدير القوم ، والا لما عناهم قط أن يجهدوا أنفسهم باختراع سلاسل من الأنساب يسدون بها الثغرات التى تركتها أنامل الزمن فى تاريخ العرب الطويل ..

والحق أن الاعتزاز بالأبوة كان أظهر ما يميز المجتمع العربى ، وأن

---

(١) راجع فى هذا كتاب « نسب قريش » لأبى عبد الله المصعب الزبيرى . وقد حققه بروفنسال ونشرته دار المعارف (ذخائر) ــ وانظر معه (السيرة لابن هشام) ح ١ ط الحلبى . و (جمهرة أنساب العرب لابن حزم) ط الذخائر

تكريم الآباء قد كان تقليدا متبعا ، فمن ارتاب فى هذا فليذكر أن العرب يبدأون تاريخهم الدينى بقصة جدهم « اسماعيل » الذبيح الذى جـاد بالحياة طاعة لأبيه ، وتجنيبا له من ذنب عصيان الخالق (١) ، ثم يختمون تاريخهم الدينى فى الجاهلية ، بقصة بنى عبد المطلب الذين ما ترددوا فى طاعته يوم أخبرهم بنذره ليذبحن أحدهم لله عند الكعبة ، لو بلغوا عشرة ، بل لبوا طائعين ومضوا يحملون قداحهم الى الكعبة ، حيث وقفوا هنالك بجانب أبيهم الشيخ ، ينتظرون أيهم يكون الذبيح (٢)

ولنذكر كذلك أن العرب لم يجدوا ما يبررون به عبادتهم للأوثان بعد أن دعاهم محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ الى التوحيد ، الا أنهم وجدوا آباءهم لها عابدين :

« واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون . » (٣)

« فلا تكُ فى مِرْيَةٍ مما يعبد هؤلاء ، ما يعبدون الا كما يعبد آباؤهم من قبل » (٤)

وما نقموا على « محمد ، صلى الله عليه وسلم » شيئا كما نقموا عليه أن غضَّ من آبائهم وسفه أحلامهم وعاب آلهتهم ، بل إن « أبا طالب » نفسه ــ عم النبى وكافله ــ ود لو تبع ابنَ أخيه ، لولا أن وجد غضاضة فى مفارقة دين آبائه ، فقال معتذرا : « أى ابن أخى ، انى لا أستطيع أن أفارق دين آبائى وما كانوا عليه ، ولكن والله لا يخلصْ اليك شىء تكرهه ما بقيت » (٥)

وكذلك فعلت العرب البائدة فى سالف الحقب وغابر الدهور : ردوا رسلهم بمثل ما ردت به قريش رسولها ، فقـوم عاد قالوا لنبيهم هود : « أجئتنا لنعبد الله وحده ، ونَذَرَ ما يعبد آباؤنا » (٦)

(١) تاريخ الطبرى ٢/١٩١ ط الحسينية
وانظر آية ١٠٢ سورة الصافات ، وأقوال المفسرين فيها
(٢) ابن هشام : السيرة ١/١٦٠ : ١٦٤ ط الحلبى وتاريخ الطبرى : ٢/١٧٤
(٣) البقرة ١٧٠ ، وانظر معها آيات : لقمان «٢١» والمائدة «١٠٤» والاعراف «٢٨»
(٤) سورة هود : ١٠٩ (٥) ابن هشام : السيرة ١/٢٦٤ ، وتاريخ الطبرى ٢/٢١٤
(٦) سورة الاعراف آية ٧٠

وثمود : « قالوا ياصالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وانا لفى شك مما تدعونا اليه مريب » (١)

هم الآباء دائما : سُنتهم عبادة ، ودينُهم ميراث ، واتباعهم فرض محتوم ونظام القبيلة ، الذى جعل للأبوة مثل تلك المكانة فى المجتمع العربى القديم ، هو نفسه الذى جعل العرب يتعلقون بالبنين ويحرصون على الانجاب ويباهون بكثرة الولد ، اذ كانت القوة والكثرة ، هما مناط العزة والمنعة ، وقوام الحياة فى مجتمع كهذا يقوم على التنافس بين القبائل والتزاحم على موارد العيش . فلا عجب أن صارت كثرة الولد نعمة ما بعدها نعمة . كما صار تعدد الزوجات ظاهرة طبيعية لا غرابة فيها ولا شذوذ ..

ونذكر هنا ــ للمرة الثانية ــ حديث « عبد المطلب » جد الرسول ، وقد انتهت اليه سقاية الحجيج وراثة عن جده « قصى » فكان يلقى فى سبيل ذلك كل المشقة والعناء . واذ يطيل التفكير فيما تناقله الرواة عن بئر زمزم التى طُمِرت تحت رمال الزمن ، تلح عليه الرؤى فى أن يمضى للتنقيب عن البئر المباركة التى بثت الحياة فى الوادى الأجرد ، منذ فجرها الله للجد الأعلى اسماعيل . فيمضى « عبد المطلب » ومعه ابنه الحارث ، وليس له يومئذ ولد غيره . فما كاد يجىء بالمعول ويبدأ فى الحفر حتى قامت اليه قريش . تقسم ألاتتركه يحفر فى ذلك المكان الذى شاءت الأقدار أن يقع بين الوثنين الكبيرين : « أساف ونائلة » . وأدرك عبد المطلب أن قريشا إنما استضعفته لقلة ولده . فنذر لئن وُلِد له عشرة أبناء ثم بلغوا معه بحيث يمنعونه . لينحرن أحدهم لله عند الكعبة . ثم تلا ذلك ما هو ذائع معروف من انطلاقه ببنيه العشرة الى الكعبة وخروج السهم على عبد الله ــ أصغر بنيه ــ فهمّ بذبحه لولا أن كان الفداء ! (٢)

---

(١) سورة هود ٦٢ ــ وانظر معها آيات : الزخرف ٢٣ ، لقمان ٢١ ، ابراهيم ١٠
(٢) ابن هشام : السيرة ١/٢٦٤ ــ تاريخ الطبرى ٢/١٧٤

وأعود فأقرر هنا ما ذكرته آنفا ، من أن الشك فى حدوث هذه القصة ، لا ينفى بحال ما ، دلالتها الصادقة الأمينة على الاعتزاز بكثرة الولد فى مجتمع القبائل ، حيث لا أمل لإحداها فى البقاء ، اذا لم يكن لها من أبنائها من يسنعونها ويحمون حماها ...

ولا أريد أن أدع الحديث عن الأبوة والبنوة عند العرب الأولين ، دون أن أعرض هنا مشهدا انسانيا مؤثرا ، سجل به القرآن ما لعاطفة الأبوة من سلطان قاهر لا قبل لبشر بمقاومته — حين يدعو الواجب — ولو كان من الأنبياء المصطفين . ذلك هو مشهد « نوح » عليه السلام ، حين ركب ومن اتبعوه فى سفينته « وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان فى معزل ، يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء ، قال لا عاصمَ اليوم من أمر الله الا من رحم ، وحال بينهما الموجُ فكان من المغرقين . وقيل يا أرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى ، وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين . ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلى وان وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين . قال يانوح انه ليس من أهلك ، انه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم" انى أعظك أن تكون من الجاهلين . قال رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به على وإلا تغفرْ لى وترحمنى أكن من الخاسرين . قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركاتٍ عليك وعلى أمم ممن معك ، وأمم" سنمتعهم ثم يَمسهم منا عذاب أليم » (١)

فيا للأبوة الرحيمة تأبى أن تلعن الولد الكافر أو تبرأ منه أو تدعو عليه ..

ويا للآيات المعجزة ، تأبى أن تجحد بشرية الأنبياء أو تبرئهم من نوازع الغريزة الأبوية التى لولاها لما قامت حياة . .

ويا للاله الكريم ، يصغى الى دعاء الأب للابن الضال ، فلا يجد

(١) سورة هود ، الآيات ٤٢ : ٤٨

ـ سبحانه ـ فى هذا المظهر الانسانى ما يستحق به نوح أن يُنحَّى عن مكانه رسولا يدعو الى الحق ، بل يكتفى ، جل جلاله ، بأن يعظه ، ثم يأذن له فى أن يهبط بسلام من الله وبركات عليه وعلى أمم ممن معه !

وسلام على ابراهيم اذ يوعد ربه « ربّ اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنىّ أن نعبد الأصنام . رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فإنه منى ، ومن عصانى فإنه غفور رحيم » (١) ..

***

هل لنا أن نقول بعد هذا . ان علاقة الآباء بالأبناء فى المجتمع العربى بلغت من القوة مبلغا لا يعرفه مجتمعنا العصرى الحديث ، الذى يميل بالتدريج نحو الانفصام ، ويتخلى شيئا فشيئا عن تقاليده الموروثة فى الأبوة والبنوة ، فيعترف للآباء بحقهم فى تحديد النسل ، كما يعترف للأبناء بشخصية كاملة الحرية والاستقلال ، بل ربما اعترف لهم أحيانا بأنهم أحق بالحياة بما هم أصحاب الغد ، وعلى الآباء أن يخلوا لهم الطريق ؟

وقلما يفتش مجتمعنا العصرى عن آباء الرجل وأجداده ، بل انه ليميل إلى تحطيم الفوارق الاجتماعية بين الطبقات ، على حين كان المجتمع العربى القديم يحكم أوضاعه وظروفه .. يعتز بكرم الأبوة وعراقة الأصل وشرف المنبت ، ويرى فى هذا ومثله مدعاة للفخر الذى ما بعده فخر

---

(١) سورة ابراهيم ، الآيات ٣٥ : ٣٦

فى الرسالة المحمدية ، وفى شخص الرسول

أشرق نور الاسلام ، حين اختار الله من بين العرب من يبعثه بختام رسالات السماء ، فبدا من اللحظة الأولى ، أنها رسالة تدعو الى نبذ دين الآباء ، وتعلن الحرب على الأصنام والأوثان التى ظلوا لها عاكفين ..

وما كانت قريش لتأبى أن تصغى الى فتاها الأمين الذى ما عهدت عليه كذبا قط ، لولا أن جوهر رسالته يقوم على التوحيد ، ولا يرضى بما دون القضاء على الآلهة الموروثة عن الآباء :

« وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون .. » (١) ..

على أن هذا لا يجوز أن يصرفنا عما حف بالأبوة فى الرسالة المحمدية من جلال ، أو ينسينا أن الاسلام هو الذى جعل برّ الوالدين تاليا للتوحيد « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين احسانا ، إما يبلغن عندك الكبرَ أحدهما أو كلاهما ، فلا تقل لهما أفٍّ ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » (٢) ، ولم يأذن الاسلام للابن بعقوق الأبوين حتى مع الشرك ، بل الذى يباح له فى هذا الموقف ، هو ألا يطيعهما فى ذلك ، دون أن يهدر حقهما عليه فى أن يصاحبهما فى الدنيا معروفا : « ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصالُه فى عامين أن اشكر لى ولوالديك الىّ المصير . وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما، وصاحبهما فى الدنيا معروفا » (٣) ..

---

(١) آية ١٧٠ سورة البقرة

(٢) الاسراء : آيتا ٢٣ ، ٢٤ وانظر معهما آية : ٣٦ النساء ، ١٥١ الانعام

(٣) سورة لقمان : ١٤ ، ١٥

وعرض القرآن كذلك للبنوة ، فصرح فى مواضع شتى بأن البنين زينة الحياة الدنيا ، وعدهم من النعم الكبرى التى منَّ الله بها على عباده :

« يرسل السماء عليكم مدرارا . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا »

« المال والبنون زينة الحياة الدنيا »

« ذرنى ومن خلقتُ وحيدا . وجعلت له مالا ممدودا . وبنين شهودا . ومهدت له تمهيدا . ثم يطمع أن أزيد ، كلا إنه كان لآياتنا عنيدا » (١)

ويقال هنا إن القرآن الكريم حذرنا من الافتتان بالأبناء ، لما يعلم من إسرافنا فى حبهم والتعلق بهم :

« زُين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوَّمة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا » (٢)

« واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم » (٣)

لكن هذا التحذير ليس — فى الواقع — الا اعترافا صريحا بما للبنين علينا من سلطان يشق علينا أن نقاومه ، وما لهم فى قلوبنا من حب قد يعمى ويصم ..

***

والعلاقة بين الأبناء والآباء تأخذ فى الرسالة المحمدية وضعا ساميا ، بحيث لا يهدرها اختلاف الدين ولا يفصمها تباين العقيدة . وبلغ من تقدير القرآن الكريم لقوة هذه العلاقة أنه فى تحذير الناس من هول اليوم الآخر ، وصفه بأنه اليوم الذى :

« يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه » — المعارج

« يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد . » — الحج

---

(١) المدثر ١١ : ١٦ — وانظر آيات : النحل : ٧٢ المؤمنون ٥٥ ، الشعراء ١٣٣
(٢) انظر معها آيات : الحديد ٢٠ سبأ ، المنافقون ٩ ، التغابن ١٥
(٣) الأنفال : ٢٨ — وانظر معها : التغابن ١٥ ، آل عمران ١٠ ، المنافقون ٩ ، سبأ ٣٧

وقد تلقى محمد رسالة ربه ، فكان صلى الله عليه وسلم القدوة الصالحة للمؤمنين والمثل الأعلى فيهم . ومضى ينظم حياة الجماعة الاسلامية بوحى من ربه ، ويضع لها التشريع الصالح على هدى الكتاب السماوى الكريم ، فرأى العرب من فعاله صلى الله عليه وسلم ، وسمعوا من أحاديثه . مالمس أعمق مشاعر الأبوة فيهم . واستثار أنبل ما فى نفوسهم التى جبلت على توقير الآباء ورعاية الأبناء ..

روى « عبد الله بن عمرو » عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الكبائر : الإشراك بالله . وعقوق الوالدين . وقتل النفس . واليمين الغموس »

وقدَّم الرسول بر الوالدين على الجهاد فى سبيل الله : « جاء رجل اليه صلى الله عليه وسلم فقال : جئت أبايعك على الهجرة وتركت أبوى يبكيان . فقال : ارجع اليهما فأضحكهما كما أبكيتهما »

قد يقال هنا إن قلبه الرحيم رق لبكائهما . لكنا نسمع أن صحابيا جاءه يسأل الإذن فى الجهاد ، فسأله الرسول : ألك أبوان ؟ .. قال : نعم .. قال : ففيهما فجاهد

وحدث الصحابى « معاوية بن جاهمة السلمى » قال : « أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يارسول الله ، إنى كنت أردت الجهاد معك أبتغى وجه الله والدار الآخرة . قال : ويحك . أحيَّة أمُّك ؟ .. قلت : نعم .. قال : ارجع فبِرها

« ثم أتيته من الجانب الآخر فقلت : يا رسول الله انى كنت أردت الجهاد معك أبتغى وجه الله والدار الآخرة ، قال : ويحك . أحية أمك ؟ قلت : نعم يا رسول الله . قال : فارجع اليها فبرها ..

« ثم أتيته من أمامه ، فأعدت ما قلت ، فقال : ويحك ! .. الزم رجلها ، فثمَّ الجنة ! » (١)

---

(١) وفى (الاستيعاب) أنه صلى الله عليه وسلم قال لمعاوية : فالزمها . فان الجنة تحت قدميها ـ ١٤١٣/٣ ط نهضة مصر

نسمع هذا ومثله ، فنرى الإصرار النبيل على وضع البر بالوالدين قبل الجهاد فى سبيل الله ، ورفع الأبوة الى منزلة لا تساميها منزلة ...

عن أبى أمامة أن رجلا قال : يا رسول الله ، ما حق الوالدين على ولدهما ؟ .. قال : « هما جنتك ونارك »

وانه لحق لا يهدره الشرك : قالت أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما : « قدمتْ علىَّ أمى وهى مشركة ، فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستفتيته قائلة : ان أمى قدمت وهى راغبة ، أفأصل أمى ؟ .. قال : نعم .. صِلِى أمَّك »

وكذلك لا ينقطع هذا البر بالموت : « عن مالك بن ربيعة الساعدى قال : بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ جاءه رجل من بنى سلمة فقال : يا رسول الله ، هل بقى من بر أبوى شىء أبرهما به بعد موتهما ؟.. قال : نعم .. الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وانفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التى لا توصل الا بهما ، وإكرام صديقهما »

وانما استحقت الأبوة هذه المنزلة السامية ، لما تبذل وتحتمل فى سبيل الأبناء ، ولما تسنح من حب صادق وحنان خالص ، ولأنها فى جوهرها بذل وتضحية وايثار ؛ ورسول الله فى انسانيته الرفيعة أكرم من يقدر هذا وينفعل به . حدثوا أن سبيا قدم على النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة « فاذا امرأة منهم قد تحلب ثديها ، اذا وجدت صبيا فى السبى أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه : أترون هذه طارحة ولدها فى النار ؟.. قالوا : لا ، وهى تقدر ألا تطرحه . فقال : الله أرحم بعباده من هذه بولدها » (١)

وعن عبد الله بن عمر قال : « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض غزواته ، فمر بقوم ، وامرأة فيهم تحصب تنورها ومعها ابن لها ، فاذا ارتفع وهج التنور تنحت به ، فأتت النبى صلى الله عليه وسلم فقالت: أنت رسول الله ؟.. قال : نعم .. قالت : بأبى أنت وأمى ، أليس الله بأرحم

(١) صحيح البخارى : ك ٧٨ باب ١٨ وسنن ابن ماجة : ك٣٧ باب ٣٥

الراحمين ؟ .. قال : بلى .. قالت : أليس الله أرحم بعباده من الأم بولدها ؟ .. قال : بلى .. قالت : فإن الأم لا تلقى ولدها فى النار . فأكب رسول الله صلى الله عليه وسلم يبكى ثم رفع رأسه لها وقال : ان الله لا يعذب من عباده الا المارد المتمرد الذى يتمرد على الله ويأبى أن يقول لا اله الا الله »

وعن أبى هريرة قال : « أتت امرأة النبى صلى الله عليه وسلم بصبى لها فقالت : ادع الله له فلقد دفنتُ ثلاثة .. قال : دفنتِ ثلاثة ؟ .. لقد احتظرت بحظار شديد من النار »

ولا أجد ما أتوج به هذا الفصل ، أفضل من قوله عليه الصلاة والسلام : « لا يُقاد والد بولده » فلقد سما بالأبوة الى حيث لا يجوز أن تتهم بقتل الولد عامدة أو مختارة ، فالأصل فى الأب أن يفتدى ولده بالمهجة والروح ، ومحال أن يقتله الا فى لحظة يغيب فيها عن وعيه ويفتقد رشده ، أو تحت وطأة ظروف فادحة ، تشل إرادته وتخرجه عن أبوته بل عن انسانيته ، وفى الحالين لا يكون مسئولا عن الجريمة الشنعاء !..



الأنثى فى المجتمع العربى

- كراهة الإناث
- الموءودة
- أمر من السماء
- ونبى إنسان ..

قلنا ان طبيعة نظام القبيلة . قد حببت إلى العرب الأقدمين الانجابَ وأغرتهم بالحرص على كثرة الولد . واذا قيل هذا عن البنين ، فالأمر ليس كذلك بالنسبة الى الاناث . بل هو جد مختلف : فما هن بحيث يسنعن الحسى ويحسين الذمار . ولا فيهن غنية حين يجد الجد وتتأزم الأمور . وهن بعد ذلك هدف العدو اذا أغار . يقصدهن أولَ ما يقصد فيكون السبى الذى يورث القبيلة الذل والقهر ، ويجللها بالعار ..

ومن أجل ذلك . كرهوا أن تولد لهم أنثى ، وهى كراهة تتمثل فى صور شتى ، أهونها الغيظ المكبوت أو المعلن ، وأقساها الوأد . وقد سجل القرآن الكريم ذلك المشهد البغيض الذى كان ينتظر الأنثى ساعة ولادتها . بأسلوب يجل عن الوصف ويفوت البيان روعة وعنف إثارة :

« وإذا بُشر أحدُهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيُمسكه على هون أم يدسه فى التراب ، ألا ساء ما يحكمون » (١)

ووعى ديوان الشعر العربى ، ذلك النشيد الحزين لأم هجرها زوجها ، حين ولدت له أنثى ، وأقام عند جيرانٍ له :

ما لأبى حمزةَ لا يأتينا
يظل فى البيت الذى يلينا
غضبان ألا نلدَ البنينا
تالله ما ذلك فى أيدينا !
وانما نأخذ ما أُعطينا

---

(١) سورة النحل ، الآيات ٥٨ : ٥٩

ونحــن كالأرض لزارعينا
نُنبت ما قد زرعوه فينا (١)

ومن مأثور قولهم لمن رزىء بأنثى :

« آمنكم الله عارَها ، وكفاكم مئونتها ، وصاهرتم القبر » ..

وما أكثر الذين رجوا لبناتهم هــذا الصــهر الرهيب ، ورأوا فيه خير الأصهار ، قال شاعرهم :

لــكل أب بنت" يُرجى بقــاؤها
ثلاثة أصــهار اذا ذكــر الصهر :
فبيت يغطيهــا ، وبعل يصونهــا ،
وقبر يواريهــا ، وخــيرهم القبر !

وأنشد آخر :

إنى وإن ســيق الىَّ المهــرُ :
ألف" ، وعبـــــدان ، وذَوْد" عشر
أحبُّ أصهارى الىَّ القبر !

وشاعت فيهم القولة المأثورة : « دفن البنات من المكرمات » ..

(١) هو أبو حمزة الضبى ، وقصة هجره زوجته ، والشعر الذى قالتــه . فى كتاب (البيان والتبيين للجاحظ) ـ ١/١٦٣ ط التجارية ١٩٣٢

وما كنا لنطيل الوقوف عند هذه الكراهة التى نراها أثرا محتوما للبيئة ، لولا أنها تمثلت فى مأساة الوأد البشعة ، التى ما تزال حتى اليوم تؤرق الضمير الانسانى ..

ولقد قيل فى تعليل ذلك الوأد أسباب كثيرة : منها أنهم كانوا يئدون الزرقاء والبرشاء والكسحاء تشاؤما منها ، ويأسا من تزويجها وفيها عاهة وآخرون ، وأدوا بناتهم خوفا من الفضيحة والعار ...

ويقال إن أول من فعل ذلك « لقمان بن عاد » من العرب البائدة ، وذلك أنه رُوع بخيانة نسائه فراح يقتلهن انتقاما واشتفاء ، واذ انحدر الى الطريق اثر المذبحة ، لقى ابنته فوثب عليها وقتلها متأثرا بما جرب على النساء من خيانة وسوء ..

ويذكرون كذلك فى هذا المقام قصة رواها غير واحد من المؤرخين وأئمة المفسرين كالنيسابورى ، والزمخشرى ، والقرطبى ، وخلاصتها : أن « النعمان بن المنذر » أغار على تميم حين منعته الاتاوة ، فحاربهم وسبى نساءهم . ولما ذهب قيس بن عاصم ، شيخ تميم ، ليسترد سباياه ، تخلفت بنت له مؤثرة أن تبقى مع النعمان ، فعاد « قيس » وقد جن غضبه فوأد كل بناته . ثم مضى على ذلك ، لا تولد له بنت إلا وأدها ، واقتدى به رجال من تميم وغيرهم (1)

ووأدوا كذلك رفقا بالبنات ورحمة بهن لما يعرفون من عجز الأنثى وقسوة الحياة عليها ، فآثروا لهن الموت ، على التعرض لعوادى الزمن وأفاعيل الحدثان ، واختاروا مرارة الثكل وفجيعة الحزن ، على احتمال هم الأنثى ، والقلق عليها ، ومعاناة الكرب الذى صوره الشاعر فى قوله :

(1) انظر ترجمة قيس بن عاصم المنقرى فى « الاصابة » لابن حجر ، رقم ٧١٩٤ و « جمهرة أنساب العرب » لابن حزم : ٢٠٥ ط أولى ذخائر

وزادنى رغبةً فى العيش معــرفتى
ذلُّ اليتيمــة يجفــوها ذوو الرحم
أخشى فظاظة عمٍّ أو جفــاءَ أخ
وكنت أبكى عليها من أذى الكَلِم
تهوى حياتى وأهوى موتَها شفَقا
والموت أكــرم نزّال على الحــرم
إذا تذكــرت بنتى حين تنــدبنى
فاضتْ لعبــرةِ بنتى عبرتى بدم

كما وصف ما ظفر به بعد موتها من راحة البال فقال :

فالآن نمتُ ، فلا همٌّ يؤرقــنى
بعد الهــدوء ولا وجدٌ ولا حــلم

وقيل كان الوأد بقية متخلفة من عبادة قديمة ، قُدمت فيها الاناث قرابين الى الآلهة ، على نحو ما عُرِف عن مصر قبل الاسلام من تقديم عروسٍ للنيل ضحية وقربانا . ولعــل لهذا صلة بما يشير اليه القــرآن الكريم فى آيات عدة ، نعى فيها على القوم أن يجعلوا لله البنات ويستأثروا بالبنين :

« ويجعلون لله البناتِ ، سبحانَه ، ولهم ما يشتهون » ــ النحل : ٥٧

« أم له البنات ولكم البنون . » ــ الطور : ٣٩

« أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا ، انكم لتقولون قولا عظيما » ــ الإسراء : ٤٠

كما عجب لهم : يحبون البنين هذا الحب ، ثم يُسمون أصنامهم بأسماء إناث ، زاعمين أنها بنات الله ــ سبحانه :

« أفرأيتم اللاتَ والعزّى . ومَنَاة الثالثة الأخرى . ألكم الذكرُ وله الأنثى . تلك اذن قسمة ضيزى . » ــ النجم : ٢١

« إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكةَ تسميةَ الأنثى . وما

لهم به من علم ان يتبعون الا الظن وان الظن لا يغنى من الحق شيئا » (١)

ولو كان الأمر فى مثل هذا يخضع للعقل والمنطق ، لأبوا أن يتعبدوا لأصنام تحمل أسماء إناث ، لكنه التقليد الموروث والعادة المتبعة والأنانية العشواء لا تدع لصاحبها عقلا . وما دام الناس من ذكر وأنثى ، فابتقاسموهما مع الله : لهم البنون ولله الاناث :

« فاستفتهم ، ألربّك البناتُ ولهم البنون . أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون . ألا انهم من إفكهم ليقولون . ولدَ اللهُ ، وإنهم لكاذبون . أصطفى البناتِ على البنين . ما لكم كيف تحكمون . » ـ الصافات ١٤٨ : ١٥٣

ووأدوا خشية فقر وإملاق ، والرواة يذكرون فى ذلك مئات ممن استنقذهن « صعصعة بن ناجية » من الوأد لهذا السبب وحده ، وأخريات فداهن « عمرو بن زيد بن نفيل القرشى » ..

فأما صعصعة ، فيقال ان أول ما كان من نهوضه بتلك المكرمة ، أنه مر برجل من تميم يحفر حفرة ، وغير بعيد منه امرأة تبكى متشبثة بوليدة لها . فلما سألها صعصعة عما بها ، أشارت الى الرجل وقالت : هذا زوجى يريد أن يئد ابنتى . وانثنى صعصعة الى الرجل يسأله : ما حملك على هذا ؟

أجاب : الفقر ..

فافتداها منه بناقتين يتبعهما أولادهما ، وعاش السيد الكريم لا يسمع بموءودة عن فقر الا سعى فى فدائها ، فلما مات ترك لبنيه مجدا خالدا ، باهى به حفيده « الفرزدق » قائلا :

وجَدّى الذى منع الوائدات
وأحيا الوئيد فلم يوأدِ (٢)

---

(١) سورة النجم ، آيتا ٢٧ ، ٢٨ . وانظر معهما : النساء ١١٦ ، والاسراء ٤٠ . والزخرف ١٩ ـ وانظر كذلك مادة (أنثى) فى (مفردات القرآن : للراغب الاصفهانى)
(٢) فى رواية : « ومنا الذى منع الوائدات » انظر هامش ص ٢٤٠ من السيرة ج ١

أجار بنـــات الوائدين ومن يجـــر
على الفقـــر يعلم أنه غير مخفـــر

وكذلك حدثوا أن « زيد بن عمرو بن نفيل » ، كان اذا سمع بفقير يهم بوأد ابنته ، مضى اليه فقال : « لا تقتلها ، أنا أكفيك مئونتها » . فاذا كبرت عاد بها الى أبيها فراجعه فى أمرها ، وخيَّره بين استردادها أو بقائها حيث هى ، فى كنف الذى استحياها ..

قال « ابن اسحاق » فى السيرة :

« حُدِّثتُ أن سعيد بن زيد بن عمرو ، وعمر بن الخطاب ــ وهو ابن عمه وصهره ــ قالا لرسول الله : أنستغفر لزيد ؟ .. قال : نعم ، فانه يُبعث أمةً وحده » .. (١)

***

والوأد عن فقر ، هو الذى آثره القرآن الكريم بالذكر الصريح فى قوله تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم ان قتلهم كان خطأً كبيرا » ــ الاسراء : ٣١

وقوله : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم » ــ الأنعام : ١٥١

والقرآن فى هذا ، يمضى بالوأد الى سببه الأهم والأبعد ، ويتجه به الى التفسير الاقتصادى الذى يعد من أحدث النظريات فى فهم التاريخ ، سواء فى ذلك التاريخ السياسى ، والاجتماعى ، والفنى ..

فمهما تتعدد الأسباب التى قيلت فى تعليل الوأد ، فمن اليسير ردُّها الى العامل الاقتصادى ، وتفسيرها واحدا بعد الآخر ، بالبيئة المادية :

فوأدهم ذواتِ العاهات ، يُفسَّر بخوفهم عليهن من البوار ، فيكنَّ عالة على الآباء ..

والوأد تأثرا بعبادة قديمة ، يعلَّل اقتصاديا اذا ذكرنا أنهم خصـــوا الإناث به ولم يجودوا بالبنين الا فى حالات نادرة لا نكاد نعرف منها فى

---

(١) السيرة : ١/٢٤٠
وانظر نسب عمر بن الخطاب بن نفيل ، وزيد بن عمرو بن نفيل ،فى « ولد عدى بن كعب» بكتاب (نسب قريش) ص ٣٤٧ وما بعدها ــ ط الذخائر

أخريات الجاهلية الا ما كان من نذر « عبدالمطلب » ليَذبحنَّ أحد بنيه لله، في الكعبة ، اذا كملوا عشرة وبلغوا معه بحيث يمنعونه ، فهو - كما تقول الرواية - لم يرض أن يجود بأحد أبنائه ، إلا بعد أن اشترط عددا معينا من البنين ، وأن يبلغوا بحيث يمنعونه . ومع ذلك لم تكد الشفرة تدنو من عنق الولد ، حتى قامت قائمة قريش وهبوا صائحين :

« والله لا تذبحه أبدا حتى تُعذَر فيه . لئن فعلت هذا ، لايزال الرجل يأتي بابنه حتى يذبحه ، فما بقاء الناس على هذا ؟ » ..

ومن ثم اتجهت القصة اتجاها آخر ، وانتهت بافتداء « عبد الله » من الذبح بمائة من الإبل ، نُحرت هنالك عند الكعبة ، وتُركت لا يُصَدّ عنها انسان ولا سبع ! (١)

ولو أن الذبيح كان فتاة ، لما اهتزت قريش ، ولا عناها الأمر في كثير أو قليل ، وانما ريعت لأن ذبح ولد - وإن كان الذبح زلفى الى الله ووفاء بنذر مقدس - يهدد القبيلة بخطر الفناء ، أو كما قالت لعبد المطلب : « فما بقاء الناس على هذا ؟ ! »

والوأد خوفَ العار ، يمكن كذلك أن يُرَد الى سبب اقتصادى : فالأغنياء يكرهون الإناث خوفا من تفتت ثرواتهم ، وهو بعينه السبب الذى برَّر حرمان البنات في الجاهلية من الميراث ، وحرص الرجل منهم على أن يخلف على نساء أبيه أو أخيه ، احتفاظا بالمال ، أو تركيزا للعزة ، ودرءا لأسباب التصدع

وما وأدهم البنات خوفا من العار ، الا حمايةً لثرواتهم ومراكزهم وجاههم ، من مذلة السبى أو الزواج من غير كفء . ويبين هذا بوضوح ، في حديث « قيس بن عاصم » حين وفد على الرسول واعترف بأنه ما وُلدت له بنت الا وأدها ، فسأله أحد المهاجرين : فما الذى حملك على ذلك وأنت أكثر العرب مالا ؟ قال : مخافةَ أن ينكحهن مثلك ! .. قالوا : فتبسم رسول الله وقال : هذا سيد أهل الوبر (٢)

---

(١) ابن هشام : السيرة ١/١٦٠ : ١٦٤

(٢) ابن هشام : السيرة ١ ١٦٠ ، ١٦٤

هو العامل الاقتصادى اذن ، يُرَد اليه كل ماقيل عن أسباب الوأد فلا يتخلف سبب منها ، وعلى هذا مضى القرآن المعجز ، فخص هذا العامل بالذكر ، وفسر الوأد تفسيرا اقتصاديا ، راجعا به كما قلت الى السبب الأول والأبعد ..

ويصف لنا « الزمخشرى » كيف كان يتم الوأد : « يخرج الرجل وليدته وقد حفر لها بئرا فى الصحراء ، فيدسها هناك ويهيل عليها التراب حتى تستوى البئر . وقيل كانت الحامل اذا أوشكت على الوضع حُفرت حفرة ونقلت قريبا منها عندما يجيئها المخاض ، فاذا ولدت بنتا رموا بها فى الحفرة ، وإن ولدت ذكرا أمسكوا وعادوا به » (١)

***

تلك صورة بشعة لوضع الأنثى فى الجاهلية ، وليس بالغريب أن توارى بشاعتها أوضاعا أخرى كريمة لبنات العرب ، كن فيها موضع الاعزاز والحنان ، ولا من الغريب أن تطغى تلك الأخبار السود ، على أخبار أخرى مشرقة ، تحدث عما كان من ايثار بعض العرب لبناتهم بالحب ، وافتدائهن بالمهج والأرواح ، وأن يظل الصدى الحزين الذى يُرجِّع صراخ الموءودات ونواح أمهاتهن الثكالى ، يصدَع سمع الإنسانية ، بحيث تتوه فيه أصداء أخرى ، تتناهى الينا من قديم العرب البائدة ، حيث تروى الأساطير قصة فتاة جديس ــ وقد نقلها المسعودى فى مروج الذهب ــ التى حررت قومها من جبروت ملك طسم وإذلاله ، حين ثارت على الشرط المشئوم الذى كان يقضى بألا تُزف عروس من جديس الى زوجها ، الا بعد أن تقضى ليلة فى فراش الطاغية . وخرجت الثائرة ، من المخدع الملكى ، فانطلقت فى الحى بثياب عرسها الممزقة ، الملوثة بدماء العار ، وهى تصرخ :

لا أحد أذل من جديس
أهكذا يفعل بالعروس !

---

(١) الكشاف : ١٨٨/٤

ثم أبت أن تمضى الى زوجها . وقادت معركة باسلة انتهت بنصر جديس ومقتل الطاغية ..

وكذلك تاه فى غمار مأساة الوأد ، مثل حديث « بهيسة بنت أوس بن حارثة بن لأم الطائى » حين خطبها « الحارث بن عوف » سيد بنى عبس ، فلما أراد الدخول عليها كرهت أن يمسها . واستنكرت أن يخلو للنساء ورحى الحرب تطحن الحيين من عبس وذبيان ، فلم يجد وسيلة الى إرضائها . إلا أن يخرج فيحتمل — هو وهرم بن سنان — ديات القتلى من الفريقين ..

بل كدنا ننسى — فى غمرة الأسى لمأساة الوأد — أن من الآباء من كنوا بأسماء بناتهم . كأبى أمامة النابغة الذبيانى ، وأبى الخنساء قيس بن مسعود الشيبانى . وأبى سلمى ربيعة بن رباح — والد زهير — وأبى عفراء حنظلة الطائى . وأبى سفانة حاتم طيىء ، وأبى عزة عمرو بن عبدالله الجمحى ..

وغاب عنا كذلك — أو كاد — أن من سادة العرب من كرموا بمدح بناتهم ، وان من هؤلاء البنات من استجير بها فأجارت ، كبنت عوف الشيبانى ، وفكيهة بنت قتاد التى أجارت « السليك بن السلكة » فأثنى عليها فى شعره الثناء المستطاب

ويزيد فى فداحة المأساة وسوء أثرها وعنف صداها ، أن قيل ان الوأد كان عاما فى القبائل كلها . على ما نقل « الميدانى » (١) و «النويرى» (٢) وإن أكد رواة آخرون . ان الوأد لم يكن فى غير تميم وقيس وأسد وهذيل وبكر بن وائل . وانها جميعا تخلصت منه قبل الإسلام ، الا تميم ، فقد جاء الاسلام وفيها الوأد لايزال

ومن المحزن حقا . أننا اذا استطعنا أن نجزم بأن الوأد لم يكن شائعا ولا واسع النطاق — وهذا لا يهون من بشاعته — فلسنا بحيث نملك أن ننفيه عن أسلافنا العرب ، ولا نحن بقادرين على الارتياب فى أمره وقد

---

(١) مجمع الامثال : ٣٨٩/١

(٢) نهاية الارب : ٤٢/٣ ط دار الكتب **بالقاهرة**

تواترت به الأنباء وسجله عليهم القرآن الكريم

كل الذى نسلكه هو أن ننفى عموم الوأد ، ونستبعد القول بأنه كان على نطاق واسع ، وإلا كان ضربا من الانتحار الجماعى . والاستسلام المخبول للفناء والانقراض

على أننا لانكتفى بهذا فى نفى عموم الوأد ، بل نضيف اليه أن هناك عوامل طبيعية واقتصادية كانت تعطل عملية الوأد على نطاق واسع :

كان هناك الميراث القديم من عهد « الأمومة » تخلفت بقاياه كما قلنا فى انتماء القبائل والأفراد الى أمهاتهم ، وفى تسمية العشيرة باسم «البطن» وفى تسمية الأصنام والملائكة والآلهة بأسماء اناث ، وهذه البقايا المتخلفة كانت تضفى على الأنثى لونا من القداسة ، وتعصمها من الإبادة . وان ظهرت أحيانا بسظهر مناقض هو وأد الفتاة تأثرا — فى رأى بعض علماء الاجتماع — بالطقوس الدينية القديسة ، على نحو ماكان يحدث لعروس النيل ...

وكانت هناك غريزة حفظ النوع وما يتصل بها من حرص على البقاء ، تحمى بقوتها التى لاتدانيها قوةً غريزة" أخرى ، بناتِ العرب من الوأد قدر المستطاع

وكانت هناك أنثى فى حياة كل رجل : أم ، أو زوجة ، أو حبيبة أو أخت ، تلطف من النظرة البغيضة الى البنت ، وتفسح أمامها مجال الحياة

ثم كان هناك الى جانب هذا كله ، بل قبل هذا كله ، العامل الاقتصادى الذى يجعل البنت حين تكبر ، وعاءً للولد وصانعة للبنين ، ولئن كان العرب فى نظرتهم الجانبية الى البنت قد اعتبروها كَلاًّ عليهم وعالة ، فلم ينتبهوا الى الجانب الآخر ، وهو أنه لا سبيل الى ولد لا تحمله أنثى جنينا وتغذوه رضيعا وتحضنه صبيا وتربيه غلاما وترعاه رجلا ، الا أن الحياة كانت تسير بمقتضى أوضاعها الطبيعية ، مقــدرة ضرورة وجود البنت لبقاء البشرية وعمران الكون ، غير معنية بما إذا كان القوم منتبهين الى هذا أو غير منتبهين

ومن هنا رجحنا فى اطمئنان . أن الوأد لم يكن عاما ولا واسع النطاق ، وقدرنا الجانب الآخر من حياة الأنثى فى المجتمع العربى بالجاهلية . حيث عاشت الناجيات من الوأد . ملء عيون القوم وقلوبهم . ومن شاء فليرجع الى الفصل الذى كتبته عن «الأنوثة والأمومة» فى كتابى « أم النبى » (١) ليقرأ بعض ما نقلت من أخبار تكريم الإناث وتقديرهن وإعزازهن والاعتراف بمآثرهن

ولا غرابة فى أن تجمع البيئة الواحدة فى الزمن الواحد بين النقيضين ، فنزهد فى ولادة البنت وقد تئدها كراهة لها أو لفرط حبها إياها وخوفها عليها ، فى الوقت الذى تفتدى فيه نساء القبيلة بالدماء ! وتضيق ببنت تولد ، مع أنها تسمو بها « أما » الى حيث لا مزيد من التكريم والاكبار . لا غرابة فى هذا ، فالحياة ماتزال تجمع بين المتناقضات دون أن يختل نظام الكون أو يضطرب سير الفلك . والأمر فى وأد الأنثى أو اعزازها ، مردّه الى العادة والعرف والى التقليد الاجتماعى الذى لايعتمد على شىء من التفكير ، وانما يتم بتوجيه الرأى الجماعى دون أن يكون للفرد مستقلا مجال للتفكير فيه . ولذلك نرى فى الجماعة عُرفين متناقضين فى الوقت الواحد : كالذى شهدنا فى البيئة العربية القديمة من تسمية الأصنام بأسماء إناث . وهذا مظهر تقديس وتكريم . ومن وأد البنات زهداً فيهن وضيقاً بهن

وكالذى نشهده اليوم فى البيئة الرجعية المحافظة . تعلم الفتاة وتأذن لها فى الخروج والاحتراف . ثم تأبى فى الوقت نفسه على خاطبها أن يراها . وشبيه به مانشهده فى المجتمع الشرقى ، يحرم على الفتاة المسلمة باسم المحافظة والدين دخول المعاهد الدينية ، ويأذن لها فى الالتحاق بمعاهد الرقص والتمثيل . ويحدث أحيانا أن تطالب الجامعيات من المتخرجات فى كلية الحقوق ، بمناصب القضاء ، فتثور ثائرة المحافظين ، مع انهم فى الوقت نفسه لايحركون ساكنا اذ يرون من بنات المسلمين من

---

(١) طبع دار الهلال بالقاهرة

تشتغل فى الملاهى الليلية أو تشرب الخمر علنا فى الحانات والمراقص ...

وإنما يحدث هذا التناقض ومثله . لأنها كما ذكرت مسائل عرفية وليست منطقية ، ينفعل الفرد فيها بشعور الجماعة . ويتأثر بعقلية القطيع فيسيغ مالعل عقله يأباه ، ويتحمس لتأييد ماكان جديرا بمعارضته لو نجا من احتكام العادة وسلطان العرف واستهواء الرأى العام

***

ونعود الى ماكنا فيه من حديث عن مركز الأنثى فى المجتمع العربى ، فلا نملك بعد طول البحث والتنقيب عن الأخبار المروية فى اعزاز الأنثى وتكريمها ، والتماس الأدلة والشواهد المؤكدة بأن مأساة الوأد لم تكن عملية إبادة بالجملة ، أقول : لا نملك بعد هـذا كله الا أن نعترف بأن منزلة البنات كانت دون منزلة البنين ...

وكذلك غبر العرب زمانا ومنهم من يَدسُّ وليدته فى التراب ، ومنهم من يُمسكها على مضض وهون ، ومن ثم يبيت ساهرا عليها مهموما بها ، حتى يدفعها الى زوج كفء ، أو يسلمها الى القبر خير الأصهار ...

أمر من السماء

وجاء الاسلام فوضع حدا للمأساة البشرية الفاجعة التى جاوزت فى بشاعتها أقصى المدى ، وأول مانزل من آياته تعالى فى الوأد . قوله عز وجل منذرا بيوم الهول الأكبر :

« وإذا الموءودة سئلت . بأى ذنب قتلت » (١)

ثم نزل من بعد ذلك قوله تعالى فى سورة الإسراء وهى مكية :

« وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين احسانا .. ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ، ان قتلهم كان خطئا كبيرا »

ثم قوله تعالى فى سورة الأنعام المكية :

«قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم : ألا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين إحسانا ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ماظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون »

ويرى المفسرون ، أن قتل الأولاد فى الآيتين ، يعنى وأد البنات .. (٢)

وحكم بالخسران والضلال على السفهاء المفترين الذين قتلوا أولادهم :

« قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا مارزقهم الله ، افتراء على الله ، قد ضلوا وما كانوا مهتدين »

والآية من سورة الأنعام وهى مكية

***

على أن تحريم الوأد لم يكن ليسنع من الضيق بالبنات أو يحول دون الزهد فيهن ، وقد جرت البشرية على ذلك من قديم العصور والآباد :

---

(١) سورة التكوير آيتا ٨ . ٩

(٢) الكشاف : ٢ ٣٥٩

فمن أعماق الدهر الأول ، بقى صوت نوح عليه السلام ، إذ يعدد نعم الله على قومه فيؤثر البنين بالذكر قائلا :

« يرسل السماء عليكم مدرارا . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا . مالكم لاترجون الله وقارا »

ولم تنج من محنة الزهد فى ولادة الأنثى ، مريم العذراء ، المصطفاة على نساء العالمين :

« إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى انك أنت السميع العليم . فلما وضعتها قالت رب انى وضعتها أنثى ، والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأنثى ، وانى سميتها مريم » (١)

هى اذن نزعة قديسة فى البشر ، وعادة تأصلت على مر الزمن حتى صارت طبيعة فينا يعز التخلص منها ولو بعد زوال الأسباب الأولى التى دعت اليها ، والعوامل القديمة التى قضت بها فى أول الأمر : فخروج المرأة الجديدة الى ميدان العمل . وقدرتها على الكسب المادى ، وإتاحة الفرص أمامها لتظفر بأرقى المناصب وتصل الى أعلى الدرجات ، كل هذا ومثله معه ، لم يضع المولودة الأنثى والوليد الذكر بمنزلة سواء ، ولا أعفاها ساعة ولادتها من الاستقبال البغيض الذى تسجله أغانينا الشعبية

قد يقال عنا ان تغيير الوضع الاقتصادى لا يمنع كراهة الأنثى خوف عار قد يلحق بأهلها من سلوكها ، أو خشية تفتت مال الأسرة عن طريق الميراث ، فنرد على هذا بأن البنات مكروهات حتى فى البيئات المتحللة التى لا تكترث بالسلوك ، وفى الأسر الفقيرة التى لا جاه لها ولا مال ، وفى المجتمعات الاشتراكية التى تحد من الملكية ، وتحدد الدخل ، ولا تعترف بجاه موروث ، وما ذاك الا لأن كراهتهن ميراث قد انحدر الينا من قديم الحقب ، وعادة نشأت فى الأصل بحكم البيئة وأثر العوامل المادية ، ثم أخذت مجراها فى عواطفنا على طول الزمن ، فلم يعد من السهل التخلص منها ، حتى مع تغيير البيئة وزوال العوامل المادية

(١) سورة آل عمران : ٣٥ ، ٣٦

والقرآن الكريم فى خبرته الفذة بطبيعة البشر ، وتقديره الحكيم لما تخضع له من شتى المؤثرات . أدرك ما يشق على القوم من قهر الوراثة العاطفية وسلطان الطباع التى صنعتها البيئة المادية وحفرت مجراها فى نفوسهم على تتابع العصور وتعاقب الأجيال . لكنه كذلك ، فى تساميه بالإنسانية ، لم ييأس من رياضة المسلمين على الرضى بالبنات وحمايتهن من أثر الظلم والكراهية ، فتتابعت آياته الكريمة حاثة على اتقاء الله فيهن، حاضة على إنصافهن ومساواتهن بالبنين قدر ما تحتمل الطبائع والأوضاع

وما أحسبنى فى حاجة هنا الى عد الحقوق الانسانية والشرعية والمدنية التى حماها الاسلام للمرأة ، أو بيان المنزلة الكريمة التى وضعها فيها ؛ فقد كثر القول فى هذا منذ ظهرت الدعوة الى تحرير المرأة [1] ، وكانت الشريعة الاسلامية الغراء هى النبع الأول الذى استمد منه دعاة التحرير أدلتهم وأسانيدهم لدفع ما حاق بالمرأة الشرقية فى العصور المتأخرة من ظلم ، وتحطيم الأغلال التى كبَّلتها باسم الدين ، والدين منها براء ..

لكن يطيب لى مع ما أعرف ويعرف القراء من هذا كله ، أن أروى بعض ما قرأت من وصايا الرسول الكريم بالإناث ، وأعرض هنا من حديثه معهن ، ما أراه تمهيدا طبيعيا للحديث عن أبوته لبنات أربع :

نقل « البخارى » فى صحيحه ، أن السيدة عائشة قالت : « جاءتنى امرأة معها ابنتان تسألنى ، فلم تجد عندى غير تمرة واحدة ، أخذتها فقسمتها بين ابنتيها ثم قامت فخرجت . فدخل النبى صلى الله عليه وسلم فحدثته بأمرها فقال : من بُلِى من هذه البنات بشىء فأحسن اليهن ، كنَّ له سترا من النار »

وفى صحيح « مسلم » عن أنس بن مالك أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من عال جاريتين حتى تبلغا ، جاء يوم القيامة أنا وهو ــ وضم أصابعه »

وفى سنن « أبى داود » عن ابن عباس قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من كانت له أنثى فلم يئدها ولم يُهِنها ولم يؤثِرْ ولده عليها ــ يعنى الذكور ــ أدخله الله الجنة »

---

(١) للاستاذ سعيد الافغانى : الأستاذ بجامعة دمشق ، كتاب عن « الاسلام والمرأة » ، عرض فيه هذا الجانب عرضا وافيا

وانظر كذلك الفصل الذى كتبته عن « المرأة المسلمة » فى كتاب « الاسلام : أمس واليوم وغدا » ط الحلبى بالقاهرة

وروى البخارى كذلك حديث الصحابى الذى جاء يستأذن الرسول فى أن يوصى بماله للمسلمين ، اذ كان لم يرزق بولد ذكر ، ولم تكن أحكام المواريث قد نزل بها القرآن بعد ، فسأله الرسول : هل له بنات ؟.. فلما أجاب بنعم ، أبى عليه الرسول أن يوصى بماله ، وله بنات

كذلك فعل الرسول مع امرأة من الأنصار جاءته بابنتين لها فقالت : « يا رسول الله ، هاتان ابنتا ثابت بن قيس ، قتل معك يوم أحد ، وقد استفاد عمهما مالهما وميراثهما كله فلم يدع لهما مالا إلا أخذه ، فما ترى يا رسول الله ، فوالله لا تنكحان أبدا الا ولهما مال » فقال الرسول متأثرا : « يقضى الله فى أمرك » وأمهلها الى الغداة ، فنزلت آية المواريث ، فقال صلى الله عليه وسلم : ادعوا لى المرأة وصاحبها . فلما جاءا ، قال لعم البنتين : أعطهما الثلثين ، وأعط أمهما الثمن ، وما بقى فهو لك » (١)

وما رؤى أكرم منه قط فى معاملة الإناث والترفق بهن والانتصاف لهن، ولقد يكفينى هنا أن أشير الى موقف نبيل ، لا أعرف أدل منه على مدى ما كانت الأنثى تطمح اليه من عزة وكرامة فى كنف الرسول : عن عائشة رضى الله عنها ان فتاة دخلت عليها فقالت وهى بادية الانفعال والغضب : إن أبى زوجنى ابن أخيه ليرفع به خسيسته وأنا كارهة . فدعتها السيدة الكريمة لتجلس حتى يأتى النبى صلى الله عليه وسلم

وجاء النبى ، وسمع شكوى الفتاة ، فأرسل الى أبيها حتى اذا حضر جعل أمر الفتاة اليها . فقالت وقد زال عنها ما كانت تشعر به من غضاضة : « قد أجزتُ ما صنع أبى ، ولكن أردت أن أعلم : أللنساء من الأمر شىء ؟ »

ولقد أجارت زينب بنت الرسول ، أبا العاص بن الربيع عندما أسر بالمدينة قبل أن يسلم (٢) . واستأمنت « أم حكيم بنت الحارث بن هشام » ــ عام الفتح ــ لعكرمة بن أبى جهل ، فأمنه الرسول مع أنه كان قد ذكر اسمه بين الذين أمر بقتلهم ولو وجدوا تحت أستار الكعبة . وفى يوم

---

(١) سنن ابن ماجة : ١٨/٤٨

(٢) ابن هشام : السيرة ٥٣/٤

الفتح ، لاذ رجلان من بنى مخزوم ببيت أم هانىء بنت أبى طالب ، فدخل أخوها « على » فى أثرهما فقال : والله لأقتلنهما . فأغلقت عليهما باب بيتها ثم سعت الى الرسول وهـو بأعلى مكة ، فأخبرته خبر الرجلين من بنى مخزوم ، وإصرار أخيها « على » على قتلهما ، فقال الرسول :

« قد أجرنا من أجرتِ يا أم هانىء ، وأمَّنا من أمنت ، فلا يقتلْهما » (١)

ثم كانت معاملة النبى للإناث ، على قرب العهد بالجاهلية ، فوق الذى طمعن فيه أو طمحن اليه من عزة وكرامة ومروءة ..

ومامن ريب فى أن البيئة كانت محتاجة الى هذا المثل الصالح والقدوة الطيبة فى شخص الرسول الكريم لتقاوم ما ألفته فى معاملة الإناث . ويكفى لنقدر تلك الحاجة ، أن نسترجع هنا حديث عمر بن الخطاب :

« والله ان كنا فى الجاهلية ما نعد للنساء أمرا حتى أنزل الله تعـالى فيهن ما أنزل ، وقسم لهن ما قسم ، فبينا أنا فى أمر أئتمره اذ قالت لى امرأتى : لو صنعت كذا وكذا ؟ .. فقلت لها : ومالك أنت ولما ها هنا ؟.. وما تكلفك فى أمر أريده ؟.. فقالت لى : عجبا يا ابن الخطاب ، ما تريد أن تراجَع أنت ، وان ابنتك لتراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان ؟ ..

« فأخذت ردائى ثم انطلقت حتى دخلت على حفصة فقلت لها :

ـ يا بنية ، انك لتراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان ؟

فأجابت : « انا والله لنراجعه ! »

« ثم خرجتُ حتى دخلت على « أم سلمة » لقرابتى منها ، فكلمتها ، فقالت لى : « عجبا لك يا ابن الخطاب ! .. قـد دخلت فى كل شىء حتى تبتغى أن تدخل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه .. »

فأخذتنى أخذا كسرتْنى به عن بعض ما كنت أجد » (٢)

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ٢/١٠٤ ط بريل ـ ابن هشام : السيرة ٤/٦٠

(٢) المحب الطبرى : السمط الثمين ١٨٣ ط حلب

وهذا الخبر وحده ، يغنيني عن مزيد من البيان لمدى الحاجة القصوى في بيئة الرسول ، الى مثلٍ أعلى يروضها على تغيير موقفها من الإناث، فهذا عمر ، صهر النبي وصاحبه الذي أعز الله به الاسلام ، قد وعى ما نزل من آيات الله في النساء ، وكان من أفقه المسلمين بالدين القيم ، ومع ذلك كره أن تشترك معه زوجته في أمر له ، وأنكر منها أن تشير عليه برأي ، فلما تشلت بابنته حفصة استفظع واستنكر ، وانطلق اليها مغضبا يسألها فيما سمع ، وإنه ليطمع في أن تجيب بالنفي ، لكنها أكدت له أنها ، ونساء النبي ، يراجعنه صلى الله عليه وسلم . فانصرف عمر عنهـا مغضبا لا يكاد يصدق أذنيه ، الى أن ردته « أم سلمة » بكلمتها التي تفيض عزة واباء :

« عجبا لك يا ابن الخطاب ، قد دخلتَ في كل شيء حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه » ؟ (١)

وتلقى « عمر » الدرس البليـغ من بيت الرسول ، وكذلك تلقـاه الصحابة والمسلمون ، فلا عجب ان رأينا « أبا دجانة » (٢) الفارس ، يأخذ سيف الرسول في معركة أحد ، وينطلق به مختـالا .وقد عصب رأسـه بعصابة له كانت تسمى عصابة الموت ، فما يلقى أحـدا من المشركين الا صرعه ، حتى يبلغ « هند بنت عتبة » تزأر في قومها محرضة على الفتك بالمسلمين ، فيضع الفارس السيف على مفرقها لكنه لا يلبث أن ينأى به عنها وهو يقول : أكرمتُ سيف رسول الله أن أضرب به امرأة » ..

هذا هو « محمد بن عبد الله » في انسانيته الرفيعة وبشريته المثالية ، وأبوته الرحيمة التي تفيض بأرق العواطف وأنبلها ، وأحسب أن قد آن الأوان لنتحدث عنه صلى الله عليه وسلم أبا لبنات أربع ، وُلِدن له جميعا قبل أن يبعث رسولا ، وعشن حتى شاهدنه في نضاله الأقدس ومعركته الظافرة الخالدة ..

---

(١) وانظر مناقشة أم المؤمنين حفصة . للرسول عليه الصلاة والسلام في (طبقات ابن سعد : ٢ / ٧٣) ط بريل

(٢) هو الصحابي الفارسي ، سـماك بن خرشة . انظر ترجمته في (الاصابة والاستيعاب والطبقات الكبرى) واقرأ قصته مع هند بنت عتبه في (السيرة) ح ٣ ص ٧٣

الأخوات الأربع

- البيت والأبوان
- أبو البنات
- الشقيقان
- الشقيقات الأربع
- فى بيتهن الأول

فى جوار الحرم الأقــدس ، حيث دور قريش حافّة بالمسجد الحرام مستأثرة دون سائر القبائل بذلك الشرف الأسنى ، قامت الدار التاريخية التى كتب لها أن تشهد عرس محمد بن عبد الله الهاشمى ، وأن تستقبله بعد خمسة عشر عاما من العرس ، عائدا من غار حراء ، بعــد أن تلقى رسالة السماء ..

وهذه الدار قد ارتفع عنها الطريق ، فيُنزل اليها بعدد من الدرجات ، توصل الى ممر قامت على يساره شبه مصطبة مرتفعة عن الأرض بنحو قدم ، وطولها عشرة أمتار ، أما عرضها فأربعة ..

وعلى اليمين باب صغير ، يُصعد اليه بدرجتين ، يؤدى الى طرقة ضيقة عرضهــا نحو مترين ، وفيها ثلاثة أبواب : يفتح أولها ــ من الجانب الأيسر ــ على غرفة صغيرة مساحتها نحو ستة أمتار ، كانت للنبى المختار محرابا ومعبدا . ويؤدى الباب الأمامى الى بهو متسع طوله ستة أمتار وعرضه أربعة ، وقد جعل مخدعا للزوجين . أما الباب الثالث فعلى يمين الداخل ، وهو يفتح فى غرفة مستطيلة ، طولهــا سبعة أمتار وعرضــها أربعة ، وقد جعلت لبنات محمد . وعلى طول هــذا المسكن من ناحية الشمال فضاء واسع ، مساحته ستة عشر مترا فى سبعة أمتار ، ويرتفع عن الأرض بنحو متر ، وفيه كانت السيدة « خديجة » تخزن تجارتها قبل الزواج ، فلما تزوجت واعتزلت التجارة ، استعملت هذه المساحة مضيفة لاستقبال الضيوف (1)

هذه هى الدار التى استقبلت محمدا ــ أول ما استقبلته ــ يوم اختارته السيدة خديجة ليخرج فى مالها الى الشام متاجرا ، ثم استقبلته عائدا من

---

(1) نقلنا هذا الوصف ملخصا من « الرحلة الحجازية » ــ وفى تاريخ الطبرى «2 / 197» تحديد لمنزل خديجة الذى تزوجت فيه من سيد البشر

رحلته ، حيث خفق له قلب سيدة نساء قريش وأخذها منه تفردُ سماته وجلال شخصيته ، حتى اذا كانت السنة الخامسة والعشرون من عام الفيل ــ ١٥ قبل المبعث ــ دقت الطبول فى الدار ، احتفالا بزواج زين شباب قريش شرفا وأمانة وخلقا ، بالسيدة خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى ، سيدة نساء قريش وأعظمهن شرفا وأكثرهن مالا (١)

وقضت مكة أياما وليالى ، ولا حديث لها الا عن ذاك الزواج المشهود ولم تكن بهجة الحفل وحدها هى التى استأثرت بحديث القوم ، وانما كانت المفاجأة غير المنتظرة ، فما دار بخلد أحدهم أن ترغب « السيدة خديجة » فى الزواج من جديد بعد الذى عُرف من زهدها فى الرجال وانصرافها عنهم وردِّها سادة قريش واحدا بعد الآخر ردا موئسا . ولا خطر ببالهم أن يكون « محمد » ابن الخامسة والعشرين ، هو الزوج المختار للأرملة الثرية ، ذات الأعوام الأربعين ..

واذا كان رجال من قريش قد نقسوا يومئذ على العقيلة الغنية ، أن تؤثر عليهم شابا غير ذى مال ، فلعل بنات هاشم قد تحدثن طويلا عن شبابه الغض ، تستأثر به سيدة تزوجت من قبل مرتين ، وتصرفه عن العذارى الهاشميات ، ذوات الصبا الندىّ والحسن النضير ..

على أن أحدا من هؤلاء أو أولئك لم يزعم ــ صادقا ــ أن خديجة فى عزتها وشرفها وثرائها ، غير كفء لمحمد ، أو أن محمدا فى عراقة نسبه وطيب عنصره وجلال شخصيته ، غير كفء لخديجة ، وانما أقصى ما قيل عنهما ، انها كهلة ثرية فى الأربعين ، وانه شاب فقير فى الخامسة والعشرين (٢)

وحين ذهب أثر المفاجأة ولم يعد يجدى حديث عن فارق السن والثروة بينهما ، كفَّت أندية قريش ومسامر مكة عن ذلك الحديث العقيم ، وبدأت تستعيد ذكريات بعيدة أثارتها المناسبة ، وتنفض عنها غبار السنين ..

---

(١) ابن هشام : السيرة ١ ٢٠١ وانظر (جمهرة أنساب العرب) ص ١١١ ط الذخائر

(٢) لم نطل الحديث هنا عن الزوجين ، وانما اقتصرنا على القدر الذى نحتاج اليه فى الحديث عن الابوين . ولمن شاء أن يرجع الى الفصل الخاص بالسيدة خديجة رضى الله عنها فى كتابى « نساء النبى » ــ ط الهلال

وربما كان أول ما تذاكره القوم يومئذ ، قصة ابنة عمٍّ لخديجة ، ثرية ناضجة ، اختارت هى الأخرى فتى هاشميا فقيرا وعرضت عليه نفسها منذ ستة وعشرين عاما ، وان كان لم يستجب لها ..

تلك هى « رقية بنت نوفل » الأسدية ، أخت ورقة : لمحت عبد الله ابن عبد المطلب اثر انصرافه من الكعبة بعد أن افتُدِى من الذبح وفاء لنذر أبيه . فلمحت عليه مخايل مجد مرجو ، وعرضت عليه نفسها ، وله مثلُ الإبل المئة التى نحرت عنه . فاعتذر فى تلطف ومضى فتزوج آمنة بنت وهب ، فتاة بنى زهرة (١) ..

وهذه هى خديجة بنت عم رقية ، تتقدم بكل جاهها وثرائها وعزتها ، الى ابن عبد الله ، تعرض عليه أن يتزوجها ..

وعاش « ورقة بن نوفل » ليسمع استجابة محمد لخديجة بنت عمه ، ويشهد حفل عرسها ، بعد أن شهد بالأمس البعيد انصراف عبد الله أبى محمد ، عن أخته بنت نوفل ..

وحين كانت مسامر مكة فى شغل بالحديث عن الزوجين السعيدين ، كان « ورقة » يسترجع ما ذكرته له « خديجة » من وصف غلامها ميسرة لرحلته مع محمد فى مالها الى الشام ، ويربطه بما سمع منذ ستة وعشرين عاما ، من كلام أخته عن النور الذى رأته فى وجه عبد الله ، فيكاد « ورقة » يلمح فى صهره الشاب ، ملامح النبى المنتظر الذى شاع أن زمانه قد أظل ، ثم يصحو الشيخ من تأملاته فيقول :

لججتُ وكنت فى الذكرى لجوجا
لهمٍّ طالما بعث النشيجا
ووصفٍ من « خديجة » بعد وصف
فقد طال انتظارى يا خديجا (٢)

---

(١) ابن هشام : السيرة ١/١٦٤ ـ تاريخ الطبرى ٢/١٧٤ وطبقات ابن سعد (١/٨٥أول) ولاأعلم خلافا فى أن التى عرضت نفسها على عبد الله ، هى بنت نوفل ، واخت ورقة ؛ لكن الخلاف على اسمها : نقل السهيلى فى (الروض الانف ١/١٠٢) أن اسمها رقيقه بنت نوفل . ونقل النويرى فى نهاية الأرب أنها قتيلة بنت نوفل ! وقد عرضت هذا الموضوع مفصلا فى كتابى « أم النبى »

(٢) ابن هشام : السيرة ١/٢٠٢

وبدأت حياة زوجية هانئة يظللها الحب المتبادل والتقدير المشترك والمودة الخالصة ، ونهل الزوجان من نبع السعادة صافيا لم تشبه شائبة من كدر ، ثم لم يكد يمضى على زواجهما عامان أو ثلاثة ، حتى بدت بوادر الثمر المبارك للزوجية السعيدة ، فخفق قلب « محمد » فرحا وغبطة ، اذ يوشك للمرة الأولى أن يغدو أبا ! وأثارت الأبوة المرتقبة أعمق عواطفه ، وأرق انفعالاته ، وهو مقبل على التجربة العظمى التى لا يكمل وجود الرجل بغيرها ، فعما قريب يشهد فلذة منه تخرج الى النور وتستقبل الحياة ، لتكون امتدادا لحياته ، وعما قريب يرى صورته ممثلة فى كيان صغير لطيف ، تتم به هذه السعادة التى عرفها منذ عرف « خديجة ».

وذكر أمه التى رحلت عن الدنيا وهو صبى فى السادسة ، وذكر أباه الذى ثوى فى « يثرب » وولده ما يزال جنينا فى رحم أمه « آمنة بنت وهب » ، فتمنى لو أنهما عاشا ليفرحا بوحيدهما ويملآ أعينهما من مولوده المنتظر ..

ولم ينس جدّه الشيخ « عبد المطلب » الذى كان له من بعد أبيه أبا ، فرق قلبه وهو يستعيد ذكراه ، وتندت عيناه شجوا ورحمة ، ثم آب من تأملاته وراح يرقب زوجته الحبيبة وهى تروح وتغدو فى الدار بخطوات أثقلها الحمل الغالى ، ووجهها المشرق يتألق بسنا السعادة والحنان ..

لم تكن هذه تجربتها الأولى فى الأمومة ، فقد ولدت البنين والبنات من زوجيها السابقين : عتيق بن عائذ المخزومى ، وأبى هالة التميمى (١) ، فهل تراها كفت عن التشوق للأبناء ووجدت فيمن ولدت ما يرضى أمومتها ويغريها بالقناعة والاكتفاء ؟ ..

معاذ الحب أن تقنع أمومة خديجة بأبنائها الأولين ، فلا يشوقها أن

(١) الاصابة : ٨/٦١ ـ الاستيعاب ٤/١٨١٧ وانظر «جمهرة انساب العرب» ١٢٣ ، ١٩٩ ط الذخائر وكذلك «نسب قريش» ٢٢ ذخائر ، و «تاريخ الطبرى ٣ ١٧٥ .

يكون لها ولد من زوجها الحبيب محمد بن عبد الله ..

ومعاذ الفطرة السوية للأنوثة الناضجة المجربة . أن تزهـد خديجة فى الأبناء . فلا تتلهف على ولد يؤكد حيويتها . ويثبت أنها ما تزال فتيـة منجبة ! ..

وكيف يُظن بها الزهد فى الولد . وهى ترى زوجها العزيز فى عز فتوته ونضرة شبابه . وقد بدأت هى العقد الخامس من عمرها . فى بيئة تتزوج بناتها دون العاشرة . وتكتهل نساؤها دون الأربعين ؟ ..

كلا !.. فما كانت امرأة فى قريش أشد لهفة على الحمل ، من هـذه السيدة التى جربت الأمومة من قبل وكان لها بنون وبنات . وما كانت هى نفسها . فى زواجهـا الأول أو الثانى . بأشوق منها الى الولد فى زواجها هذا الثالث والأخير . اذ كانت فى المرتين الأوليين . أبعد من أن تتهم بالجفاف أو يُظن بها اليأس . أما فى هذه المرة فالأمل فى الانجاب أبعد . والاتهام باليأس قريب ..

وما أرتاب فى أن المخاوف ساورتها فى مطلع حياتها الزوجية الجديدة ، وأشفقت أيما اشفاق من أن تمسك رحمها فلا تجود بولد لهذا الحبيب الذى لم يتزوج سواها من قبل ، ولا عرف مثلها الولد ..

ولم يرُعها أن تتسل عجائز قريش وهن يتربصن بهـا الأيام ليملأن أشداقهن بالحديث عن كهولتها المجدبة وحيويتها الناضبة ، ولا أهمهـا أن تتصور سيدات بنى هاشم وهن يتأسفن على زين شباب الهاشميين فى حرمانه من الذرية . بقدر ما أهمها وراعها أن تكون هى السبب فى هذا الحرمان . وربما طاف بها طائف من القلق حين يكون زوجهـا بعيـدا عنها فى بعض شئون العمل أو التجارة . فيذود النوم عن عينيها ويؤرق لياليها . ولا تجد ما يسرى عنها الا أن تلوذ بالسماء ضارعة الى الله أن يتم عليها نعمته . ويهبها ولدا من زوجها الحبيب . وما تزال كذلك حتى يئوب اليها محمد . فتشعر بالحيوية تسرى اليهـا منه ، وتحس نفحة عطرة تنسيها هواجسها التى شغلت بالها . وترد اليها ثقتها فى نفسها ،

واطمئنانا إلى حيويتها المذخورة الخضبة ..

فلما لاحت بوادر الحمل ، هز الفرح أعطافها فأقبلت على زوجها مشوقة تزف اليه البشرى ، ثم بعثت رسلها يذيعون النبأ السعيد فى دور بنى هاشم وينشرونه فى أحياء قريش ، وأغدقت عطاءها على ذوى الحاجة ، وكأنما أرادت أن تشــاركها « مكة » كلهــا فى فرحتها فلا يبقى فيهــا جائع ولا محروم ..

واستمرأت متاعب الحمل واستخفت ثقله ، فظلت طوال شهوره التسعة ، تعد دنياها لاستقبال الوليد ، وتختار له المرضع قبل أن يولد (١)

حتى اذا آن أوان الوضع . واجهت التجربة ــ التى تعرف شدتها وقسوة آلامها ــ فى شجاعة فذة واحتمال نادر ، على حين وقف الزوج فى محرابه ، ينتظر اللحظة الحاسمة بلهفة مشوبة بشىء من القلق ، ثم يلبث أن تبدد حين انبعثت من مخدع الوالدة ، صيحة رقيقة واهنة ، معلنة قدوم الوليد السعيد ..

وتبعتها صيحات ابتهاج عالية ، سرت مع الهواء الى الحرم ، وبلغت أسماع الحى القرشى ، فعرف القوم أن خديجة بنت خويلد وضعت مولودها الأول ، لمحمد بن عبد الله بن عبد المطلب ..

ومضت فترة من الوقت والأب الكريم يرنو الى مخدع زوجته مستثار الشوق الى رؤية الفلذة الحية من صلبه ، ثم فتح باب المخدع عن القابلة « سلمى مولاة صفية بنت عبد المطلب » (٢) تحمل الى الأب طفلته الأولى، فتلقاها بين ذراعيه فرحا ، ودنا بها من زوجته الراقدة فى فراش الوضع ، مسترخية الأعضاء من فرط الاجهاد ، بادية الغبطة والهناءة مع ذلك ..

وتلاقت أعينهما على وجه الوليدة الحلوة ، وخفق لها قلباهما وهما يريان فيها صورتهما معا

وسماها أبواها « زينب » (٣)

ونحرت الذبائح احتفالا بمولدها ! ..

---

(١) الاصابة : ٨/٦١

(٢) ذكر ابن عبد البر فى « الاستيعاب ٤/١٨٦٢ » ان سلمى كانت قابلة ابراهيم وبنى فاطمة رضى الله عنهما

(٣) جاء فى الاستيعاب ٤/١٨٥٣ . عن أبى عمر : « وكانت زينب أكبر بناته صلى الله عليه وسلم ، لا خلاف أعلمه فى ذلك الا مالا يصح ولا يعول عليه »

ترى هل مر ببالهما فى تلك اللحظة خاطر مشترك : هو أن الله رزقهما بأنثى ، وليس الذكر كالأنثى ؟ ..

وهل ود كلاهما لو أن الوليدة كانت ولدا ؟

ربما ، فما من شيء كهذا يستغرب من زوجين مثلهما ، فى فطرتهما السوية ، وتأثرهما الموروث بما جبلت عليه بيئتهما من حب البنين . لكن ذلك الخاطر لم يكن بالذى يعكر عليهما صفو الفرحة بسلامة الوضع ، أو يشوب حرارة ترحيبهما بمولد طفلتهما الأولى بشائبة من فتور . وتشبثت الأم بوليدتها أياما قبل أن تدفع بها الى المرضع المختارة ، على المألوف من عادة أشراف مكة..

وشغلا بالحديث عنها طوال فترة رضاعتها ، حتى عادت أشبه بزهرة غضة باسمة ، أضفت على البيت مزيدا من الاشراق والبهجة ..

ولم يطل بها المقام فى البيت ، حتى استقبل أختها « رقية » (١) . فاتصل بها الأمل فى نساء الأسرة ، واعتدها الأبوان الكريمان بشرى خير وبركة ..

ثم جاءت من بعدهما « أم كلثوم » وكان الظن أن يضيق الأبوان بمولد أنثى ثالثة ، فى بيئة مفتونة بالبنين ، ولكنهما أدركا أن الأمر فى هذا لله وحده ، وما كانا ليجحدا نعمته عليهما ، ومن ثم أقبلا على طفلتهما الثالثة ، شاكرين لله ما أعطى ، طامعين مع هذا فى مزيد من كرمه ..

وأقبل العام العاشر من زواج محمد وخديجة ، وهما يستعدان لاستقبال الثمرة الرابعة للزوجية المباركة ..

وصادف مولدها ، حادثا جليلا فى تاريخ الأب ، وتاريخ مكة الدينى أجمع ..

---

(١) لم يتفق الاخباريون وكتاب السيرة ، والنسابون ، على ترتيب ولادة أبناء محمد «ص» وما هنا ليس الا ما اطمأننت اليه بعد مقابلة المرويات فى مختلف المصادر الاصيلة ، على ما سوف نبين فى الفصل التالى . ونكتفى هنا بالاشارة الى ما جاء فى الاستيعاب «١٨٣٨/٤»: « زعم الزبير وعمه مصعب ان رقية كانت أصغر بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم . واياه صحح الجرجانى النسابة . وقال غيرهم : أكبر بناته زينب ثم رقية » ا هـ
- وانظر ص ٥٩ ومابعدها .

فقد حدث قبيل ذلك بأمد قصير ، أن أجمعت قريش أمرها على أن تعيد بناء الكعبة ، بعد أن أطال ترددها فى ذلك ، تهيبا وتحرّجا ..

وكانت الكعبة قد أضرت بها شرارة طارت من مجمرة احدى النسوة ، فأحرقت ستائرها وأوهت بنيانها ، ثم انحدر سيل دافق من الردم الذى بأعلى مكة ، فتصدعت الجدران المتأثرة بفعل الحريق ، ووقفت قريش أمام حرمها الأقدس مكتوفة اليدين ، لا تدرى ماذا تفعل لتحتفظ بالبيت العتيق الذى جعل من « مكة » مركز حج العرب جميعا ومهوى أفئدتهم ، وأنزل قريشا ، بحكم جوارها للحـرم ، منزلة لا تدانيها منزلة قبيلة سواها ..

وشاع اذ ذاك أن البحر رمى بسفينة رومية جنحت الى جدة ، فسعى اليها رجال من قريش ، وعادوا بأخشاب السفينة ، وبرجل قبطى مصرى نجار بناء [1]

وتم الاستعداد لتجديد الكعبة ، وقريش ما تزال تتهيب أن تهدم بناءها الأول ، حتى قام « الوليد بن المغيرة المخزومى » فأخذ المعول وقال : « اللهم لم نزغ ! اللهم انا لا نريد الا الخير ! » ثم أهوى بالمعول والقوم ينظرون اليه مرتاعين ، خائفين عليه وعلى أنفسهم جميعا . فلما لم يصبه سوء ، أبوا مع ذلك الا أن يتربصوا ليلتهم تلك ، ليروا ماذا يكون . وأصبح « الوليد » غاديا على عمله لم يمسسه شر ، فهدم وهدم الناس معه

وتنافست القبائل فى جمع الحجارة لبناء الكعبة ، وشارك « محمد » فى ذلك العمل المجيد ، فكان ينقل الحجر مع النـاقلين ، حتى اذا تم البناء ، اختصمت قبائل قريش فى الحجر الأسـود ، كل قبيلة تريد أن تستأثر بشرف رفعه الى موضعه . واشتدت الخصومة حتى أنذرت بحرب، ومكثت قريش على ذلك أربع ليـال أو خمسا ونذر الخطر تزداد ، حتى قام فيهم « أبو أمية بن المغيرة المخزومى » ــ وهو يومئذ أسنّ قريش كلها ــ فقال :

---

(١) السيرة ١/٢٠٥

« يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه ، أول من يدخل من باب هذا المسجد ، يقضى بينكم فيه » ..

فقبلوا ، وتعلقت عيونهم جميعا بالباب ترقب الحكم المجهول . وانهم لكذلك ، اذ أقبل رجل شاب ، تام الفتوة ، متزن الخطا من غير تكلف . رزين من غير فتور ، بهي الطلعة مع جد ووقار ، فهتفوا جميعا لما أن رأوه :

« هذا الأمين ، هذا محمد بن عبد الله الهاشمى ، رضينا بحكمه » ..

وأقبلوا عليه فحدثوه بما اشتجر بينهم من خلاف ، فطلب ثوبا ثم تناول الحجر فوضعه بيده الكريمة فى الثوب وقال :

« لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعا » ..

ففعلوا ، حتى اذا بلغوا به مكانه ، وضعه محمد بيده ودعم بناءه ..

وكانت سنه يومئذ ، خمسا وثلاثين سنة ، على ماروى ابن إسحاق (١)

***

وآب « محمد » الى بيته ، حيث ترك زوجته فى الغداة على وشك انوضع وسعى الى الكعبة داعيا ، فكان أول ما استقبله عند عودته ، بشرى مولد ابنته الرابعة « فاطمة » ..

واقترنت هذه البشرى ، ببشرى نجاة قريش على يد الأمين ، مما كان يتهددها من حرب ودمار ..

ورددت محافل مكة قول الشاعر القرشى : (٢)

تشاجرت الأحيــاء فى فصل خطة	جرت بينهم بالنحس من بعد أسعد
تلاقوا بها ، فالبغض بعــد مودة	وأوقــد نارا بينهــم شر موقــد
فلمــا رأينا الأمــر قــد جد جده	ولم يبــق غير ســلّ المهنــد
رضينا وقلنا : العدلُ أولُ طالع	يجىء من البطحاء من غير موعــد
ففاجــأنا هــذا الأمينُ محمــد	فقلنــــا : رضينا بالأمين محمــد

(١) السيرة : ١/٢٠٤ ـ ومثله فى تاريخ الطبرى ٣/٢٠١

(٢) هو هبيرة بن ابى وهب المخــزومى . راجع السيرة : ٢٠٩/١

وأقبل « محمد » على زوجته مهنئا بسلامة الوضع ، ثم تلقى طفلتـه الرابعة يبارك مولدها فى ذلك اليوم الأغر ، وكأنما رأى فى ذلك الاتفاق ، آية من الله ، تحبب اليه رزقه . وتصرف سمعه عما كان يقال حينذاك عن أبوته لاناث أربع !..

وتطلع الى السماء شاكرا حامدا ، راضيا بما يأتيه من عند الله ، مستثار الرحمة والحنان على تلك المخلوقات اللطيفة البريئة . يتلقاها القوم كارهين ، وما جاءت الى الدنيا مختارة ، ولا هى بمسئولة عن تخلف البنين !..

ثم رنا الى زوجته فى عطف وتأثر ، يريد أن يبث فى نفسها الطمأنينة والرضى ، وأن يهون عليها أمرا لايد لها ولا لأحد فيه ، وانما تلك ارادة الله ، سبحانه ، لا راد لأمره ، ولا معقب على ارادته ..

لكن « خديجة » لم تكن فى حاجة الى مواساة ، فانها ما كادت تملأ عينيها من وليدتها الرابعة ، حتى تفتح لها قلبها ، وقد رأت فيها صورة من أبيها ! (١) ..

فأدركت أن الله سبحانه حبا هذه الوليدة بعناية منه ، حين برأها على مثال « محمد » العزيز . فكان شبهها به ، كافيا وحده لأن يحميها من جفوة الاستقبال ، ويفجر لها أسخى ينابيع الحب والاعزاز ، فى قلب هذه الأم التى اكتفت من دنياها جميعا بأن تكون زوجة محمد ، وأرضاها كل الرضى ، أن تدخر لها السماء تلك النعمة الكبرى ، بعد أن نفضت يديها من الرجال ، وأوصدت قلبها على يأس ..

---

(١) أنظر سنن أبى داود . كتاب ٤٠ الباب ١٤٣ ومسند أحمد بن حنبل : ١٦٤/٣ ، ١٩٧

وبقى للأبوين ــ كى تتم سعادتهما ــ مطلب واحد : أن يهبهما الله مولودا ذكرا ، بعد أن منّ عليهما باناث أربع ..

وبدا الأمل بعيدا ، اذ كانت السيدة خديجة قد جاوزت ، بعد مولد فاطمة ، سن الخمسين ، لكنها مع ذلك لم تكن قد بلغت مرحلة اليأس من الولد رغم السن العالية ، ولا أخلفتها عادتها المؤذنة بصلاحيتها للحمل ، ومن ثم لم يقطع الزوجان الرجاء فى فضل الله ..

ثم استجاب الله لدعائهما فوهبهما غلامهما « القاسم » ثم تلاه « عبد الله » فتضاعفت الفرحة بمولده ، حين ظُنّ أن لا رجاء ..

لكن الله لم يشأ للوليدين أن يعيشا طويلا ، بل ما لبث أن استرد الوديعتين الغاليتين ، أحدهما بعد الآخر ..

أما متى ولدا ، وكيف وأنى ماتا ، فالمؤرخون وكُتّاب السيرة لم يتفقوا على قول واحد فى ذلك الأمر مع ما له من أهمية قصوى فى حياة الأسرة المحمدية والتاريخ الاسلامى ، وعلى قرب عهد ابنى محمد بمبعث الأب الكريم ..

وأعجب من هذا ، أنهم اختلفوا فى عدد الذكور من أبناء محمد وخديجة ، وهل كانا اثنين ، أو كانوا ثلاثة ، أو أربعة ؟

فالذى فى (السيرة) (١) قول ابن اسحاق : « أكبر بنيه : القاسم ، ثم الطيب ، ثم الطاهر ... فأما القاسم والطيب والطاهر فهلكوا فى الجاهلية ، وأما بناته فكلهن أدركن الاسلام فأسلمن وهاجرن معه .. »

وفى (تاريخ الطبرى) ما نصه : « فولدت ــ خديجة ــ لرسول الله ثمانية : القاسم والطيب والطاهر وعبد الله ، وزينب ورقية وأم كلثوم

---

(١) السيرة ٢٠٢/١

وفاضمة » (١)

وجاء فى (الاستيعاب) : (٢)

« وأجمعوا أنها ولدت له أربع بنات كلهن أدركن الاسلام وهاجرن ، فهن : زينب ، وفاضمة ، ورقية ، وأم كلثوم ..

« وأجمعوا أنها ولدت له ابنا يسمى القاسم ، وبه كان يكنى صلى الله عليه وسلم . هذا مما لا خلاف فيه بين أهل العلم . وقال معمر عن ابن شهاب : زعم بعض العلماء أنها ولدت له ولدا يسمى الطاهر ..

وقال بعضهم : ما نعلمها ولدت له الا القاسم ، وولدت له بناته الأربع . وقال عقيل عن ابن شهاب :

« ولدت له خديجة : فاضمة ، وزينب ، وأم كلثوم ، ورقية ، والقاسم ، والطاهر ، وقال قتادة : ولدت له خديجة غلامين وأربع بنات : القاسم وبه كان يكنى .. وعبد الله مات صغيرا »

وفى « الروض الأنف » (٣) رواية عن الزبير بن العوام بن خويلد : « ولدت خديجة له : القاسم وعبد الله ، وهو الطاهر والطيب ، سمى بالطاهر والطيب لأنه ولد بعد النبوة ، واسمه الذى سمى به أولا عبد الله

« وبلغ القاسم سن المشى غير أن رضاعته لم تكن كملت عندما مات »

وفيه كذلك ، فى الموضع نفسه ، أن خديجة رضى الله عنها : « دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد المبعث ، وهى تبكى ، فقالت : يا رسول الله ، درت لبينة القاسم — تصغير لبنة ، تعنى بها بقايا اللبن فى ثديها — فلو كان عاش حتى يستكمل رضاعته ! فقال الأب الرسول : ان له مرضعا فى الجنة تستكمل رضاعته . قالت : لو أعلم ذلك لهوّن علىّ . فقال النبى : ان شئت أسمعتكِ صوته فى الجنة . فأجابت : بل أصدق الله ورسوله » ..

وعلى هذه الرواية ، يكون القاسم مات رضيعا فى الاسلام كأخيه

(١) تاريخ الطبرى : ٣/١٧٥

(٢) حـ ٤ ص ١٨١٨

(٣) السهيلى : ١/١٢٣

عبد الله ، الذى لقب بالطاهر والطيب لمولده فى الاسلام على ما نقل عن « الزبير » ابن أخى السيدة خديجة ..

وفى (الاصابة) فى ترجمة السيدة خديجة أم المؤمنين : (١)

« فولدت له القاسم وعبد الله ، وهو الطيب والطاهر ، سمى بذلك لأنها ولدته فى الاسلام » ..

واذا رجعنا الى كتب الأنساب ، وجدنا فى (نسب قريش) (٢) :

« فولد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : القاسم وهو أكبر ولده ، ثم زينب ، ثم عبد الله ، ثم أم كلثوم ، ثم فاطمة ، ثم رقية »

وفى (جمهرة أنساب العرب) (٣) : « ولم يعقب عليه السلام ذكرا الا ابراهيم بن رسول الله ، مات صغيرا لم يستكمل عامين فى حياة النبى عليه السلام .. وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الولد سوى ابراهيم : القاسم ، وآخر اختلف فى اسمه فقيل : الطاهر ، وقيل الطيب ، وقيل عبد الله .. ماتوا صغارا جدا . وكان له عليه السلام من البنات : زينب أكبرهن ، وتاليتها رقية ، وتاليتها فاطمة ، وتاليتها أم كلثوم . أم جميع ولده ـ حاشا ابراهيم ـ خديجة أم المؤمنين » ..

وليس التوفيق بين هذه الروايات بمتعذر ، فيما يختص بعدد أبناء محمد ، فقد يقال إن اللقب التبس بالاسم ، وجعل الطيب والطاهر ولدين مع القاسم فهم ثلاثة ، أو مع القاسم وعبد الله فهم أربعة ، وما الطيب والطاهر ـ على الأرجح ـ سوى لقبين لعبد الله ، وبذلك يكون للنبى من خديجة ولدان اثنان ، وهذا هو المشهور عند جمهور المسلمين ، وهو ما يمكن ترجيحه بعد مقابلة كل تلك المرويات ..

***

أما فيما يتصل بوقت ولادتهما ووفاتهما ، فالتوفيق فيهما أشق

---

(١) الاصابة : ٦١/٨

(٢) للمصعب الزبيرى : ٢١ ط الذخائر

(٣) لابن حزم : ١٤ ط الذخائر

وأعسر . فقد انفرد « ابن اسحاق » بالرواية ـ دون اسناد ـ عن موتهما فى الجاهلية ، على حين روى غيره أن القاسم ولد فى الجاهلية ومات فى الاسلام ، وأما عبد الله فولد ومات فى الاسلام . وذكروا فى سندهم « الزبير بن العوام » وهو ابن أخت السيدة خديجة ، وأحد العشرة السابقين الى الاسلام ..

***

وأيا ما كان الأمر . فالذى لا ريب فيه أن البيت المحمدى لم تطل فرحته بولديه . فقد ماتا طفلين قبيل المبعث أو فى مستهله . ولعلنا لو حاولنا أن نلتمس دليلا يؤيد هذا . لوجدناه فى « سورة الكوثر » حيث يقول الله تعالى لنبيه الكريم :

« انا أعطيناك الكوثر . فصل لربك وانحر . ان شانئك هو الأبتر »

وسورة الكوثر . مكية مبكرة . فهى الخامسة عشرة فى ترتيب تاريخ النزول . بين السور المكية التى بلغت عدتها تسعا وثمانين سورة . وجمهرة المفسرين على أن الكوثر نزلت فى « العاص بن وائل السهمى » أحد أشراف مكة الذين ساروا الى أبى طالب يسألونه ان يرد ابن أخيه عن دعوته (١) ..

وكان العاص ـ فيما نقل ابن اسحاق كذلك ـ « اذا ذكر الرسول قال لقومه : دعوه ، فانما هو رجل أبتر لا عقب له ، لو مات لانقطع ذكره واسترحتم من أمره » فأنزل الله فى ذلك سورة الكوثر (٢) ..

ويقول « الزمخشرى » فى تفسير آية الكوثر : « ان من أبغضك هو الأبتر لا أنت ، لأن كل من يولد من المؤمنين الى يوم القيامة فهم أولادك وأعقابك . وذكرك مرفوع على المنابر . وعلى لسان كل عالم وذاكر الى آخر الدهر ، يبدأ بذكر الله ويثنى بذكرك ، فمثلك لا يقال له أبتر ، وانما

---

(١) راجع أقوال المفسرين فى سبب نزول هذه السورة

(٢) السيرة : ٢ / ٣٤

الأبتر هو شانئك المنسى فى الدنيا والآخرة ، وان ذُكر ذكر باللعن » (١)..

ولم يدْر بخلد ذلك الشانىء ، يوم عيَّر محمدا ، أن ذكر ابن عبد الله سوف يبقى حيًّا خالدا ما عُبد الله فى الأرض ..

لقد كان أقصى ما يتصوره هو والمشركون من قريش ، أن يستأثر حفيد عبد المطلب الهاشمى دونهم بالزعامة فى مكة ، وربما امتد سلطانه الى القبائل القريبة المجاورة فيبقى له الأمر ماعاش ، ثم ينقطع ذكره بموته ، أما أن يمتد سلطانه من أقصى المشرق الى أقصى المغرب ، ويخلد ذكره على مر العصور والآباد ، فذلك ما لم يكونوا يتصورونه وقد عاشوا حتى ذلك الحين محصورين فى جزيرتهم لا يكادون يخرجون عنها الا رُحلا أو متاجرين ..

وما كانت قرشية « محمد » الصميمة الخالصة ، لتهوّن عليهم انتقال السلطان اليه ، فان المنافسة على الشرف بين بيوت قريش كانت على أشدها ..

حدثوا أن الأخنس بن شريق الثقفى أتى أبا الحكم بن هشام بن المغيرة فسأله : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فأجاب : « ماذا سمعت ؟! .. تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ـ يعنى الديات ـ وأعطوا فأعطينا ، حتى اذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء ! .. فمتى ندرك مثل هذه ؟! . والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه » (٢) ..

على أن النزاع بين بنى عبد مناف أنفسهم لم يكن الا شبيها بهذا أو أشد منه ، فقد كان هناك البيت العبشمى والبيت الهاشمى ، يتنازعان ما استرده أبواهما « عبد شمس وهاشم : ابنا عبد مناف » من ميراث جدهم « قصى » الذى كان قد وصى بما بيديه من مناصب الشرف لولده « عبد الدار » كى يلحقه بأخيه « عبد مناف » الذى شرف فى زمان

(١) الكشاف : ٤/٢٣٧

(٢) السيرة : ١/٣٣٨

أبيه وذهب كل مذهب ، وقد بُعث محمد بدعوته رسولا ؛ وفى بنى هاشم بن عبد مناف السقاية والرفادة ، وفى بنى عبد شمس بن عبد مناف اللواء ، ونذكر هنا ما مر بنا من خبر قيام قريش فى وجه « عبد المطلب ابن هاشم » حين هم بحفر بئر زمزم . كيلا يستأثر دونهم بهذا الشرف ؛ فهل تراهم يتركون حفيد عبد المطلب يظهر نبيا ورسولا من السماء ؟..

الى ذلك المدى بلغت المنافسة على الرياسة والشرف بين بيوت قريش ، فلا عجب أن بات القوم يتعللون بانقضاء ذكر محمد بموته ويقول قائلهم مهونا عليهم الأمر :

« دعوه فانما هو أبتر !.. »

أما محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد كان يؤمن بأن الله بالغ أمره ، وناصر رسوله . ومخلد دعوته ، دون حاجة الى ولد من صلب الرسول يرثها وينهض بها من بعده . فالنبوة اصطفاه لا وراثة ، وهو صلى الله عليه وسلم قد بعث بختام الرسالات ..

***

ولست بالقائلة مع هذا كله ، ان محمدا تجرد من حب البنين ؛ فما كانت بشريته ، صلى الله عليه وسلم ، لتسمح له بذلك ، ولا كانت فطرته السوية بالتى تجسَّد فيها أسمى المشاعر الانسانية وتنزع منها غريزة يرتهن بها حفظ النوع وعمران الكون ..

ولقد فاضت عاطفة أبوته على اثنين كانا له بمثابة الولد : أولهما « على ابن أبى طالب » وكانت قريش قد أصابتها أزمة شديدة وأبو طالب ذو عيال ، فقال محمد لعمه العباس ، أغنى بنى عبد المطلب :

« ان أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة ، فانطلق بنا اليه فلنخفف عنه من عياله : آخذ من بنيه رجلا وتأخذ أنت رجلا ، فنكفلهما عنه » ..

ووسَّع محمد لابن عمه «على» مكانا فى بيته ، وفى قلبه ، ثم زوجه ،

بعد الهجرة ، من الزهراء ، أصغر بناته وأحبهن اليه (١) ..

أما الثاني فزيد بن حارثة الكلبى ، وكانت أمه سعدى بنت ثعلبة الطائى ، خرجت به صبيا لتزيره أهلها فى طيىء . فأصابته خيل من بنى القين بن جسر فباعوه بسوق حباشة ، واشتراه حكيم بن حزام بن خويلد لعمته السيدة خديجة التى وهبته زوجها قبل المبعث . فأعتقه وتبناه ، وأذاع فى الملأ من قريش أنه ابنه وارثا وموروثا ، فصار يدعى زيد بن محمد ، حتى جاء أمر الاسلام : « ادعوهم لآبائهم » فدُعى زيدَ ابن حارثة ، وظل مع ذلك أثيرا عند الرسول مقربا اليه عزيزا عليه ..

ثم كان هناك بنو خديجة من زوجيها السابقين . والراجح أن واحدا منهم — على الأقل — كان يعيش مع أمه فى رعاية زوجها الهاشمى الامين

فكتب طبقات الصحابة . تترجم للصحابى « هند بن أبى هالة التميمى » فتذكره بأنه : « ربيب رسول الله صلعم ، أمه خديجة بنت خويلد » (٢)

وعن « هند » رُويت صفة الرسول الكريم ، رواها الحسن بن على ابن أبى طالب عن خاله هندبن أبى هالة ربيب النبى ، أخىفاطمةالزهراء (٣)

وقد ظل محمد — صلى الله عليه وسلم — حتى أخريات أعوامه يشتاق الولد ويلتمس الوسيلة اليه ، حتى اذا وهبه الله على الكبر غلاما ، امتلأت نفسه الكبيرة غبطة وهناءة وفرحا . لولا أن الله لم يمهل « ابراهيم » غير ثمانية عشر شهرا ثم قبضه اليه . فحزن الأب الثاكل لفقده أشد الحزن ولم يكتم ألمه ، ولا ملك دموعه . وان ظل على الحزن مستسلما لقضاء الله الذى شاء لحكمة سامية ، ألا يكون لمحمد فى تلك البيئة المفتونة بالبنين ولد ذكر ، وإن دان برسالته ملايين البشر فى مشارق الأرض ومغاربها ..

---

(١) ابن حجر : الاصابة — والسيرة: ١/٢٦٣

(٢) الاستيعاب : ١٥٤٤/٤ . وقد كان هند فصيحا بليغا . شهد احدا ، وقيل شهد بدرا

(٣) وأبوه : أبو هالة هند بن زرارة من بنى عمرو بن تميم بن مر .. راجع ترجمة هند بن هند من السيدة خديجة ، فى (الاصابة) رقم ٩٠٠٧ — وانظر جمهرة انساب العرب ١٩٩ —

حب النبى لبناته

آن لنا أن نستأنف الحديث عن بنات محمد ، اللواتى كُتب لهن أن يعشن دون اخوتهن من البنين ، وأن يتزوجن جميعا فى حياة أبيهن العظيم ، كما كتب عليه أن يثكل ثلاثا منهن ، ولا يبقى له غير الزهراء ..

ولا نعلم أحدا ممن عاصروا محمدا وحاربوه نبيا رسولا ، قد جحد حب محمد لبناته جميعا . أما أعداء الاسلام المحدثون من المستشرقين ، فيأبون أن يصدقوا أنه أحب بناته ذلك الحب الغامر الذى يبدو لهم شاذا ، وقد ركزوا حملتهم بوجه خاص على الأنباء المستفيضة بحب الرسول لفاطمة . زاعمين – كما سنرى بعد فى الفصل الخاص بالزهراء – أنها أنباء اختُرعت بعد عهد الرسول بزمن ، عندما ظهرت فكرة التشيع !

ولا نتعجل الآن الرد على ذلك الزعم الباطل ، وانما حسبنا – مؤقتا – أن نقدر حين نذكر حب محمدا لبناته الأربع ، أثر السيدات الثلاث الكريمات اللواتى دخلن حياته قبل أن يغدو أبا : أمه « آمنة بنت وهب » وقد ظل ما عاش يذكرها ويأسى لفقدها ، و « فاطمة بنت أسد بن هاشم » زوجة عمه أبى طالب التى كانت له من بعد أمه أما ،والتى سُمع رسول الله يقول انه لم يجد أبر به منها بعد أبى طالب (1) ، و « خديجة بنت خويلد » زوجته الحبيبة التى أنسته مرارة يتمه وحرمانه ، وملأت دنياه حبا وأنسا وطمأنينة وسلاما ..

سبحانه جلّت حكمته ، لكأنما أراد أن يروض الرجل الذى سوف يصطفيه نبيا ، على احتمال أبوة الأنوثة والصبر عليها ، كيما يعده للرسالة الجليلة التى سوف يعهد اليه بتبليغها ، ولكى ينشأ على الاعتداد بالذات ، وعدم الاستنصار بالولد ، ويكون فى أبوته لبنات أربع قدوة صالحة للمصدقين برسالته التى أعزت الأنوثة ، وقررت لها من الحقوق مالا تزال نساء من العصر الحديث ، يناضلن فى سبيل مثله !

---

(1) ابو الفرج الاصفهانى : مقاتل الطالبيين – وراجع ترجمتها فى (الاصابة) رقم ٧٣١ نساء ، ونسبها وولد ابى طالب منها . فى (نسب قريش) ص ٤٠ ذخائر

الشقيقات الأربع

خرجن الى الدنيا فى أكرم بيت ، وأنبتتهن سلالة قرشية عريقة أصيلة ما يعرف العرب أعز منها ولا أنقى ، واستقبلهن البيت الكريم استقبالا لم تظفر بشله لداتهن ، فقد كن ثمرة زواج سعيد قام على الحب المتبادل والمودة الخالصة ، يرى فيهن الأب صورة لطيفة من زوجته الحبيبة التى أنسته بحنانها الغامر كل ما ذاق فى طفولته من يتم ، وكانت له عوضا جميلا عما قاسى من حرمان ...

وتجد فيهن الأم ، فلذات حية من رجلها العزيز الذى بهرها منذ عرفته بجلال طلعته ، وأسرها بنبل شخصيته ، وفتنها بجميل خصاله ، فتفتح له قلبها المغلق ، وأقبلت على الحياة من جديد ..

وكانت طفولتهن سعيدة ناعمة ، لم ترهق بشظف العيش ، ولا أذبلها الحرمان ..

ودرجت حياتهن الأولى على ما نعرف من تقاليد البيوت القرشية العريقة ، فالتمست لهن — واحدة بعد الأخرى — خير المراضع بعيدا عن حر مكة الخانق وقيظها المنهك ، حتى اذا أدركن سن الفطام عدن الى حضانة الأم التى كانت لهن خير مربية ، وقد نفضت يديها منذ تزوجت « محمدا » من كل ما كان يشغلها من شئون التجارة ، وتركت للزوج الأمين الاشراف على استثمار ثروتها الواسعة ، وأقبلت هى بكل طاقتها ترعى دنياها الجديدة ، غير ملقية بالا الى ما وراء جدران بيتها السعيد ..

وأكسبتها تجربتها السابقة فى الأمومة ، خبرة بحضانة الصغار ودراية بتربيتهم ، فأسرعت فتياتها الى النمو بفضل ما تهيأ لهن من رعاية مثالية ، وتفتح صباهن كما يتفتح الزهر فى المنبت الطيب . واذا كانت ثروة الأسرة قد أتاحت لها استخدام من تشاء من الخدم والغلمان ،

فالحق أن عمل هؤلاء لم يكن يتجاوز شئون الخدمة الى حضانة الأطفال . اذ حرصت السيدة خديجة على أن تتولى بنفسها تلك المهمة الجليلة . كى تعد بناتها للمستقبل المرجو لهن ، وما فى مكة من تدانيهن شرفا وعزة ..

حتى اذا شبت كبراهن « زينب » عن الطوق ، بادرت أمها بتمرينها على المشاركة فى العبء الكبير . وأخذتها مبكرة مأخذ الجد ، ونأت بها عما يشغل لداتها وأترابها من عبث الطفولة ولهوها ، فكانت «زينب» لشقيقتها الصغرى « فاطمة » أما صغيرة ، ترعى شئونها وتمضى فراغها فى ملاعبتها ، كيما تعفى أمها من بعض مشاغلها وقد علت بها السن وجاوزت الخمسين من عمرها ..

وقرب هذا الوضع ما بين زينب وفاطمة ، كما أوجد تقارب السن ألفة بين الأختين رقية وأم كلثوم ، فكانتا رفيقتين متلازمتين ، يجمعهما الملعب المشترك والفراش الواحد ، والطباع المتشابهة ، والسمت المتماثل ، حتى لكأنهما توأمان !

وسارت حياة الشقيقات هكذا رخية هانئة حتى تزوجت كبراهن « زينب » فافتقدتها أخواتها وشعرن بالوحشة لغيابها ، ولبثن ليالى عديدات ينظرن الى فراشها الخالى فيخامرهن احساس مبهم يختلط فيه الفرح بالأسى . ودار سمرهن طوال هاتيك الليالى ، حول الزواج ، وقد أعياهن أن يدركن كنه هذا الوضع الذى ينتزع الفتاة من أحضان أهلها . ويلقى بها وحيدة الى رجل قد يكون غريبا أو شبه غريب !

وكانت صغراهن « فاطمة » بحكم طفولتها . أجهلهن لحكمة الزواج وأشدهن سخطا عليه ، فما أرضاها قط أن يبعدوا عنها « أمها الصغيرة » التى طالما لاعبتها ودللتها ورعتْها ولعلها ساءلت أختيها كيف هان على الأسرة أن تستقبل حادث الزواج بالفرح المعلن ، وتحتفل به فى بهجة وسخاء ، وكان أولى بها أن تتمسك بزينب ، أو لا فلتودعها كارهة ، بغير احتفال !

وتحاول رقية ـ متأثرة بشعورها أن الدور عليها ـ أن تهون الأمر على أختها الصغرى فاطمة . وأن تقنعها أن أبويها ماكانا ليسلما «زينب» الى زوجها فى احتفال بهيج كالذى كان . لولا ثقتهما ان فى هذا خيرها وسعادتها ..

لكن فاطمة تصر على رأيها فى الزواج . وقد يبدو لأم كلثوم أن تقول لأختيها :

ـ من يدرى ؟.. لعل ضجة العرس انما قصد بها شغل العروس عن التفكير فى قسوة التجربة الجديدة التى تواجهها بالانتقال من مهد حداثتها ومرتع صباها ..

واذ تحس من أختها « فاطمة » بوادر الاقتناع ، تمضى مزهوة برأيها ، فتلفت نظر أختيها الى ما بدا على أمهما بعد فراق زينب من شجو تحاول أن تكتمه ، فتفلت منها بوادر واشية به دالة عليه .

ثم تسألهما :

ـ أما سمعتماها غير مرة تنادى « رقية » باسم « زينب » ثم تتنبه فجأة ، فتستدرك بصوت رقيق حالم : ويحى !.. لقد نسيت أن زينب لم تعد هنا !

فتردد فاطمة فى أسى :

ـ هو ما تقولين ..

أما رقية فتجيب :

ـ انك تبالغين يا أم كلثوم ، فالواقع أن أمنا قد ألفت أن تنطق باسم زينب ، وليس فى سبق لسانها بهذا الاسم ما يستغرب ، وانما هو حكم الالف وسلطان العادة ..

ولكن « أم كلثوم » تستطرد قائلة دفاعا عن وجهة نظرها :

ـ فما قولك اذن فى أبينا ؟.. أو ما تلاحظين عليه منذ حين أنه يأنس الى الخلوة ويميل الى الوحدة ويجنح الى الصمت والتأمل ؟ أو مايبدو عليه فى هذه الأيام أنه مشغول البال بهم يطويه ؟

فهتفت « فاطمة » وهى تنتفض حبا وحنانا :

ـ يا لأبى العزيز !.. انه لكما ذكرت يا أم كلثوم .

وقالت رقية :

ـ وما يدريكما أن لفراق زينب صلةً بميل أبينا الى العزلة وشغفه بالخلوة ؟

فهزت « أم كلثوم » رأسها وهى تقول بلهجة ذات مغزى :

ـ ما أراك يا رقية الا تعدين نفسك لمثل مصير زينب ، وقد جاء دورك !

فردت « رقية » فى غير انفعال :

ـ ما خطر لى هذا يا أخت ببال ..

وعقبت فاطمة :

ـ فلتتزوجا أنتما وليبارك الله لكما ، أما أنا فلست بتاركة أبوى ما استطعت الى ذلك سبيلا ..

ولم تدر « فاطمة » وهى تلقى هذه العبارة ، أنها كانت تنطق بلسان القدر ! ..

فما مضى على زواج « زينب » غير قليل ، حتى خطبت أختاها رقية وأم كلثوم . وبقيت هى فى بيت أبيها ، ما استطاعت الى ذلك سبيلا ..

***

الى هنا ينتهى الفصل الأول من حياة الشقيقات الأربع ، بانتهاء حياتهن المشتركة فى بيت أبويهن . ويبدأ فصل آخر نرى فيه كل واحدة منهن قد واجهت دنياها الجديدة واستقلت بحياتها الخاصة ، فلنحاول أن نتبع كلا منهن . لنصحبها فى ذلك الدور الثانى من حياتها ، ونرى ما فعلت بها الأيام ..

زينب الكبرى

- العروس الهاشمية
- ابن الخالة
- سعادة لم تطل
- ليل لا يبدو له آخر
- الأسير والقلادة
- مسلمة ومشرك
- طارقٌ بليلٍ
- لقاء .. وفراق
- ذكرى ...

لم تكن قد جاوزت العاشرة من عمرها حين رنت اليها عيون الهاشميين . وتنافست بيوتات مكة على الظفر بها عروسا لمن يختاره لها أبواها من كرام الفتية القرشيين ..

ولكن واحدا منهم . لم يكن له من الأمل فى الزواج من « زينب » مثل ما لابن خالتها « أبى العاص بن الربيع » أحد رجال مكة المعدودين شرفا ومالا . فلقد أتيحت له فرصة لم تتح لسواه ، إذ كانت خالته « السيدة خديجة » تنزله منزلة الابن . فتهيأ له بذلك أن يغشى بيت « محمد » كلما أراد . فيجد من الترحاب البالغ والود الصادق ، ما يطمعه فى أن يكون الزوج المختار لزينب . تلك التى خفق لها قلبه منذ حداثتها الباكرة . فراح يرمقها وهى ترقى سراعا فى مدارج النمو ، وتتفتح للصبا ماء النضرة والبهاء ..

وكان مكانها فى بيت أبيها . كبرى بنات أربع ، قد أسرع بها الى النضج قبل الأوان . بما ألقى عليها من عبء المشاركة فى حضانة أخواتها ، مع الأم الطيبة التى كانت حينذاك قد جاوزت عامها الخمسين ، وأجهدتها بلا ريب مشاق الحمل والوضع المتتابع دراكا فى العقد الخامس من عمرها . فأضفت هذه المشاركة على « زينب » طابع الأنوثة الناضجة ، ولما تزل ندية الصبا غضة الإهاب ..

وكان « أبو العاص » يراها كلما ألم ببيت خالته فيؤخذ ببهاء مرآها وعذوبة حنانها وذكاء ملامحها ولطف طباعها وتفتح أنوثتها ..

وكانت مشاغله الجسام تمسكه أحيانا عن الالمام ببيت خالته ، وبخاصة فى المواسم الكبرى حين تزدحم مكة بأفواج الساعين اليها من الحجيج والتجار ، كما كانت رحلاته التجارية المتصلة ، الى الشمال والى الجنوب ، فى الصيف والشتاء ، تحجبه عن « أم القرى » فترات قد

تمتد وتطول حتى تبلغ الرحلة منها أشهرا ذوات عدد ، لكنه كان أبدا يرنو الى « أم القرى » على البعد ، خافق القلب مستثار الحنين ، يؤنسه طيف من تلك الصبية الرقيقة الوديعة ، التى يتألق وجهها بابتسامة حلوة ، وتفيض ملامحها بعذوبة آسرة ساحرة ..

ولم يغب عن باله قط ، أن الفتية الأمجاد من آل هاشم يرنون الى خطبتها ، لكنه كذلك كان يعرف فرصته ويطمئن الى مواتاة حظه ، فليس بين منافسيه جميعا من يتاح له مثل مكانته فى بيت محمد ، أو تتهيأ له فرصة التلطف فى كسب ود « زينب » والوسيلة الى الظفر بإعجابها وتقديرها ..

وأبت عليه ثقته فى نفسه أن يدخل مع منافسيه فى معركة مكشوفة ، بل اكتفى بأن يودع سره الغالى لدى خالته الرءوم ، وانصرف مطمئنا الى تدعيم مركزه وبناء مجده ، ليكون لزينب نعم القرين ..

وكذلك أبت عليه فطنته أن يحاول كسب عواطف فتاته فى عجلة ، أو أن يطرق باب قلبها البكر فى عنف ، فهى على نضجها واتزانها ماتزال الصبية الخجول ، وأى تسرع فى الكشف لها عن حبه قد يخدش حياءها العذرى ويجرح براءة صباها ، وهو ما كان ابن الخالة يتجنبه ويتقيه ..

وقد كلفه هذا الموقف جهدا غير قليل ، وفرض عليه قيودا ثقالا من الكتمان والحرص والتأنى ، ولكنه فى الوقت نفسه جعل « زينب » تطمئن اليه وتأنس له فى غير حذر ولا تحرج ، وقد بان لها من مخايل رجولته التى أنضجتها التجربة والرحلة ، ما جعلها تعتز به أخا ، ولا ترى فى فتيان قريش من يوزن به قوة شخصية وسعة خبرة ، وإن وزنوا به أصالة ونسبا ، وربما مالا كذلك ..

وقد اعتاد « أبو العاص » أن يجعل بيت « محمد » قبلته بعد الكعبة كلما آب من سفر ، فكانت « زينب » ترتاح الى محضره ، ويطيب لها أن تصغى الى ما فى جعبته من طرائف وغرائب التقطها من مدرسة

الأسفار . وكأنما كانت ترى فى وعيهـــا لحديث رحلاته . وفهمها لكلامه عن الدنيا والناس . آية رشدها الذى تميزت به عن لداتها وأترابها ..

وربما جاءها فى بعض أوباته من الرحلة بحلية جميلة أو هدية مناسبة ؛ فتتقبلها فى بساطة وبِشر . وترى فيها تحية جميلة لما يربطهما من أواصر المودة والقربى ..

وهكذا تفتح له قلبها البكر على مهل ؛ فأحست تلك اللمسة الرقيقة الساحرة تحرك وجدانها فى رفق ولطف . وكانت أمها الى جانبها ترقب هذا التفتح بعين ساهرة لا تنام . وقد أرضاها بلا ريب أن يظفر « أبو العاص » بقلب « زينب » والا فما كانت خديجة بالتى تفرضـــه على ابنتها لو أن قلبها ظل مغلقا دونه ..

و « خديجة » قد عرفت الحب الطاهر ونهلت من رحيقه العـــذب ، وخرجت من تجربتها العبقرية الفذة ــ التى بدت للقوم فى حينهـــا أشبه بمغامرة ــ أشد تحمسا للزواج القائم على الحب المتبادل . وأعمق إيمانا بأنه النعمة الكبرى التى تهبها السماء للموعودين السعداء ..

وتلطفت السيدة الأم . حتى أنبأت زوجها بهذه العاطفة الحلوة التى لمست قلب فتـــاته الأولى . فرقّ قلب الأب النبيل للحبيبين العزيزين ، وتمثلهما وهما يترشفان . فى حياتهما الزوجية . من ذاك النبع الســـخى المبارك الذى شاء له حظه أن ينهل منه أعواما دون أن يزهد أو يمل ..

هنالك وافقت « خديجة » على أن يتقدم ابن أختها الى أبى زينب خاطبا . وكان بودها لو تمهلت فترة لتستبقى ابنتها الكبرى الى جانبها ، لكنها رأت حرص الفتيـــة القرشيين على مصـــاهرة الهاشمى الأمين ، وخشيت اذا هى تريثت أمدا . أن يسبقوا « أبا العاص » الى طلب يد « زينب » فيكون شىء من الحرج لا ترضاه لزوجها العزيز ..

***

وقد أحسن « محمد » لقاء « أبى العاص » كما اعتاد دائما أن يفعل ،

وأصغى بملء سمعه اليه وهو يعرب له عن رغبته فى الزواج من « زينب » ثم كان جوابه ، أنه نعم الصهر الكفء ، لكنه مع ذلك يرجو أن يمهله ريثما يعلن هـذه الرغبة الى ابنتـه ، فإنها لأهل لأن تـكون صـاحبة الكلمة الأولى فى أمر جليل كهذا ، يعنيها أكثر مما يعنى أى فرد سواها

وكان الأب الكريم يعرف شعور ابنته نحو « أبى العاص » ورأيها فيه ، لكنه ، على ما يعرف من هـذا كله ، لم يشـأ أن يقطع فى الأمر دونها . وأراد بعد كل هذا أن يعفيها من حرج المواجهة ، فعهد الى آمهـا فى أن تسبقه اليها بالنبأ السعيد ، ثم قام يسعى حتى دنا من غرفتها فوقف قريبا منها بحيث تسمعه ولا تراه ، وقال بصوت ملؤه الحب والحنان :

ــ بنيتى زينب ، ان ابن خالتك أبا العاص بن الربيع ذكر اسمك ..

ولم ينتظر جوابها جهيرا معلنا ، فقد كان يعرف أن حياءها سـوف يمسك لسانها عن الرد ، اللهم الا ان كانت تأبى الزواج بالرجل فتتغلب على حيائها كيلا يتم الأمر على ما تكره ..

وتلبث الأب برهة يصغى ، فلم يسمع سوى خفقات القلب الطاهر ، ودعوات الأم الطيبة .. واذ ذاك عاد الى حيث ترك « أبا العاص » ينتظر ، فصافحه مهنئا داعيا مباركا ..

***

وذاع النبأ السعيد فى مكة ، فوجست له قلوب شبان طمعوا فى الظفر بالعروس الهاشمية ، لكن أحدا منهم لم يسعه أن يذم الصهر المختار . أقصى ما قالوه يومئـذ أن بنى العم كانوا أولى بزينب من ابن الخالة ، ثم أمسكوا فلم يقولوا عن أبى العاص إلا خيرا ، وهل كانوا يستطيعون أن يقولوا الا خيرا ؟..

قرشى صميم ، يلتقى نسبه من جهة الأب مع « محمد بن عبد الله » عند الجد الثالث : عبد مناف بن قصى ، فهو « أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس بن عبدمناف بن قصى » (١)

---

(١) نسب قريش ٢٣١ وجمهرة أنسـاب العرب : ٧٠ ـ ذخائر

ويلتقى نسبه من جهة الأم مع زينب بنت محمد ، عند جدهما الأدنى : خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى ، فأمه « هالة بنت خويلد » أخت خديجة الطاهرة ، زوج محمد وأم زينب ..

وكان الى جانب ذلك الأصل العريق والعرق الطيب ، كريم الخصال نبيل الشخصية ، حتى لقد لقبه قومه بالأمين (١) ، كما لقبوا محمد ابن عبد الله ..

وأتاحت له أمانته من ثقة الناس به واطمئنانهم اليه ماجعله يتقدم الى الصف الأول من صفوف التجار ، وهم يومئذ سراة مكة وأثرياؤها (٢)

ولقائل أن يقول ان السيدة خديجة ساعدت أبا العاص على تحقيق رغبته ، وأعانت على اختياره زوجا لزينب ، ولآخر أن يقول ان محمدا كان بحيث يؤثر الهاشميين ، لو لم يكن أبو العاص ابن أخت خديجة ، وهى من هى فى حياة محمد وفى قلبه وفى دنياه ..

ولكن اذا كانت السيدة خديجة قد مهدت السبيل أمام ابن الربيع ، فقد كان له وراء هذا من مجده المكتسب والموروث ما يزكيه ويغنيه ، ويفتح له أى بيت شاء من بيوتات مكة ، ويزف اليه أى عروس يختارها من زهرات المجتمع القرشى العالى ..

***

تهيأ البيت المحمدى للعرس ، وامتلأ بذلك الضجيج المحبوب الذى يقترن عادة بإعداد بيت جديد . وقد بعث « محمد » فى طلب أزكى العطور والأطياب ، كما أرسلت خديجة من يجوبون الأسواق القريبة ، ويترصدون من يفد على مكة من التجار ، ليأتوها بخير ما يحملون مما يصلح للعروس . على حين مضى « أبو العاص » يعد بيته لاستقبال الوافدة الغالية ، ويسخو فى هذا السبيل بما يتيحه له ثراؤه العريض ..

وآن موعد الزفاف ، ورددت أرجاء مكة أصداء العرس ، ونحرت

---

(١) المصعب الزبيرى : نسب قريش ٢٣١ ط الذخائر
(٢) السيرة : ٢/٣٠٦ وانظر معها الاصابة لابن حجر : ترجمة أبى العاص

الذبائح ودعى اليها كل من أظلته سماء البلد العتيق ..

وصحبت الأسرة المحمدية عروسها الى بيتها الجديد ، ولبثت هنالك وقتا تبارك الزوجين ، وتهون على الغالية مشقة فراقها لبيتها الأول الذى حلت فيه تمائمها ..

ثم تركتها فى رعاية زوجها الكريم ..

وهناك أظلت زينب وزوجها أبا العاص سعادة غامرة ، وأتاح لهما الحب المتبادل أن ينعما بالعيش فى ظل الزوجية الموفقة ، وان مرت بهما بين الحين والحين فترات من وحشة الفراق المؤقت ، ذلك أن أبا العاص كان مضطرا الى السفر فى تجارته ، فيمضى تاركا قلبه فى مكة ، وتحاول « زينب » أن تتجلد للفراق ، وتستعين عليه بزيارة بيت أبيها ، فرارا من وحدتها والتماسا لبعض التسلى ، واستروحا لذكريات طفولتها السعيدة ، وهنالك كانت تشهد ما يلوح فى أفق الأسرة من طلائع ذلك الغد المغيب ، وقد كثر انقطاع أبيها الى التعبد والتأمل فى خلوته بغار حراء ، وبدت أمها ولا شغل لها إلا أن ترمقه على البعد ، وتهيىء له ما فى طاقتها من أسباب الراحة والهدوء ..

وتتشاغل « زينب » بالمشاركة فى تدبير شئون الدار لكى تتيح لأمها الفراغ للتفكير فى الحبيب واعداد زاده والسهر على سلامته ، حتى يعود « أبو العاص » من سفره فترجع زينب الى بيتها حيث تفضى الى زوجها بما يساورها من قلق ، فيبث فى نفسها الطمأنينة ، ويردها الى مألوف حالتها من دعة واشراق ، وربما أنشدها بعض ما كان ينشده فى سفره ، وهو عنها بعيد :

ذكرتُ زينب لمـــا ورّكتْ ارِماً
فقلت سقيا لشخص يسكن الحرما
بنت الأمين جزاها الله صالحة
وكل بعلٍ سيثنى بالذى علما (١)

---

(١) طبقات ابن سعد : ٢٠/٨ ـ والاستيعاب ١٨٥٤/٤

ثم منَّ الله عليهما (١) بوليدهما « على بن أبى العاص » ومن بعده جاءت أخته « أمامة » ففاض عالمهما بالغبطة والفرح ..

***

وذات صباح ، سعت « زينب » مبكرة الى بيت أبيها وأبو العاص على سفر . فالتقت لدى الباب بأمها عائدة من زيارة عجلى لابن عمها « ورقة بن نوفل »

ولم يسبق لزينب أن رأت أمها على مثل هذه الحال من اللهفة والاهتمام والاشتغال . وقد راعها أن مرَّت بها فلم تكد تراها ، بل اندفعت لا تلوى على شىء نحو مخدع زوجها ، حيث تلبثت هناك فترة غير قصيرة ، قبل أن تخرج الى بنتها وقد عاودها هدوؤها ..

وأصغت « زينب » الى أمها وهى تحدثها حديثا عجبا عن نزول الوحى على أبيها صلى الله عليه وسلم وهو يتعبد فى غار حراء ، فأخذت بما سمعت حتى لم تحر جوابا ، ذلك أن الأمر كان من الخطر والجلال بحيث قصرت عن إدراكه وأعياها أن تبلغ مداه ..

ولبثت فى مكانها ساكنة لا تريم ، وأفلت منها زمام أفكارها فلم تدر من أين تبدأ ولا أين تنتهى ، بل خيل اليها أنها تسبح نائمة فى بحر لجى لا تدرك عبره !

حتى ردها الى يقظتها صوت أختها فاطمة تقول :

ــ أو ما يسرك يا أختى أنك بنت نبى هذه الأمة ؟

أجابت بعد تأمل صامت :

ــ أجل والله يافاطمة ، وأى فتاة لايزدهيها ذلك الشرف الذى ما بعده شرف ؟ لكنه الذى سمعتُ وسمعتِ من قول خالى «ورقة» : ليُكَذَّبن أبى ، وليؤذيَن ، وليخرجَن ، وليقاتلَن ! (٢)

ففكرت « فاطمة » مليا وقد عزَّ عليها أن يؤذَى أبوها ، ثم رفعت

---

(١) نسب قريش ٧٠ ــ وجمهرة أنساب العرب ١٥٨ ــ والاستيعاب ٤/١٨٥٤

(٢) تاريخ الطبرى ٢ ٢٠٧

وجهها وقالت لأختها :

ــ هو والله ما قالت أمي لأبي :

« الله يرعانا يا أبا القاسم ، أبشر يا ابن عم واثبت ، والله لا يخزيك الله أبدا . إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتؤدى الأمانة ، وتحمل الكلّ ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق » (١)

وابتسمت زينب ، وكذلك فعلت فاطمة ، وان أحست كلتاهما أن لهذا الأمر ما بعده !

***

عاد « ابن الربيع » من رحلته ، وملء سمعه شائعات تناقلها الركبان ، عن ظهور « محمد بن عبد الله » بدين جديد ..

وأسرّت اليه زوجته « زينب » بالنبأ اليقين ووجهها يفيض بشرا وفخرا ، فما راعها الا أن أمسك صامتا لا يعقب !

وسألته :

ــ ما بك يا ابن الخالة ؟

أجاب وهو يضمها الى صدره :

ــ بي ياحبيبة أني خائف ..

ثم أرسلها من بين ذراعيه وهو يردد كمن يحدث نفسه :

ــ لو تبعته لقال القول : فارق دين آبائه إرضاء لزوجه وحميه ، ولو خالفته ..

فلم تدعه زينب يتم كلمته ، بل قاطعته في لهفة وضراعة :

ــ لكنك لن تدع كلام القوم يثنيك عن الحق ..

ورنت إليه طويلا قبل أن تستطرد قائلة :

ــ وأنا بعد قد أسلمتُ يا ابن الخالة ..

قال وقد أسقِط في يده :

ــ أو قد فعلتِها يا زينب ؟

---

(١) ابن حجر : الاصابة : ٨/٦١ . وتاريخ الطبرى ٢/٢٠٥

أجابت :

ــ ما كنت لأكذب أبى ، وإنه والله لكما عرفت : الصادق الأمين ..

ثم أضافت :

ــ وكذلك أسلمت أمى وأخوتى ، وعلىّ ابن العم أبى طالب ، وأبو بكر ، وأسلم من قومك ابنُ عمك عثمان بن عفان بن أبى العاصى بن أمية ابن عبد شمس ، وابن خالك الزبير بن العوام بن خويلد ..

فلم يبد عليه أنه أصغى الى ما تقول ، بل استطرد متسائلا وفى صوته رنة أسى وملام :

ــ فهل فكرت يا زينب حين تبعتِ دين أبيك ، فيما يحدث لو أنى بقيت عن دين آبائى ؟

فهزت رأسها وهى تجيب :

ــ كلا يا ابن الخالة ، بل رجوت أن تسبق إلى الاسلام كما سبق اليه من قومك عثمان ابن عمك والزبير ابن خالك ..

فانثنى موليا ، وخرج الى دار الندوة ، وبقيت هى تنتظر على جمر .. وآب اليها فى غسق الدجى واجما مطرقا ، فلم تحاول أن تسأله عما به ، بل تركته حتى جلس وقال من تلقاء نفسه بصوت حزين :

ــ لقيتُ أباك اليوم فى الكعبة يازينب ، ودعانى الى الاسلام (1) ثم لم يزد ..

وكان فى وجوم ملامحه ، وترنح صوته ، ما يغنى زينب عن سؤاله : بم أجاب الدعوة ؟

ووقفا فى أعماق الليل يطويهما الحزن والخوف والأسى ، فلما أرهقتهما وطأة الموقف تدانيا حتى همَّا بعناق ، ثم ما لبثا أن تراجعا فجأة ، وكأن حاجزا غير مرئى يقف بينهما فيحول دون ما يبغيان من شعور بالتدانى ، والتمس كل منهما فى صاحبه ملاذا وسكنا ..

ولم يناما ليلتهما ، ولا ما بعدها من ليال ، اللهم الا أن يغلبهما الكلال

(1) السيرة : ٢/٢٠٦

فيغفوا مجهدين ، غفوات خاطفة قلقة ممزقة

وقال لها ذات ليلة وقد راعه ما تكابد :

ـ والله ما أبوك عندى بمتَّهم ، وليس أحب الىَّ من أن أسلك معك ياحبيبة فى شعب واحد ، لكنى أكره لك أن يقال إن زوجك خذل قومه وكفر بآبائه إرضاء لامرأته ، فهلا قدرت وعذرت ! ؟

فتندت عيناها بالدموع ولم تجب ، وإن خايلها الأمل فى أن تنجلى الغمة عن قريب ، كما منتها أمها خديجة ..

***

على أن الغمة لم تنجل سراعا ، بل طال عليها الأمد وجاوزت المدى ، وهذه قريش قد لجت فى عداوتها للرسول ، وأمعنت فيمن اتبعوه أذى واضطهادا حتى أثخنتهم بالجراح وأخرجتهم من ديارهم وأموالهم . ثم لم يكفها كل ذاك الذى فعلت بالمسلمين ، بل مدت يد الأذى الى بنى هاشم وبنى عبد المطلب ، لأنهم أبوا أن يسلموا رجلهم الى أعدائه المشركين ، فكانت المقاطعة الرهيبة التى سُجلت فى صحيفة عُلقت بالكعبة ، وخرجت بالهاشميين الى شِعب أبى طالب بظاهر مكة ، حيث أقاموا هنالك فى حصار طويل منهك (١)

ولم تكن « زينب » فيمن خرج الى الشِعب ، لكن أنباء من فيه كانت تأتيها فى دار زوجها ، فتروعها بالذى يكابده أهلها هنالك ..

ولم تنجل محنة الحصار ، الا لتسلم إلى ليل طويل ، لا يبدو له آخر ! ..

ماتت « خديجة » ..

ومات « أبو طالب » ..

فأحيا فقدهما ما مات من آمال المشركين فى النصر على النبى ، وعادت معركة الاضطهاد التى فترت هونا عقب فك الحصار ، الى أشد مما

---

(١) تاريخ الطبرى : ٢/٢٢٥ والسيرة لابن هشام : ١/٣٧٥

كانت عليه تأججا وسعيرا ..

وبدأ أتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، يهاجرون تباعا فرارا بدينهم من الفتنـــة والأذى ، حتى لم يبق مع الرسول بمكة الا من حُبس أو فُتن ، غيرَ على بن أبى طالب ، وأبى بكر الصديق رضى الله عنهما ..

وبلغت هذه المرحلة من المعركة ذروتها ، وسرى الهمس فى مكة أن المشركين فقد ائتمروا بمحمد ليقتلوه ويستريحوا منه ..

وأصـــبحت « زينب » ذات يوم ، ومكة من أدناها الى أقصـــاها ، تتحدث عن مطاردة قريش لمحمد الذى خرج من « مكة » وليس معه سوى صاحبه أبى بكر الصديق ..

وأوجست فى قلبها خيفة « زينب » وهى تصغى الى أنبـــاء المطاردة العنيفة العنيدة ، حتى اذا بلغها وصول أبيها صلى الله عليه وسلم الى مأمنه فى دار الهجرة ، اطمأن بالها ..

وجاء رسول من يثرب فصحب أختيها « فاطمة وأم كلثوم » الى هناك ، وكانت « رقية » قد هاجرت كذلك من قبل ، وبقيت زينب فى دار ابن الربيع بمكة ، اذ لم يكن الإسلام قد فرق بينهما بعد ..

وتلفتت حولها فإذا مكة قد خلت من كل الأهل ، وإذا دار أبيهـــا مغلقة خلاء ، اللهم من أطياف الأحباب الذين هجروها كارهين ..

وطالما وقفت زينب بالديار المقفرة الموحشة ، تسألها : أين من كانوا بالأمس يملئونها بهجة وأنسا ؟

أين محمد وخديجة ؟ وأين رقية وأم كلثوم وفاطمة ؟ وأين القـــاسم والطيب ؟..

رحلوا جميعـــا ، فأما خديجة وولداها فإلى غير مآب ، وأما محمـــد وبناته فإلى هجرة واغتراب ..

والتمست قبر أمها فأكبت عليه تروى الثرى بدمعها ، حتى اذا أراحها البكاء هونا أغرقت فى تأمل صامت حزين :

واعجبا ! الأحيـــاء من أهلها وأحبابها جد نائين ، والموتى منهم هم

الجيران الأقربون !..

وذكرت سعادتها المدبرة ، فشعرت بقلبها يكاد يتصدع : إن زوجها العزيز لايزال على دين آبائه ، ولو كان قد أسلم لما تمزق الشمل وانفردت هنا بمكة ، بعيدا عن أبيها وأخواتها ..

***

وتتابعت النذر معلنة عن دنو عاصفة عاتية ، فمحمد صلى الله عليه وسلم قد وجد فى « يثرب » نصرا ومقاما ، وأصحابه هناك يتربصون بقريش ليقطعوا عليها طريقها الحيوى بين مكة والشام ، وقد نجحت جماعة منهم فى الظفر بعيرٍ تحمل تجارة لقريش ، فيها عمرو بن الحضرمى ، فعاد المسلمون الى يثرب بالعير وبعض الأسرى ، وتركوا ابن الحضرمى صريعا بسهم على أديم الصحراء (١) ..

وظل أهل مكة بين مصدق ومكذب ومرتاب فى أمر هذه القلة المغتربة مع « محمد » بغير عدة ولا مال ، حتى روعوا بعودة « ضمضم بن عمرو الغفارى » ــ وكان مسافرا فى تجارة بالشام مع أبى سفيان ــ فما بلغ مكة حتى وقف على بعيره وحوّل رحله وشق قميصه وصاح مستنفرا :

ــ يا معشر قريش .. اللطيمةَ اللطيمةَ ! .. أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه لا أرى لكم أن تدركوها .. الغوثَ الغوثَ ! (٢) ..

فجاءته الأصوات من كل جانب :

ــ أيظن محمد وأصحابه أن تكون عِير أبى سفيان كعيرِ ابن الحضرمى ؟ كلا والله ليعلمن غير ذلك !

وصك الصوت سمع « زينب » فأدركت أنها الحرب ..

الحرب بين قريش والمسلمين ..

وفى الأولين زوجها ووالد طفليها علىٍّ وأمامة : أبو العاص بن الربيع .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢ ق وتاريخ الطبرى : ٢/٢٦٣ ــ والسيرة : ٢/٢٥٣

(٢) السيرة لابن هشام : ٢/٢٦٠

وفى الآخرين أبوها : محمد رسول الله !

وباتت ليلتها وليس فيمن تظله سماء مكة أشقى منها ولا أفدح هما

فلما أصبحت ، وقفت ترقب قريشا وهى تسير فى ألف مقاتل كاملى العدة شاكى السلاح ..

كم ترى يكون عدد الجيش مع أبيها فى يثرب ؟ مائة ؟ مائتان ؟ ثلاثمائة ؟ يا لزينب مما تتمخض عنه المعركة الرهيبة غير المتكافئة ..

وانثنت الى مهد صغيريها ، على وأمامة ، فرنت اليهما بعين دامعة وقلب متصدع ، ثم همست بصوت حزين أبح :

ــ لن تطلع علينا الشمس فى مثل يومنا هذا ، إلا وأنتما يتيمان ، أو أنا ...

ثم أرخت يديها ، وجمد الدمع فى مقلتيها ، واستسلمت لقضاء الله وقدره ..

ولم تحاول أن تتبع أنباء القتال الدائر أو تتلمس ما يصل الى مكة من أخباره ، فأيا ما كانت النتيجة ، فليس أمام « زينب بنت محمد » الا اليتم أو الترمل !

واذ هى منطوية على نفسها تجتر مخاوفها ، جاءتها عمة أبيها « عاتكة بنت عبد المطلب » فابتدرتها قائلة :

ــ أو ما بلغكِ النبأ العجيب ؟

فنظرت اليها زينب بادية اليأس ، ولم تجب ..

واستطردت العمة :

ــ انتصر محمد فى قلة من صحابته ، على قريش فى كثرتها وعدتها ..

فانتفضت زينب هاتفة :

ــ انتصر أبى ! ؟ .. وا فرحتاه ! ..

ثم تذكرت بغتة زوجها أبا العاص ، فضمت طفليها الى صدرها واستعبرت باكية ..

لكن العمة عجلت اليها بالبشرى : لم يقتل أبو العاص ، بل وقع فى أسر صهره الكريم ..

هنالك تعلقت « زينب » بعنق عمتها ، تقبلها بدموع الفرح ، ثم سكنت على صدرها مجهدة تستريح ..

***

وأتتها بقية من الأنباء بعد حين ..

جاءت بها فلول الجيش المهزوم الذى ترك هامات قريش ورءوسها مجندلة صرعى حول ماء بدر ..

وأذيعت أسماء الأسرى ، فبعث ذووهم فى الفداء ..

وكان « أبو العاصى » ذا مال ، وقد أراد أهله أن يغلوا فى فدائه ، لكن « زينب » آثرت أن تفتديه بما هو أغلى من المال ..

***

سيق أسرى بدر الى يثرب فى أعقاب الفئة الظافرة ، فتأملهم الرسول صلى الله عليه وسلم ملياً ، ثم نحَّى عنهم صهره « ابن الربيع » وفرق الباقين بين أصحابه وقال :

« استوصوا بالأسارى خيرا » ..

وبقى أبو العاص عند النبى ، حتى جاءت رسل قريش فى فداء أسراها ..

وغالوا فى الفداء ، حتى ان المرأة لتسأل عن أغلى ما فُدى به قرشى ، فيقال لها : أربعة آلاف درهم . فتبعث بمثلها فى فداء ابنها (١) ..

وتقدم « عمرو بن الربيع » أخو أبى العاصى ، فقال للنبى :

ــ بعثتنى « زينب بنت محمد » بهذا ، فى فداء زوجها ، أخى ، أبى العاصى بن الربيع .. (٢)

---

(١) السيرة : ٢/٣١٦ ، والطبرى : حوادث السنة الثانية للهجرة . وانظر الطبقات الاخرى لابن سعد : ٢/١١ ــ ولاحظ أن ابن الربيع، يذكر فى بعض المصادر باسم « أبى العاصى » وفى بعض آخر باسم « ابى العاص »

(٢) مسند احمد : ٦/٢٧٦ والسيرة ٢/٢١٧

وأخرج من ثيابه صُرَّة قدمها الى الرسول ، فاذا فيها « قلادة » لم يكد « محمد » يراها حتى رق لها رقة شديدة ، وخفق قلبه للذكرى ..

لقد كانت قلادةَ « خديجة » أهدتها الى ابنتها زينب يوم عرسها حين زفتها الى أبى العاصى ، ابن أختها « هالة » ..

وأطرق أصحاب الرسول خشعا وقد أخِذوا بجلال الموقف وروعته :

قلادة الحبيبة ، تبعثها بنت النبى الى أبيها ، فى فداء زوج حبيب !..

وتكلم الأب النبى بعد فترة صمت ، فقال فى حنان :

ـ إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها . فافعلوا (١)

فهتفوا جميعا بملء قلوبهم :

ـ نعم يا رسول الله ..

وأدنى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ اليه صهره الذى غلبه التأثر لهيبة الموقف ، فأسرَّ اليه حديثا لم يعلم ما هو ، فحنى ابن هالة رأسه موافقا ، ثم حيًّا ومضى . فلما أبعد ، التفت الرسول الى أصحابه من حوله ، فأثنى على أبى العاص خيرا وقال :

ـ والله ماذممناه صهرا !

***

دخل « أبو العاص » بيته فما رأته زوجته « زينب » حتى وثب قلبها إليه فرحة بنجاته . ثم لم تسعفها قواها على النهوض لفرط ما هزها الانفعال ، فرفعت وجهها الجميل الى السماء تحمد الله أن رده سالمًا اليها والى طفليه ، وتضرع اليه تعالى أن يشرح قلبه للاسلام ..

وشغلتها فرحة اللقاء ، فلم تلمح ما يغشى وجه زوجها من وجوم واكتئاب ، الى أن قال وهو مغمض العينين كأنما يشفق أن يرى وقع كلماته عليها :

ـ جئتك مودعا يا زينب ..

---

(١) السيرة : ٣١٧/٢ – وتاريخ الطبرى ٢٩١/٢ والاستيعاب : ١٧٠١/٤

فسألت بقلب واجف :

ـ هكذا ولما نكد نلتقى ! .

قال وما زال يتحاشى النظر اليها :

ـ لستُ راحلا يا زينب ، ولكنك الراحلة هذه المرة !..

وهالها ما تسمع ..

كانت تعرف أن قريشا أرادت أصهار الرسول على أن يردوا بناته اليه ليشغلوه بهن ، وقد استجاب لهم زوجا أختيها « رقية وأم كلثوم » فردَّاهما الى أبيهما . أما أبو العاصى فتركهم يقولون :

ـ فارق صاحبتك ونحن نزوجك أى امرأة من قريش ..

ثم صدمهم بجوابه :

ـ لا والله انى لا أفارق صاحبتى ، وما أحب أن لى بامرأتى امرأة من قريش (١)

فهل تراهم عاودوه اليوم فى أمر فراقها فاستجاب لهم بعد الذى كان فى « بدر » ؟

وشعرت ببرودة تجمد أطرافها وتسرى الى قلبها ، فاستندت الى جدار مخدعها مرتعدة ، تنتظر فى استسلام يائس ، ماذا بعد ..

وأدرك « أبو العاص » ما خطر ببالها ، فبادرها قائلا فى حنو وكأنما ذاب قلبه فى صوته :

ـ رحماك يا حبيبة ، ان أباك هو الذى طلب أن أردك اليه ، لأن الاسلام فرَّق بينى وبينك . وقد وعدت محمدا أن أدعك تسيرين اليه ، وما كنت لأنكث عهدى ..

وحملها صوته الى بعيد ..

وتمثلت نفسها فى يثرب ، تقبل أباها وتعانق أخواتها ، وتلقى النازحين من الأهل والعشيرة .

---

(١) السيرة : ٢/٣٠٧ وانظر معه ترجمة أبى العاصى وسعى قريش فى طلاقه فى « الاصابة والاستيعاب »

وانتشت بالحلم الهنيء لحظة ، ثم آبت منه حين وقعت عيناها على « أبى العاصى » غارقا فى شجنه ، فسألته مترفقة :

ــ كم بقى لنا من وقت نقضيه معا ؟

أجاب بصوت واهن :

ــ ليس بالكثير .. ان هى الا أيام تتجهزين فيها للسفر ، ثم يكون الفراق المحتوم ..

وبقى سؤال لزينب :

ــ وترافقنى الى يثرب ؟..

فأمسك دموعا تحيرت فى مقلتيه وأجاب :

ــ كلا يا ابنة الخالة ، بل يأتى أخوك زيد بن حارثة ورفيق له من أنصار أبيك حتى يبلغا « بطن ياجج » ــ على بعد ثمانية أميال من مكة ــ فينتظرا هناك حتى تمرى بهما فيصحباك الى أبيك بيثرب (١)

***

وخرجت « زينب » فى الغداة تتجهز للسفر ، فلمحتها « هند بنت عتبة » التى روعها مصابها فى بدر ، وأخرجها من بيت زوجها أبى سفيان الى محافل مكة وأنديتها تدعو للثأر من المسلمين الذين قتلوا أباها عتبة بن ربيعة ، وعمها شيبة ، وأخاها الوليد بن عتبة ، وابن عمها عبيدة بن سعيد بن العاص بن أمية ، وابن زوجها حنظلة بن أبى سفيان ابن حرب ..

ولم يخفَ على هند ــ فى ذكائها اللماح ــ أن زينب انما تتجهز لتلحق بأبيها ، لكنها أرادت أن تستوثق من الأمر ، فدنت منها وقالت متلطفة :

ــ يا بنت محمد ، ألم يبلغنى أنك تريدين اللحوق بأبيك ؟..

فتحيرت « زينب » لا تدرى بماذا تجيب . وأضافت هند مجاملة :

ــ أى ابنة عمى ، ان كانت لك حاجة بمتاع مما يرفق بك فى سفرك

---

(١) السيرة : ٢/٣٠٨ ــ وتاريخ الطبرى : ٢/٢٩١

فان عندى حاجتك ، فلا تضطنى منى فانه لا يدخل بين النساء ما يدخل بين الرجال (١) ..

ولمست الكلمات الرقيقة الناعمة قلب زينب الطيبة الطاهرة ، فهمت بأن تفضى الى هند برحيلها القريب ، لولا أن شعرت بما يشبه الخوف ، فكتمت عن بنت عتبة خبر سفرها ..

ومضت كلتاهما لشأنها ..

أما زينب فقالت : « والله ما أراها قالت ذلك الا لتفعل ، ولكنى خفتها فأنكرت أن أكون أريد اللحوق بيثرب » (٢) ..

وأما هند ، فراحت تؤجج فى قريش نار الثأر ، وتغذيها بوقود من الحقد والبغضاء ..

***

وسرعان ما حل الموعد المضروب ..

وودعت « زينب » أبا العاص وداع مُحبة غير قالية ولا هاجرة ، وخرجت وفى أحشائها بضعة منه : جنين لم يستكمل شهره الرابع ..

وحاول « أبو العاص » أن يتجلد فقال :

ــ مهما يحدث يا زينب ، فسأبقى على حبك ما حييت ، وسيبقى طيفك أبدا ملء هذه الدار التى شهدت أيامنا الحلوة ..

ثم خانه تجلده ، فأرخى بصره وترك أخاه « كنانة بن الربيع » يمضى بزينب الى حيث ينتظرها زيد وصاحبه ..

وانطلق « كنانة » يقود بعيرها نهارا وقد أخذ قوسه وكنانته متأهبا ، فهال قريشا أن يخرج بها هكذا على مرأى منهم ومسمع ، وخرج رجال منهم فى أثر المهاجرة حتى أدركوها بذى طُوى ، فكان أسبقهم اليها « هبارُ بن الأسود الأسدى » الذى روعها بالرمح وقد جُن حزنه على اخوة له ثلاثة ، صرعوا جميعا فى بدر بأيدى أصحاب محمد ..

ونخس البعير ، فألقى براكبته على صخرة هناك ، واذ ذاك برك

(٢،١) السيرة : ٣٠٨/٢ وتاريخ الطبرى : ٢٩٢/٢

« كنانة » دونها ونثر كنانته وهو يزأر :

ــ والله لايدنو منى رجل الا وضعت فيه سهما ..

فتراجع المطاردون الجبناء ووقف « أبو سفيان » بعيدا يقول لكنانة :

ــ كف عنا نبلك حتى نكلمك ..

فكفَّ كنانة ..

وتقدم أبو سفيان حتى دنا منه وقال :

ــ انك لم تصب يا ابن الربيع : خرجت بالمرأة على رءوس النـاس علانية وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا وما دخل علينـا من محمـد . فيظن الناس أن ذلك عن ذل أصابنا ، وان ذلك منا ضعف ووهن . ولعمـرى ما لنا بحبسها عن أبيها من حاجة ، ولكن ارجع بالمرأة حتى اذا هدأت الأصوات وتحدث الناس أن قد رددناها ، فسُلَّها سرا فألحقها بأبيها (١)

فكبر على « كنانة » أن يردها ليعود فيتسلل بها سرا بعد أن يذاع فى الناس أن قد ردتها قريش . لولا أن سمع توجعها فالتفت اليها فراعه أن رآها تنزف دما . وقد طرحت جنينها على أديم الصحراء ! ..

وعاد بها الى مكة . حيث بقى « أبو العـاص » الى جانبهـا أياما يرعاها ولا يفارقها لحظة من ليل أو نهار ، فلما تماسكت بعض قواها ، خرج بها « كنانة » حتى أسـلمها الى « زيد بن حارثة » وما تزال تنزف دما ..

ولم يتبعها فى هذه المرة طالب ، بل أغمض الذين طاردوها بالأمس أعينهم ، وقد ركبهم الخزى والعار من قول « هند بنت عتبة » تعيرهم وتسخر بهم :

ــ أمعركة مع أنثى عزلاء ؟.. فهلا كانت هذه الشجاعة يومَ بدر ؟

أفى السلم أعيـارٌ ، جفاءً وغلظـةً
وفى الحرب أشباه النساء العوارك ؟ (٢)

(١) السيرة : ٢/٣٠٩ ــ وتاريخ الطبرى : ٢/٢٩٢
(٢) السيرة : ٢/٣١٠

ورجع « كنانة » الى أخيه بعد أن اطمأن عليها وهو يردد بسلء صوته ·

عجبت لهبَّار وأوباش قومه
يريدون اخفارى ببنت محمد !..
ولست أبالى ، ما حييت ، عديدهم
وما استجمعت قبضا يدى بالمهند ! (١)

***

استقبلت « يثرب » بنت الرسول باحتفال مهيب ، شابت فرحة اللقاء فيه ، سورةُ الغضب لما أصاب العقيلة الكريمة أولَ خروجها من مكة ، وحملت الركبان الى قريش قول شاعر الأنصار منذرا متوعدا :

أتانى الذى لا يقدر الناس قدره
لزينب فيهم من عقوق ومأثم
فأقسمت لا تنفك منا كتائب
سراة خميس فى لهام مسوَّم
نزوع قريش الكفر حتى نعلَّها
بخاطمة فوق الأنوف بيسم
ننزلهم أكناف نجد ونخله
وان يُتهِموا بالخيل والرجْل نُتهِمِ
يَد الدهر حتى لا يعوج سربنا
ونلحقهم آثارَ عاد وجرهم
فأبلغ أبا سفيان إما لقيته
لئن أنت لم تخلص سجودا وتُسلم
فأبشر بخزى فى الحياة معجل
وسربال قار خالدا فى جهنم ! .. (٢)

كذلك تحدثت الركبان بغضب الأب الرسول لابنته ، حتى لقد أمر أصحابه أن يحرقوا بالنار الرجلين الأثيمين — هبارا وزميله — اذا هم

(١، ٢) السيرة : ٢/٢١٠

ظفروا بهما . لكنه صلى الله عليه وسلم لم يكد يخلو الى نفسه ويتدبر ما كان من أمره باحراق الرجلين ، حتى رأى أنه جاوز فيهما ما يحق لمثله من حدود العقاب ، فلما تنفس الصبح بعث الى أصحابه مسترجعا ما سبق من أمره ، ومستبدلا بالاحراق عقوبة القتل ..

حدث أبو هريرة قال :

« بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية أنا فيها ، فقال لنا : ان ظفرتم بهبار بن الأسود أو الرجل الآخر الذى سبق معه الى زينب ـ سماه ابن اسحاق فقال : هو نافع بن عبد قيس ـ فحرقوهما بالنار ..

« فلما كان الغد بعث الينا فقال : انى كنت أمرتكم بتحريق هذين الرجلين ان أخذتموهما ، ثم رأيت أنه لا ينبغى لأحد أن يعذب بالنار الا الله ، فان ظفرتم بهما فاقتلوهما » (١) ..

***

ومضت سنوات ست ، حافلة بجليل الأحداث ، و « زينب » فى حمى أبيها بالمدينة تعيش على أمل لم يغلبها عليه اليأس قط ، وهو أن يشرح الله صدر « أبى العاص » للاسلام ..

وليس بمستغرب ألا نسمع عنهما خبرا فى هاتيك السنين ، وألا نلمح للسيدة زينب أثرا فيما كان بين نساء أبيها صلى الله عليه وسلم من شواغل الغيرة والتنافس ، وألا نعرف لأبى العاص بعد موقعة بدر ، مشاركة فى تلك الحرب الطاحنة التى لم تهدأ لحظة ، بين المسلمين فى المدينة والمشركين فى مكة ..

حتى كانت ليلة من ليالى جمادى الأولى من السنة السادسة للهجرة ، وقد باتت « زينب » مؤرقة تسامر ذكريات ألمت بها فذادت النوم عن عينيها .. وطاب لها أن تحلم فى يقظتها بالغد الذى طال انتظارها اياه ، فالمسلمون يزدادون كل يوم قوة وعددا ، وقد دخل فى دين محمد ألوف

---

(١) السيرة : ٢ / ٤١٢

وألوف ممن كانوا أشد الناس عداوة له وحربا عليه ، وبدا أن النصر الأكبر آت دون ريب ، فهل يسلم « أبو العاص » ؟..

ودنا الفجر وماتزال فى يقظتها الحالمة ، فلم تكد تشعر ببابها وهو يفتح فى تردد وحذر ، ثم يبدو منه فجأة « أبو العاص بن الربيع » وقد شحب وجهه وبان عليه القلق ..

وارتابت « زينب » فى يقظتها وظنت أن ما ترى ليس الا طيف من تحب ، يسرى اليها فى هدأة الليل ، ليذكرها بما لم تنس من ماض لهما سعيد ، ولى وراح ..

وعجبت للطيف يبدو هكذا شاخصا كما لم يبد لها من قبل على كثرة ما ألمّ بها . وغمغمت فى شجو ورقة :

ـ أبو العاص !..

فراعها أن يجيب بصوته المألوف :

ـ أجل يا أعز من لى .. أبو العاص ، ألقت به المقادير قريبا من يثرب ، فسعى اليك والمطاردون فى أثره ..

ولم تصدق « زينب » أذنيها ، بل ظلت ترمقه بنظرة حالمة وهى ما تزال أشبه بسنومة ، واستمرأت أن تبقى هكذا ، سعيدة بلقيا الطيف على غير موعد ، الى أن لمحت نور الفجر الوليد يتسلل من كوى الدار ، وسمعت بلال بن رباح يؤذن لصلاة الصبح بصوته الرخيم ، فتجيبه أصوات المؤمنين الذين هبوا من مضاجعهم عندما سمعوا دعاء السماء :

« الله أكبر » ..

وميزت خطوات قريبة ساعية الى المسجد فعرفت أنه أبوها يخرج ليصلى بالناس ..

وقالت كمن تحدث نفسها :

« رباه ، لكأنى فى يقظة ، ولكأنى بك يا أبا على الى جانبى ! .. »

فرد عليها صوتُ من حسبته طيفا :

ـ أجل يا زينب ، وهذا ضيفك ينتظر أن تحييه بعد أن أجهده

السرى ، وأرهقته المطاردة ، وأضناه الفراق !..

فسرت رعدة فى جسدها ، وقامت اليه تريد أن تحييه ، حتى اذا لم يبق بينها وبينه الا خطوة واحدة ، وقفت فجأة كمن تذكرت شيئا فاتها ، ورنت اليه بنظرة متسائلة دون أن يقوى لسانها على كلام ..

وهز ابن الربيع رأسه أسفا وهو يجيب عن سؤالها الصامت :

ــ كلا يا زينب ، لم آت يثرب مسلما ، وانما خرجت تاجرا الى الشام فى أموال لى وأخرى لرجال من قريش ، فلما فرغت من تجارتى وأقبلت قافلا ، لقيتنى سرية لأبيك فيها زيد بن حارثة ومعه مائة وسبعون رجلا ، فأصابوا كل ما معى وأعجزتهم هاربا ، حتى اذا جن الظلام جئتك متخفيا مستجيرا !..

فعادت الى مكانها الأول ، وهى تقول بصوت يقطر أسى ويأسا :

ــ مرحبا بابن الخالة ، مرحبا أبا على وأمامة ..

ولفهما صمت مشحون بالشجن ، وغرق الكون من حولهما فى سكون خاشع ، وبدا كأن الدنيا قد أمسكت أنفاسها لحظة ، ثم تناهى الى سمعها صوت أبيها النبى يكبر فى المسجد ، فجمعت زينب نفسها وقامت الى الباب ، ثم صاحت بملء صوتها :

« أيها الناس ، انى أجرت أبا العاص بن الربيع » (١) ..

وحمل نسيم الفجر صوتها الى من فى المسجد ، فلما سلم الرسول صلى الله عليه وسلم أقبل على من معه فقال :

« أيها الناس ، هل سمعتم ما سمعت ؟ .. »

أجابوا :

« نعم يا رسول الله » ..

قال :

« أما والذى نفس محمد بيده ، ما علمت بشىء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم » ..

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٦٣/٢
والاصابة : ٩١/٨ ــ والسيرة : ٣١٢/٢

وأضاف بعد صمت قصير :

« انه يجير على المسلمين أدناهم ، وقد أجرنا من أجارت » (١) ..

***

ثم انصرف عليه الصلاة والسلام فدخل على ابنته وعندها ابن خالتها ، فما كادت تراه حتى هتفت ضارعة :

ـ يا رسول الله ، ان أبا العاص ان قرُب فابنُ عم ، وان بعُد فأبو ولد ، وانى قد أجرته ..

فرنا اليهما الأب الكريم فى عطف وتأثر ، ثم قال يحدث ابنته :

ـ أى بنية ، أكرمى مثواه ، ولا يخلُصنّ اليك ، فانك لا تحلين له (٢) ..

وتركهما وما يدريان علام استقر رأيه فيهما ، فأتبعاه بصريهما حتى اذا بعد ، التفت كل منهما الى صاحبه ، وقالت زينب لائمة :

ـ هان عليك فراقنا يا أبا العاص ..

فأجابها وهو يمسك قلبه :

ـ معاذ الحب يا زينب ، أما والله ما طاب لى من بعدك عيش ..

فسألته :

ـ ففيم اذن هذا العذاب ؟.. وحتام ؟..

ـ أجاب :

ـ حتى يقضى الله فينا أمره ..

وأخفى وجهه بين راحتيه ، كيلا تلمح زينب دمعة ترنحت فى مقلتيه .. همست فى ضعف :

ـ يرحمنا الله يا ابن الخالة ..

فرفع وجهه اليها وقال متمهلا :

ـ لقد عرضوا علىّ بالأمس أن أسلم وآخذ ما معى من أموال فانها

(١) تاريخ الطبرى : ٢٩٢/٢ ـ السيرة : ٣١٣/٢ والاستيعاب : ١٧٠٢/٤ ـ وطبقات ابن سعد : ٦٣/٢

(٢) السيرة : ٣١٣/٢ ـ وتاريخ الطبرى : ٢٩٣/١ والاستيعاب : ١٧٠٢/٤

أموال المشركين . فأبيت قائلا : بئس ما أبدأ به اسلامى . أن أخـون أمانتى (١) ..

فحدقت زينب فيه لعلها تستبين ما وراء كلامه . لكنه تحاشى نظرتها وراح يتشاغل بمناجاة طفليه النائمين فى سلام ..

وفى الصبح ، بعث الرسول من يصحب « أبا العاص » الى المسجد ، حيث كان صلى الله عليه وسلم يجلس فى جمع من صحابته ، بينهم رجال السرية الذين أصابوا مال أبى العاص ..

وقال لهم الرسول :

ــ ان هذا الرجل منا حيث قد علمتم ، وقد أصبتم له مالا ، فان تحسنوا وتردوا عليه الذى له فإنا نحب ذلك ، وان أبيتم فهو فىء الله الذى أفاء عليكم فأنتم أحق به ..

أجابوا بصوت واحد :

ــ يا رسول الله ، بل نرده عليه ..

وأسرعوا يفعلون ، حتى ان أحدهم ليأتى بالدلو ، وبالاناء الصغير ، وبالسقاء البالى ، الى أن ردوا عليه ماله بأسره ، لم يفقد منه شيئا (٢)

وحان موعد رحيله ، فقال الرسول وهو يودعه :

ــ حدثنى فصدقنى ، ووعدنى فوفى لى ..

والتفت « أبو العاص » الى دار زينب مودعا من بعيـد ، ثم مضى وقد اعتزم أمرا ! ..

***

مضى حتى بلغ مكة ، وفرحت قريش اذ رأته يعود بتجارتها رابحة ، وبأموالها مشرة لم تمس ، وأقبلت عليه تستعجله الحديث عما كان من أمره مع الأعداء فى يثرب ، لكنه استمهل القوم حتى أدى الى كل ذى مال منهم ماله ، ثم وقف بحيث يُسمَع وصاح بأعلى صوته :

ــ يا معشر قريش ، هل بقى لأحد منكم عندى مال لم يأخذه ؟ ..

---

١ هشام : السيرة : ٢/٣١٤
٢ السيرة : ٢/٣١٣ ــ وتاريخ الطبرى :٢/٢٩٣

أجابوا : « لا .. فجزاك الله خيرا ، فقد وجدناك وفيا كريما ! .. »
فأدار فيهم بصره ، ثم قال على مهل وكأنه يزن كل كلمة مما يقول :
ــ فأنا أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله . والله ما منعني من الاسلام الا تخوف أن تظنوا أني انما أردت أن آكل أموالكم، فلما أداها الله اليكم وفرغت منها ، أسلمت (١) ..
وخلَّف القوم واجمين كأنما انقضت عليهم صاعقة ، وانطلق مستقبلا يثرب ..

***

هلَّ هلال المحرم من سنة سبع ، وقد عاد الرسول وصحبه من الحديبية ــ على بعد مرحلة من مكة ــ بعد أن عقدوا الصلح التاريخي الذي بدا كأنه المحاولة الأخيرة لمشركي مكة ، قبل المعركة الفاصلة
وتناقل الناس هنا وهناك ، حديث الرسول يوم حالت قريش بينه وبين ما أراد من دخول مكة ليحج الى البيت العتيق مسالما لا يريد قتالا :
« يا ويح قريش !.. لقد أكلتهم الحرب . ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب ، فان هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا ، وان أظهرني الله عليهم دخلوا في الاسلام وافرين ، وان لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش ؟.. فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة ! »
وأشار الى صفحة عنقه ..
وصدق رسول الله : يا ويح قريش ، لقد أكلتهم الحرب وما يزالون على عنادهم وكفرهم ، وانهم لعلى يقين أنها معركة خاسرة ، لكنهم مع يقينهم ذاك ، يأبون الا أن يلقوا بفلذات أكبادهم وقودا لنار الحرب ..
وفي قريش أهل وعشيرة ، وفي مكة للمسلمين المهاجرين وطن ورحم وقربى ، وان يثرب لتفتح قلبها قبل ذراعيها لكل من يفد اليها من هؤلاء مسلما ، وتوطىء له في رحابها منزلا وسكنا ..

---

(١) السيرة : ٢/٢١٣ ــ وتاريخ الطبري :١/٢٩٣ والاستيعاب : ٤/١٧٠٣

وها هى ذى تستقبل مع هلال المحرم « أبا العاص بن الربيع » وقد أتى من تلقاء نفسه مسلما ، فتتفاءل بمقدمه الذى اقترن بموعد الذكرى السابعة لهجرة نبى الاسلام ..

وقد توجه « أبو العاص » فور مقدمه ، الى مسجد الرسول ، مارا فى طريقه ببيت زينب ، فهلل المسلمون وكبروا حين رأوه يبايع النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم حفوا به مهنئين ، لكنه كان مشغول البال عنهم بأمر أهمه : أترى الرسول يرد اليه « زينب » بعد الذى كان ؟

وساوره القلق ، ثم ذكر أن الاسلام يَجُبُّ ما قبله ، فجمع شجاعته وتقدم الى الرسول بحاجته فى استرجاع زينب ..

وأثنى الرسول عليه خيرا ، ثم قام عليه الصلاة والسلام ، وسار الى بيته ومعه ابن الربيع ..

ودعا اليه ابنته ، فردها على أبى العاص : قيل ردها اليه على النكاح الأول ، وقيل ردها عليه بنكاح جديد (١)

واجتمع الشمل الممزق ، وتلاقى الزوجان الحبيبان بعد فراق طال مداه حتى استنفد الصبر وغلب التجمل وأفنى الاحتمال ..

***

ومضى عام واحد ، ثم كان الفراق الذى لا لقاء بعده فى هذه الدنيا

ماتت « زينب » فى مستهل السنة الثامنة من الهجرة ، متأثرة بعلتها التى لزمتها منذ طرحت جنينها على أديم الصحراء وهى خارجة من مكه

وريع « أبو العاص » للمصاب الفادح ، فأكب على الحبيبة يناجيها ويتشبث بها حتى أبكى من حوله ، ولم يجرؤ أحد منهم على ابعاده عن فراش الراقدة ، حتى جاء أبوها محزونا فاستودعها الله ، ثم قال للنساء :

— اغسلنها وترا : ثلاثا أو خمسا ، واجعلن فى الآخرة كافورا ..

هنالك غادر « أبو العاص » مخدع الغالية بخطوات مترنحة ، ووقف

---

(١) على القول الاول اقتصر الطبرى «٢/٢٩٣» ورواه ابن عبد البر فى الاستيعاب ٤/١٧٠٣ عن ابن عباس . ثم اتبعه بالقول الاخر وقال : وهو قول الشعبى وطائفة من أهل السير

بالباب ملتاعا شارد النظرات ، الى أن جهزوها للرحلة التى لايئوب منها مسافر ..

وصلى عليها أبوها الرسول فى مسجده ، ثم شيعها الى مرقدها حيث أودعوها ثرى يثرب وسووا عليها الرمال ..

ورجع « أبو العاص » الى داره التى كانت بالأمس جنة الحب ، فأمست بعد رحيل « زينب » منزل الذكريات والأشجان ..

وكاد الحزن يهلكه ، لولا أن وجد فى ولده «على» بعض عزاء ، وفى ابنته « أمامة » صورة حية من الراحلة ، تؤنس وحشته ، وتأسو جراحه ، وتمحو بعض ما ران على البيت من وجوم واكتئاب ..

وكذلك وجد الرسول فى « أمامة » مايخفف حزنه على « زينب » فكان يأنس بها ويهش لها ، وقد يحملها على عاتقه ويصلى بها ، فاذا سجد وضعها حتى يقضى صلاته ثم يعود فيحملها ..

وحدثت السيدة عائشة أن الرسول صلى الله عليه وسلم أهديت اليه هدية فيها قلادة من جزع . فقال : لأدفعنها الى أحب أهلى الىَّ . فقالت النساء : ذهبت بها ابنة أبى قحافة !.. لكن رسول الله دعا « أمامة » بنت زينب ، فأعلقها فى عنقها ..

ولم يكن جزع فاطمة على موت زينب بالذى يوصف ، فلقد راحت تبكى فيها أمها وشقيقتها وصديقتها وصاحبتها ، وتذكر أيامهما السعيدة فى مكة اذ البال خلى" وشمل الأسرة ملتئم . ثم كان لها ــ بعد سنين ــ بعض عزاء فى تسمية وليدتها باسم « زينب » احياء لذكرى الفقيدة الغالية ، وترديدا لاسمها الحبيب الذى لا يسل ..

ولحق « أبو العاص بن الربيع » بزينب ، أيام أبى بكر ، فى ذى الحجة من السنة الثانية عشرة للهجرة (١) ..

وأوصى بابنته أمامة الى « الزبير » ابن خاله العوام بن خويلد بن أسد . وقد زوجها الزبير من على بن أبى طالب بعد وفاة خالتها

(١) الاستيعاب : ١٧٠٤/٤ ــ وجمهرة انساب العرب : ٧٠

الزهراء (١) ، وظلت معه حتى قتل . فكان مشهدها وهى تطيف به اذ هو مسجى على فراشه ، يسزق القلوب ويفتت الأكباد ..

قالت « أم الهيثم النخعية » : (٢)

أشـــاب ذؤابتى وأذل ركـبى « أمامة » حـين فارقت القرينـا
تطيف به لحاجتهـــا اليـــه فلمـــا استيأست رفعت رهينا

وكان الامام الشهيد قد قال لأمامة حين حضرته الوفاة : « انى لا آمن أن يخطبك هذه الطاغية ـ يعنى معاوية ـ بعد موتى ، فان كان لك فى الرجال حاجة فقد رضيت لك المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب عشيرا » ..

فلما انقضت عدتها ، كتب « معاوية » الى مروان بن الحكم يأمره أن يخطبها عليه ، وبذل لها مائة ألف دينار . فلما ذكرتْ ذلك للمغيرة المطلبى الهاشمى ، قال مغضبا :

ـ أتتزوجين ابن آكلة الأكباد ؟ فلو جعلتِ أمرك الىّ ؟

أجابت وقد ذكرت وصية زوجها الامام الراحل : « نعم .. »

فقال المغيرة : « قد تزوجتك .. »

وأقامت معه حتى ماتت ، عن غير خلف (٣) وكذلك مات أخوها «على» مراهقا ، كما نص على ذلك المصعب الزبيرى ، وابن حزم (٤)

وكل ما وصـــل الينا من أخبـــاره ـ فيما بين مولده وموته ـ خبر « زعموا فيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أردفه خلفه يوم فتح مكة » (٥)

وبموتهما انقطع عقب « زينب الكبرى بنت النبى » وبقيت قصـــتها المثيرة ملء سمع الزمان ..

---

(١) المصعب الزبيرى ـ نسب قريش ٢٢
(٢) تاريخ الطبرى ـ فى مقتل الامام على
(٣) المصعب الزبيرى : نسب قريش ـ ٢٣ ـ جمهرة انساب العرب ١٤
(٤) نسب قريش : ١٢ ـ وجمهرة الانساب ١٥
(٥) نسب قريش : ٢٢

رقيـة ذات الهجرتين

لم يكن قد مضى على زواج « زينب » من أبى العاص بن الربيع غير وقت قصير ، حين استقبل البيت المحمدى وفدا من آل عبد المطلب ، جاءوا يلتمسون مصاهرة ابن عمهم الأمين ، وقد خافوا أن يسبقهم اليه كفء كريم من شباب قريش ..

وكانت الشقيقتان رقية وأم كلثوم ، على مألوف عادتهما من الملازمة ، حين وفد القوم ، فقالت أم كلثوم وقد عرفت بفطنتها فيم جاءوا :

ــ ما أرى دورك الا قد حان يا رقية ..

وقبل أن تهم رقيـــة بجواب ، أقبلت « فاطمة » تقول ردًّا على ما سمعت من كلام أختها أم كلثوم : « بل جاء دوركما معا ! .. »

ذلك أنها كانت تنعم بملاعبة أبيها حين جاء الضـــيوف ، فلم تشأ أن تفارقه . بل انتظرت وفى حسابها أنهم قد ينصرفون على عجل ، فتستأنف ما كانت تحظى به من صحبة أبيها ..

وأتيح لها بذاك أن تسمع قول شيخهم أبى طالب :

ــ انك يا ابن الأخ قد زوجت زينب لأبى العاص بن الربيع . وانه لنعم الصـــهر . غير أن بنى عمك يرون لهم عليـــك مثل ما لابن أخت خديجة . وليسوا دونه شرفا ونسبا ..

أجاب محمد : « صدقت يا عم .. »

واستطرد الشيخ يقول : « وقد جئناك نخطب ابنتيك رقية وأم كلثوم ، وما أراك تضن بهما على ابنى عمك .. »

قال محمد :

ــ معاذ القرابة والرحم . ولكن هلا أمهلتنى ياعمّ حتى أتحدث فى هذا الى ابنتىّ ؟..

ولم تنتظر « فاطمة » لتسمع أكثر من هــذا ، بل أسرعت تعدو الى أختيها فى بهو الدار وأسرت اليهما بالنبأ الخطير ..

ووجمت الأختان لما سمعتا ، فقد كان الأمر كله مفاجأة غير متوقعة ، ومن ثم استغرقهما جمود صامت ، ثم راحت كل منهما تنظر الى الأخرى ، وكأنها تستنجد بها أو تحاول أن تستبين موقفها ، لكن بصريهما ارتد اليهما بغير جواب ..

هنالك التفتتا معا الى « فاطمة » وقالتا بصوت واحد :

ــ فهل عرفتِ لأى أبناء العم يسعى جدنا الشيخ ؟

أجابت الصغيرة :

ــ كلا ، فما أطقت صبرا بعــد أن سمعت حديث الجد ، وبادرت اليكما بالنبأ دون انتظار لما وراءه ..

وأطرقت لحظة مفكرة ثم قالت بصــوت خفيض ، وكأنها تحــدث نفسها :

ــ وماذا يعنينى من اسم الخــاطبين ؟.. ليكونا من يكونان ، فلن يتغير الموقف فى كثير أو قليل ، وعما قريب يتكرر المشــهد القاسى ، وتنتزع رقيــة وأم كلثــوم من بيتنــا كما انتزعت زينب من قبــل ، وتنقلان الى دار أخرى غير هذه الدار ، وأبقى هنا وحدى ، بغير أخت !

واغرورقت عيناها بالدموع ، حين أقبلت أمها تلتمس أختيها ، ولم يفت الأم فى اشتغالها بالأمر المهم ، أن صغيرتها فاطمة تبكى ، فانعطفت اليها تسألها فى حنان :

ــ ماذا يبكيك ياصغيرتى ؟..

أجابت وهى تتشبث بها معانقة :

ــ لاتدَعى أحدا ينتزعنى منك ومن أبى ، فلست أطيق فراقكما ..

فتبسمت « خديجة » ضاحكة من قولها ، وأجابتها :

ـ كلا . لن تتركينا يا حلوة ، حتى تريدى أنت !..

فصاحت « فاطمة » بملء سذاجتها :

ـ لكنى لن أريد !..

وعقبت الأم هامسة فى دعابة وشجو :

ـ كذلك تقولين الآن ياصغيرتى ، وكذلك كنا نقول من قبل ..

وأسبلت جفنيها حالمة . وارتدت بها الذكرى الى أربعة عشر عاما مضت ، فرأت نفسها تعيش خلية البال قد نفضت يديها من الرجال وصممت على ألا تتزوج ، حتى لقيت محمدا فلم تنتظر حتى يتقدم اليها خاطبا ، بل كانت هى التى سعت اليه ، غير مكترثة بما قد يقول الناس ، ولا ملقية بالا الى مايحتمل أن يلقاها به المجتمع القرشى ، حين يبلغه نبأ سعيها للزواج من شاب فقير ، وهى التى ردت خاطبيها من سراة قريش وكبار رجالها . وهذه هى تقف بعد بضعة عشر عاما من زواجها بمحمد ، لتبارك اليوم السعيد الذى لقيته فيه ، وتستعيد ذكراه الحلوة ، فتشعر بدفء الحب يذود عنها برودة الشتاء وهى تدنو حثيثا من عامها الخامس والخمسين !..

وآبت من حلمها الهنىء الذى ماتزال فى نشوة منه ، فاذا صغيرتها « فاطمة » تبادرها سائلة :

ـ من يكون الخاطبان يا أم ؟..

أجابت فى ايجاز وهى ترنو الى رقية وأم كلثوم ، وقد وقفتا غير بعيد تصغيان :

ـ عتبة وعتيبة ، ابنا العم عبد العزى (١)

وأطالت النظر الى ابنتيها لتلمح وقع الجواب عليهما ، لكنهما انسحبتا إلى مخدعهما فى سكون ، دون أن تنبسا ببنت شفة ..

وتبعتهما فاطمة ..

---

(١) هذا هو اسمه ، وقد غلبت عليه كنيته « أبو لهب » بعد ذلك . وأمه لبنى بنت هاجر الخزاعية . وجدته لامه : هند بنت عمرو بن كعب ، من تيم بن مرة ـ راجع جمهرة انساب العرب : ١٨ ـ ذخائر

وبقيت الأم وحدها وقد شــعرت بانقباض لا تدرى سببه ، فعللته بقرب فراقها لابنتيها ، على أنها ما لبثت بعد فترة تأمل ، أن عرفت فيم انقباضها : لقد كانت لا تستريح الى « أم جميل بنت حرب بن أمية بن عبد شمس » زوجة عبد العزى وأم ولديه ، ففيها شيء من قسوة القلب وشراسة الطباع وحدة اللسان .. وفيها كذلك صلف أحمق وطيش أهوج ينأيان بها عما يجب لمثلها من اتزان ووقار ، ويفقدانها ذلك الســـت الجليل الذى يغلب على السيدات القرشيات ، وقد أشفقت « الســـيدة خديجة » على ابنتيها من معاشرة هــذه المرأة ، فما لهما بها قبَل وما تزالان صغيرتين ، ولو أن الأمر بيديها لحالت دون اتمام هــذا الزواج المقترح ، لــكنها تخشى ان هى فعلت ، أن تثير الهاشــميين عليهـا ، وتتعرض لاتهامهم اياها بأنها تحاول أن تمزق ما بين محمـــد وآله من أواصر القربى ..

والسيدة خديجة الى جانب هذا ، تعرف لأم جميل انتماءها الى بيت قرشى كبير ، ولن تسكت على مهانة الرفض بل ستسعى جهدها لتؤلب قومها على خديجة ، وانها لقادرة على أن تفعل ، وحســـبها أن تتناولها بلسانها السليط وتنطلق فى المجتمع القرشى متحدثة بما شـــاءت وشاء لها حقدها من مفتريات ..

وكانت الســـيدة خديجة بحيث تفضى الى زوجها بمخاوفها ، فما اعتادت قط أن تخفى عنه شيئا مما يهجس به خاطرها أو يجول فى سريرتها لكنها كرهت أن تشغل محمدا بهذه الهواجس ، وهى تراه مشغول البال دائم التفكير منصرفا عن شواغل الدنيا ، وانها لتـــدرك بفطنتها وقوة حبها لمحمد ، أن هناك أمرا خطيرا يشغله ، وان لم تدر كنه هذا الأمر ، ولا هى بحيث تحمله على الافضاء به اليها قبـــل أن يفعل ذلك هو من تلقاء نفسه ، وانما حسبها أن توفر له ما يحتاج اليه من هدوء وسلام ، وأن تحوم حوله من غير أن تثقل عليه ، وترمقه فى خلوته بعين ساهرة ، دون أن تقتحم عليه خلوته ..

وما كان لها وهي الحريصة على طمأنينته أن تعكر هدوءه بمخاوفها من أم جميل بنت حرب . أو تشغله بالصراع بين حرصـــه على هناءة ابنتيه . وبين برّه بقومه واحترامه لأعمامه واعتزازه بعشيرته الهاشمية . أو تعرضه ــ وهو فى حالته تلك ــ لعداوة عمه عبد العزى وبغضاء امرأته

وفى الغرفة القريبة . كانت الفتاتان مطرقتين ســاهمتين . وأختهمــا الصغرى ترقبهما فى حيرة : ان الأمر اليوم ليختلف عما شــاهدت من « زينب » فلقد كانت بادية البشر والاشراق تستعد للفرح فى غبطة وعلى استحياء . أما رقية وأم كلثوم فتبدوان أقرب الى الاكتئــاب والقلق . ولم تستطع طفولة فاطمة أن تميز بين زواج قام على المودة والتعاطف والألفة . وآخر تعقده أواصر العشيرة وروابط الدم ..

ولم تتبادل الأختان حديثا عن حياتهما المقبلة ، لكن أفكارهما كانت تدور بلا ريب فى مدار واحــد : ما بال الأسرة تتعجل زواجهما . هلا أتاحت لهما وقتا تألفان فيه فكرة الانتقال الى دار أم جميل ؟ ..

وفى الحق انهما ما أنكرتا من أمر عتبة وعتيبة شيئا واضحا محددا ، فهما من فتية آل هاشم الأمجــاد . ولهما كذلك فى بنى عبــد شمس عز الخؤولة وصراحة النسب القرشى الكريم . أما العم عبد العزى . فله ــ الى جانب حسبه وثرائه ــ مكرمة ســابقة هيهات أن يجحــدها آل محمد . فانه ما كاد يسمع بشرى مولد محمد ابن أخيه عبد الله . حتى أعتق جاريته « ثويبة » التى حملت اليه البشرى السعيدة ..

وما غاب شيء من هــذا عن بال رقية وأم كلثوم ، لكنهما رغم ذلك تجفلان من فكرة الانتقال الى بيت العم ، أيكون هــذا لأنهما لم تألفا بعدُ الوضعَ الجديد . ولم يتح لهما وقت لتأخذا نفسيهما بالرضى عنه ؟ أم لعلهما تكرهان أن تستبدلا بالعيش مع أمهما السيدة المهذبة اللطيفة الوقور ، عشرة « أم جميل بنت حرب » ــ زوج العم عبد العزى ــ ذات السمت السوقى والطبع الجامح الحاد ؟.. أو من يدرى ، لعلهما أحستا بهدى الفطرة . فطرة حواء التى قلما تخطىء فى مثل هذا ، أن لأم جميل

على ولديهما من السلطان ما يجرح عزة رجولتهما ، ان لم يهدر شخصيتهما اهدارا ..

وقالت أم كلثوم لرقية :

ـ انك لتعلمين أن أبانا لن يقضى هذا الأمر دوننا ، فماذا ترينك فاعلة ? ..

فشحب وجه رقية وهى تجيب :

ـ لست بالتى تعق أباها ، فتعرضه للحرج أمام أهله وعشيرته الأدنين ..

ثم رنت الى أختها وقالت تشجعها فى رقة وعطف :

ـ لا عليك يا أختاه ، فسنكون معا ..

***

وكذلك تم الأمر فى هدوء مشوب بالقلق . وبارك محمد ابنتيه ثم تركهما فى حراسة الله ورعايته ، وانصرف الى ما كان يشغله من تعبد وتأمل ..

وكذلك شغلت السيدة خديجة عن ابنتيها بالتفكير فى زوجها الحبيب ، وقد ازداد ميلا الى الخلوة واغراقا فى التأمل ونزوعا الى الصمت ، وبدا كأنه نفض يديه من شواغل الدنيا وانطوى على نفسه يعالج وحده ذلك الهم الجليل الذى يكتمه حتى عن « خديجة » موضع حبه وثقته وسكنه ..

ليته يدعها تشاركه الهمّ وتحمل معه العبء الذى تحسه ثقيلا باهظا ! ليته يرحمها مما تعانيه من قلق ووحشة ، فيفضى اليها بالذى يشغل باله !

وفجأة ، لاح لها فى هدأة الليل شعاع من نور أضاء الظلمة التى أغرقت الكون من حولها ، وتناهى الى مسمعها فى ذلك الصمت العميق ، صدى من قول ابن عمها « ورقة بن نوفل » لها ، وقد استبطأ أمرا توقعه ، بعد أن سمع حديث ميسرة عن محمد فى رحلتهما الى الشام :

لججت وكنتُ فى الـذكرى لججوا
لهَمٍّ طالما بعث النشـيجا
ووصفٍ من خديجة بعـد وصف
فقـد طال انتظارى يا خديجا
ببطن المـكتين على رجائى
حـديثك أن أرى منه خروجا !
ويظهر فى البـلاد ضـياء نور
يقيـم به البرية أن تسـوجا
فيـاليتنى اذا ما كان ذاكم
شـهدتُ فكنت أولهم ولوجا (١)

ثم صمت الصدى ، وعاد السكون يلف الكون الهاجع ، فأغمضت خديجة عينيها ، واستسلمت للرقاد بعد أن ألح عليها السهاد ..

ومضت أيام وليال ، كثر فيها خروج محمد الى غار حراء وقلب خديجة يصحبه مطيفا به محوما عليه ، وان بقيت بجسمها فى البيت ، تعد له زاده ، وتبعث وراءه من يحرسه ويأتيها بأنبائه ، وترصد مطلع النور المرتقب ..

وقد تذكر ابنتيها رقية وأم كلثوم ، فيرق قلبها رحمة لهما واشفاقا عليهما مما قد تلقيان فى عشرة « أم جميل » لكنها لا تلبث أن تنسى همها ذاك فيما يملأ دنياها من طلائع الأمر الجليل المرتقب ..

***

ولم يكذب السيدة خديجة ظنُّها ..

فما كاد محمد صلى الله عليه وسلم يتلقى رسالة ربه ويدعو الى الدين الجديد ، حتى أُخرِجت « رقية وأم كلثوم » من بيت أبى لهب ، ورُدتا الى بيت أبيهما !..

وكانت قريش قد ائتمرت بالرسول فى بناته قائلة :

---

(١) السيرة : ٢/٢٠٣

ــ انكم قد فرّغتم محمدا من همّه ، فردوا عليه بناته فاشغلوه بهن ..

ومشوا الى أصهار الرسول الثلاثة ، فقالوا لهم واحدا بعد الآخر :

ــ فارق صاحبتك ونحن نزوجك أى امرأة من قريش شئت ..

فأما « أبو العاص » فأبى ، مؤثرا صاحبته على نساء قريش جميعا ، وأما ابنا أبى لهب فاستجابا على الفور ، واختار عتبة زوجة من آل سعيد بن العاص ، بدلا من « رقية بنت محمد » (١)

وفى الحق ، ان ابنى أبى لهب لم يكونا بحاجة الى سعى من قريش فى طلاق العروسين ، فلقد تكفلت به « أم جميل بنت حرب » من قبل ، حين أقسمت ألا يظلها وبنتى محمد سقف ، ثم مازالت بزوجها « أبى لهب » حتى أثارت حفيظته على البنتين البريئتين ، فقال لولديه :

ــ رأسى من رأسيكما حرام ان لم تطلقا ابنتى محمد ..

وكان الظن بابنى العم ألا يفعلا ..

بل كان الظن بالعم ألا يقف هذا الموقف من حفيدتى أخيه عبد الله ، وابنتى محمد الذى ابتهج بمولده وأعتق جاريته حين بشرته به ..

لكن « أم جميل » كانت وراءه ، تسوقه أمامها مسلوب النخوة مضيع المروءة فاقد الارادة ، وتنسيه الدم الهاشمى الذى يجرى فى عروقه ، وتنسيه ما توجبه عليه عمومته لمحمد من نجدة وحفاظ ..

لكأنما أرادت هذه العبشمية أن تكيد لبنى هاشم ، الذين استأثروا بأكثر المجد والسلطان دون قومها بنى عبد شمس ، فراحت تفرق شمل الهاشميين وتمزق أواصرهم وتضرب بعضهم ببعض ..

أو كأنما أرادت هذه المرأة الحقود ، أن تشفى غليلها من « خديجة بنت خويلد » التى كانت ملء العيون مهابة وجلالا ، ملء الآذان عفة وطهرا ، فراحت تؤجج غضب القوم على محمد ، لتغيظ غريمتها خديجة وتفسد عليها سعادتها التى كانت مضرب الأمثال ..

ولم يكفها أن ردت اليها ابنتيها طالقين ، بل خرجت ومعها زوجها أبو

---

(١) السيرة : ٣٠٧/٢ ــ وانظر معها الاصابة : ج ٣٨/٨ ــ و (مسند أحمد) ٤٩٢/٣ ، ٣٤١/٤

لهب الى صميم المعركة بين محمد وقريش ، فما رؤى أحد أشد عداوة منهما لنبى الله ، ولا بلغ أحد من أذاه قدر مابلغا ، ولا سُمع أن أحـدا من بنى هاشم ظاهر قريشا على حفيد هاشم ، كما فعل أبو لهب !..

وانه لموقف يدعو حقا الى الدهشة والعجب ..

وليس مثار الدهشـة أن أبا لهب لم يسـلم ، فكذلك بقى أكثر الهاشميين على دين آبائهم زمنا طال أو قصر ، لكنهم مع ذلك أبوا أن يخذلوا ابن عبد الله أو يسلموه ..

أقبل حمزة بن عبد المطلب ، أخو أبى لهب ، ذات يوم متوشحا قوسه عائدا من رحلة صيد ، فلقيته امرأة تقول :

« يا أبا عمارة ، لو رأيت ما لقى ابن أخيك محمد آنفا من أبى الحكم ابن هشام ؟ وجده ها هنا جالسا فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره » ..

فاحتمل حمزةَ الغضب ـ ولم يكن قد أسلم بعد ـ واندفع غير ملق بالا الى أحد فى الطريق ، حتى عثر بأبى الحكم جالسا فى القوم بالبيت العتيق ، فأقبل نحوه حتى اذا قام على رأسه ، رفع القوس فشجه به شجة منكرة ثم قال :

« أتشتمه وأنا على دينـه أقول ما يقول ؟ .. فرُدَّ ذلك علىَّ ان استطعت ! » (١)

وهكذا أسلم حمزة ، لأنه لم يطق أن يؤذَى ابنُ أخيه بمرأى منه أو مسمع !

وكذلك لم يطق أحد من بنى هاشم أن يخذل محمدا ، سواء فى ذلك الذين أسلموا منهم والذين لم يسلموا ، غير أبى لهب !

نقل السهيلى رواية عن ابن عباس :

« لما أنزل الله تعالى : وأنذر عشيرتك الأقربين . خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتى الصفا فصعد عليه وهتف : وا صباحاه ! فلما اجتمعوا اليه قال : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هـذا

(١) السيرة : ١/٢١٢ ، ومعها الاصابة ،ترجمة حمزة « رضـه » وتاريخ الطبرى : ٢/٢٢٤

الجبل ، أكنتم مصدقىّ ؟.. قالوا : ماجربنا عليك كذبا . قال : فانى نذير لكم بين يدى عذاب شديد . فانبرى له أبو لهب قائلا : تبا لك ، ألهذا جمعتنا ؟ .. فأنزل الله تعالى :

« تبَّت يدا أبى لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب . سيصلى نارا ذات لهب . وامرأته حمالة الحطب . فى جيدها حبل من مسد » ..

ذلك لأنها كانت تحمل الشوك فتطرحه على طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يمر ..

قال ابن اسحاق :

« فذكِر لى أن أم جميل حمَّالة الحطب ، حين سمعت ما نزل فيها وفى زوجها من القرآن ، أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر الصديق ، وفى يدها فهر من حجارة ـ قطعة تملأ الكف ـ فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله صلى لله عليه وسلم فلا ترى إلا أبا بكر ، فقالت : يا أبا بكر ، أين صاحبك ، فقد بلغنى أنه يهجونى ، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه . أما والله إني لشاعرة . ثم قالت :

مُذَمَّما عصينا

وأمرَه أبينا

ودينَه قلينا

وانصرفت ، فقال أبو بكر : يا رسول الله ، أما تراها رأتك ؟ فقال : ما رأتنى ، لقد أخذ الله ببصرها عنى (١)

وفى حمالة الحطب ، يقول « الأحوص ، الشاعر الأنصارى » :

ما ذاتُ حبل يراه الناس كلهم
وسط الجحيم ولا يخفى على أحد

كل الحبال ، حبال الناس ، من شَعَر
وحبلها وسط أهل النار من مسد (٢)

---

(١) السيرة : ٣٨٢/١
(٢) نسب قريش : ٨٩

وربما استيقظ ضمير أبى لهب مرة . وغلا فى عروقه الدم الذى يحن الى ابن الأخ . فثار مغضبا لما يرى من جور قريش على بنى هاشم .
حدثوا أن أبا سلمة المخزومى ابن برة بنت عبد المطلب ، استجار بخاله أبى طالب . حين أرادت قريش أن تفتنه عن اسلامه . فمشى رجال من بنى مخزوم الى أبى طالب فقالوا له :

ـ لقد منعت منا ابن أخيك محمدا . فمالك ولصاحبنا تمنعه منا ؟

قال : انه استجار بى وهو ابن أختى ، فان أنا لم أمنع ابن أختى لم أمنع ابن أخى ..

وكان أبو لهب حاضرا . فقال مغضبا : يامعشر قريش ، والله لقد أكثرتم على هذا الشيخ !.. ما تزالون تتوثبون عليه فى جواره من بين قومه ، والله لتنتهُنَّ عنه أو لنَقومَنَّ معه فى كل ما قام فيه حتى يبلغ ما أراد ..

فآثروا أن يبقوا عليه فى حزبهم وقالوا :

« بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة » (١)

لكنها مرة واحدة يتيمة ، لم يذكر الرواة أن « أبا لهب » وقف مثلها مرة أخرى . بل ظل على مظاهرته أعداء قومه حتى مات ..

وأعشى سحر « أم جميل » عينيه فلم يعد يبصر ، وقذف به وراء هاشميته ورجولته ، بل وراء الانسانية جميعا ..

حدثوا أن بنى هاشم والمؤمنين حين جهدوا من ضيق الحصار فى شعب أبى طالب . كانوا اذا قدمت العير مكة وأتى أحدهم السوق ليشترى شيئا من الطعام لعياله ، يقوم أبو لهب عدو الله فيقول : يا معشر التجار ، غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا معكم شيئا ، فقد علمتم مالى ووفاء ذمتى ، فأنا ضامن ألا خسار عليكم ..

فيزيدون عليهم فى السلعة قيمتها أضعافا ، حتى يرجع المسلم أو الهاشمى الى أطفاله وهم يتضاغون من الجوع وليس فى يديه شىء

(١) السيرة : ١٠/٢

يطعمهم به . ويغدو التجار على أبى لهب فيربحهم فيما اشتروا من الطعام واللباس ، حتى جهد المسلمون ومن معهم من بنى هاشم جوعا وعريا (١)

وأدع الخبر بغير تعليق ، وأدع معه ذلك الاستطراد الطويل الذى مضيت فيه بالرغم منى ، مستثارة بما قرأت عن أبى لهب وأنا ألتمس أخبار ابنتى محمد ، فى زواجهما الخائب بابنى ذلك العم الجاحد العاق ، وعودتهما الى أبويهما ، شفاء لحقد حماتهما أم جميل بنت حرب ، حمالة الحطب ..

وبين هاتيك السطور التى نقلتها ، أقرأ ما لم يكتب عن معاملة هذه العبشمية لابنتى محمد ، اذا صحت الرواية القائلة بأن الطلاق تم بعد انتقالهما الى بيت أبى لهب ، وليس قبل الدخول بهما كما تقول رواية أخرى (٢) ..

وأكاد ألمحهما وراء هذا كله ، فى تجربتهما القاسية المرة ، حين غادرتا بيتهما الأول الذى تظله أجنحة الحب والسلام ، الى بيت تتلقاهما فيه — وهما فى جلوة العرس — امرأة سليطة ركبها الشيطان ، فتلقى عليهما ظلها الثقيل صباح مساء ، وترصد حركاتهما وسكناتهما ، وتحاسبهما على النظرة والهمسة واللفتة ، وتنقم عليهما ما ترى فى سمتهما النبيل وملامحهما اللطيفة ، من مخايل السيدة « خديجة بنت خويلد » موضع غيرتها وحسدها ..

فاذا قابلت العروسان صنيع حماتهما بالتجمل والصبر ، أساءت الظن بوداعتهما فحملتها محمل الازدراء والترفع ، وازدادت لذلك شراسة وغلظة وجفاء ..

ولم تفكر احداهما فى الشكوى لأبويهما ، فقد كانتا أبر بهما من أن تروعهما بالحديث عن أفاعيل « أم جميل » ..

وكان الظن أن تجد كل منهما فى أختها متنفسا لكربها وموضعا لشكاتها ، لولا أن « أم جميل » كانت هنالك دائما ، تقف لهما

---

(١) السيرة ح ١ وأنظر كذلك مسند أحمد ٤٩٢/٣ ، ٣٤١/٤ ، وتاريخ الطبرى : ٣٣٥/٢
(٢) ابن حجر : الاصابة ٣٨/٨

بالمرصاد . وتأبى ما وسعها الجهد أن تخلو الأخت الى أختها ، ولو استطاعت لأقامت بينهما سدا ..

وهكذا احتملت ابنتا محمد همومهما فى صمت وصبر ، حتى أراحهما الله من ذاك الكرب . ونجاهما من كيد حمالة الحطب وعيشتها النكدة !..

❊❊❊

على أن الحياة فى بيت أبيهما ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانت قد تغيرت عما ألفتا فى أمسهما السعيد . فولى عنها ما كانت تنعم به من راحة وهدوء ..

أو لم يقل الرسول لزوجته : « مضى عهد النوم يا خديجة » ؟ .. بلى ، وجاء عهد السهد والاضطهاد والامتحان والعذاب فى سبيل الله . وان النبى ليعود الى بيته كلما خرج ، محزونا لما يجد من عنت قومه وصدهم عن سبيل الله . فما تزال السيدة خديجة تثبته وتهون عليه ما يلقى ، حتى يزول ما به من حزن ..

ومع كل هذا العذاب ، طاب لرقية وأم كلثوم أن تشاطرا أبويهما ما يلقيان فى سبيل الله . وارتاحت نفساهما لاحتمال كل صنوف الأذى ، واستعذبتا الألم والتضحية فى تلك المعركة المقدسة ..

❊❊❊

وخاب ظن حمالة الحطب وظن المشركين من قريش . فلم يُشغل « محمد » ـ صلى الله عليه وسلم ـ بابنتيه عن دعوته . ولم يشق عليه رجوعهما الى بيته . فقد نجاهما الله من محنة العيش مع ابنى حمالة الحطب وأبى لهب . ثم ما لبث أن أبدلهما خيرا منهما : زوجا صالحا كريما ، من النفر الثمانية الذين سبقوا الى الاسلام ، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، ذلك هو « عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية ابن عبد شمس » (١) أعزه الله فى الجاهلية فكان من أعرق فتيان قريش نسبا ، يلتقى مع الرسول الكريم من جهة الأب عند عبد مناف بن قصى ،

---

(١) نسب قريش : ١٠ وصحيح مسلم : ٢٨/٤ ، ٢٩ وصحيح البخارى : ٦٢ باب ٥ ، ٧ ، ٨/١ باب ١١٩

ومن ناحية الأم عنـد عبد المطلب بن هاشم ، فجدة عثمان لأمه ، هى البيضاء أم حكيم بنت عبد المطلب جد النبى (١) ..

وكان « عثمان » الى هذا النسب العريق ، بهى الطلعة ، فخم السمت موفور المال ، رضى الخلق ..

ثم أعزه الله فى الاسلام فكان من السابقين الأولين (٢) ..

***

تقدم « عثمان » الى رسول الله يسأله شرف المصاهرة ، فزوجه صلى الله عليه وسلم ابنته « رُقية » ولم يُر زوجان قط أجمـل منهما ولا أبهى ..

ولم تشارك « مكة » هذه المرة فى الاحتفال بالعرس الكريم ، بل باتت قريش بغيظهـا مسهدة تفكر فى هـذا الخصم العنيد الذى يزداد على الاضطهاد قوة وثباتا ، ويتحدى فى قلة عزلاء من صحابته ، قبائل قريش مجتمعة ، وفيها الجاه والكثرة والبأس !

وعجبت لهؤلاء النفـر الذين اتبعوه ، يؤثرونه على أنفسهم وأهليهم وأموالهم ، ولا يترددون فى افتدائه بالمهج والأرواح ، بل يرون الاستشهاد معه أو فى سبيله مجدا وانتصارا ..

من هؤلاء ، من كان بالأمس له عدوا ، ومنهم من تردد أمدا قبـل أن يؤمن برسالته ، ولكنهم جميعا ما كادوا يسلمون حتى التفوا حوله يبذلون له الحب محضا خالصا على نحو لاتعرف الدنيا له مثيلا ..

وتذاكرت قريش ليلتئذ صبر المسلمين على محنة التعذيب فى مستهل المبعث ، فقـد « وثبت كل قبيلة على من فيهـا من المسـلمين فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش ، وبرمضاء مكة اذا اشتد الحر » حتى يفتنوهم عن دينهم ، فيؤثر أحدهم أن يموت على أن يرتد الى دين الكثرة الغالبة ! (٣)

---

(١) الاستيعاب : ١٠٣٨/٤ - ونسب قريش ١٨
(٢) السيرة : ٢٦٧/١
(٣) تاريخ الطبرى : ٢٣٠/٢ - والسيرة : ٢٢٩/١

وطال ليل قريش وهى تذكر « عثمان بن عفان » الذى رضى أن يبيع أهله وعشيرته ودنياه فى سبيل رضى محمد وربه ، وانه ليعلم ما يلقى أصحاب « محمد » من أذى . ويقدر أنه باتباعه الدين الجديد ، قد حكم على نفسه بالنبذ من المجتمع القرشى الذى أحله مكانا مرموقا ..

***

ولو نظرت قريش ليلتئذ بظهر الغيب . لرأت فتى أمية : « عثمان بن عفان » يهاجر من مكة ، موطن آبائه ومهد طفولته ومناط عزته ، الى بلد ناء وقوم غرباء ..

« ذلك أن محمدا ــ صلى الله عليه وسلم ــ لما رأى ما يصيب أصحابه من البلاء ، وأنه لا يقدر أن يمنعهم ، قال لهم : لو خرجتم الى أرض الحبشة فان بها ملكا لا يُظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه ! »

فكان « عثمان بن عفان » أول من هاجر الى الحبشة ، وهاجرت معه زوجته السيدة « رقية » على قرب عهدهما بالزواج [1] ..

وتجلد المهاجر وهو يلقى نظرة وداع على البلد الحبيب ..

أما « رقية » فلم تملك دمعها ، وهى تطوف بمغانى صباها مودعة ، وتعانق أباها وأمها وأخواتها الثلاث ، قبل أن تتبع زوجها الى ذلك البلد النائى المجهول ..

وتمهلت فى مسيرها الى حيث كانت راحلتها تنتظر ، فلما آن أوان الرحيل تلفتت وراءها لتملأ عينيها من الوطن فحال الدمع دون ما تبغى

وكذلك سارت الجمال وئيدا تريد أن تتزود من عبير أم القرى ، فلما خرجت الى الصحراء العارية الجرداء ، انطلقت خفافا ، تتسمع غناء الحادى :

الأهل والأوطان فراقهم صعب
لكنه الايمان فداؤه القلب

---

(١) السيرة : ١/٣٤٤ والطبرى : ٢/٢٣١

والروح والأبدان فليقبــل الربّ
فليقبــل الرب

وهز الصوت الشجى قلب « رقية » فأصغت اليه وهى ترتجف انفعالا وتأثرا ، ثم أطلت من هودجها لعل أثرا من مكة لا يزال يلوح من بعيد ، فإذا زوجها « عثمان » على قيد خطوة منها ، يرنو اليها فى عطف مشوب بالعتاب !

وفهمت « رقية » ما يهجس فى خاطره ، فأشرق وجهها بابتسامة راضية وقالت :

ــ الله معنا ، ومع الذين تركناهم برغمنا فى جوار البيت العتيق ..

ثم استدبرت أحبّ أرض ، وقد هون عليها محنة الفراق أن « عثمان » الى جانبها ، وأكرِمْ به صاحبا وعشيرا ..

***

وفى أول مرحلة من الطريق ، أناخت الإبل ريثما تجمع المهاجرون الأولون فى سبيل الله ، فبلغت عدتهم عشرة (١) ، فيهم من بنى عبد شمس ، آل عثمان : أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، أخو هند ، وصهر أبى سفيان ، تصحبه زوجته سهلة بنت سهيل بن عمرو العامرية ..

ومن بنى أسد بن عبد العزى بن قصى ، أخوال رقية : الزبير بن العوام بن خويلد ..

ومن بنى عبد الدار بن قصى ، أبناء عم عثمان ورقية : مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار ..

ومن بنى زهرة ، أخوال الرسول : عبد الرحمن بن عوف الزهرى ..

ومن بنى مخزوم : عبد الله بن عبد الأسد ، ابن عمة الرسول ، برة بنت عبد المطلب ، تصحبه زوجته « هند بنت زاد الركب ، أبى أمية بن المغيرة المخزومى » التى تزوجها الرسول بعد « أحد » ..

---

(١) السيرة : ١٤٥/١ . وفى رواية أنهم كانوا أحد عشر رجلا وأربع نسوة « الطبرى : ٢٣١/٢ »

وتبادل المهاجرون الأولون تحية الاسلام ، ثم قاموا جميعا للصلاة ، يؤمهم عثمان بن مظعون الجمحى صاحب الرسول ، فلما قضوا الصلاة رفعوا وجوههم الى السماء يدعون الله أن ينصر دينه ، ويحمى رسوله من كيد المشركين ..

واستقبلوا الجنوب راحلين ، وقد استمرأوا ما يملأ قلوبهم من شجن ، وطاب لهم أن يكتووا بنار الغربة فى سبيل دينهم الحق ، والتمسوا العوض عمن فارقوا من الأهل والأحباب ، فى هؤلاء الصحب الكرام ، رفاق السفر والاخوان فى الدين والهجرة ..

***

ورحبت الحبشة بالمهاجرين الأولين ، وأوسعت لهم فى أرضها مكانا سهلا ، ثم ما لبثت أن استقبلت أفواجا جديدة من اخوانهم المسلمين ، حتى بلغت عدتهم ثلاثة وثمانين غير أبنائهم الذين خرجوا بهم صغارا ، أو ولدوا فى مهاجرهم ..

وسر « رقية » أن تجد فيهم من بنى هاشم : ابن عم أبيها « جعفر بن أبى طالب » ، ومعه امرأته « أسماء بنت عميس » ..

ومن بنى أمية ، آل زوجها عثمان : عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية ، وأخاه خالدا ، ومعهما زوجتاهما ..

ومن بنى أسد : عبد الله بن جحش — ابن أميمة بنت عبد المطلب عمة الرسول — وأخاه عبيد الله ، ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبى سفيان بن حرب ، التى تزوجها الرسول بعد سنين ..

ومن أخوالها بنى زهرة : عامر بن أبى وقاص بن أهيب بن عبد مناف ابن زهرة ..

ومن بنى عامر : ثمانية نفر ، منهم السكران بن عمرو ، ومعه امرأته « سودة بنت زمعة بن قيس » التى تزوجها الرسول بعد عام الحزن ..

***

وأحاط المهاجرون العشرة الأولون بالوافدين يسألونهم كيف تركوا

الرسول ، وكيف حال الأهل والصحابة بمكة ؟!

قالوا : على العهد بهم ، لم ينسوا من هاجروا فى سبيل الله .

وحدثوا أن « النبى » افتقد أنباء ابنته ، حتى أتت امرأة أخبرته صلى الله عليه وسلم أنها رأت رقية وزوجها ، فقال :

« منحهما الله ، أن عثمان أول من هاجر بأهله » (١)

***

لم تضق الحبشة بالوافدين الثمانين ، كما لم تضق بمن سبقوهم ، بل أمَّنهم « النجاشى » وأحسن جوارهم ، وتركهم أحرارا يعبدون الله لا يخافون على ذلك أحدا ..

هنالك رفع « عبد الله بن الحارث بن قيس » صوته منشدا وهو يرجو أن يسمع من بمكة : (٢)

يا راكبا بلغنْ عنى مغلغلة
من كان يرجو بلاغ الله والدينِ
كل امرىء من عباد الله مضطهدٍ
ببطن مكة مقهورٍ ومفتون
إنا وجدنا بلاد الله واسعة
تنجى من الذل والمخزاة والهون
فلا تقيموا على ذل الحياة وخز
ى فى الممات وعيب غير مأمون

ثم انثنى الى قلبه المثقل بأشجان الغربة ، فهاجت مواجعه لما ذكر من بغى قريش ، وقال : (٣)

أبت كبدى ، لا أكذبنك . قتالهم
علىّ ، وتأباه علىّ أناملى
وكيف قتالى معشرا أدبوكم
على الحق أن لا تأشبوه بباطل

---

(١) الاصابة : ٨/٨٣

(٢ ، ٣) السيرة : ١/٣٥٤ ، وانظر معه فى الاصابة ترجمة عبد الله بن الحارث

وقال « عثمان بن مظعون » يعاتب ابن عمه وكان شريفا فى قومه :

أأخرجتنى من بطن مكة آمنــــــا
وأسكنتنى فى صرح بيضاء تقذع
تريش نبــالا لايواتيــك ريشـــها
وتبرى نبــالا ريشُهــا لك أجمــعُ
وحاربت أقــــواما كراما أعــــزة
وأهلكتَ أقــواما بهم كنت تفــزع
ســتعلم ان نابتْــك يوما مُلِـمَّــة
وأسلمك الأوباش ، ماكنت تصنع!(١)

ويلغت هذه الأصوات ومثلها مكة ، فأفزعت قريشا فوق ما بها من فزع ..

وأطار النوم من عيونها ، أن أصحاب محمد قد آمنوا بأرض الحبشة وأصابوا بها دارا وقرارا ، فائتمر المشركون فيما بينهم على أن يبعثوا منهم رجلين من دهاتهم ، لكى يفسدوا مابين النجاشى وبين المهاجرين المغتربين..

ووقع اختيــارهم على « عبد الله بن أبى ربيعة » ــ والد عمر ــ و « عمرو بن العاص بن وائل » وجمعوا لهما هدايا للنجاشى ولبطارقته ، فانطلقا بها على مرأى ومسمع من محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن بقى الى جانبه من أصحابه وآله ..

وأشفق « أبو طالب » على من بأرض الحبشة ــ وفيهم ولده جعفر ، وولدا ابنتيه أمية وبرة ، ورقية حفيدة أخيه عبد الله ــ من مكيدة عمرو وصاحبه ، فأنشد شعرا يستثير فيه كرم « النجاشى » ويحضه على أن يحمى جواره :

ألا ليت شعرى كيف فى النأى جعفر
وعمرو ، وأعداء العــدو الأقاربُ ؟ ..
وهل نالت أفعال النجاشى جعفرا
وأصــحابه ، أو عاق ذلك شـــاغب ؟

(١) السيرة : ٣٥٥/١

تعــلم ، أبيت اللعن ، أنك ما جـــــد
كريم ، فلا يشـــــقى لديك المجـانب
وأنك فيض ذو سـجال غزيرة
ينال الأعادى نفعها والأقارب (١)

فهزت قريش رأسها لمَّا سمعت نداءه ، وقال قائلها مستهزئا : ما يبلغ صوت الشيخ من مكيدة عمرو وصاحبه ؟ وماذا تجدى الـكلمات مع الهدايا التى حملها مبعوثا مكة الى النجاشى وبطارقته ؟

***

وكان المهـاجرون فى منزلهم النائى ، يرهفون أســماعهم الى ما تناثر من شائعات شتى مبهمة عن ائتمار قريش بالمسلمين المغتربين فلا يكادون يلقون إليها بالا ، حتى رابهم ذات يوم وصول « عمرو بن العاص وعبدالله ابن أبى ربيعة » الى هناك والتماسهما لقاء البطارقة واحدا بعد الآخر ..

ثم ما لبث المهاجرون أن تلقوا دعوة النجاشى ليتحدث اليهم فى أمر ذى بال ، فذهبوا وهم يتساءلون :

ــ ما تقولون للرجل اذا جئتموه ؟

وكان الجواب الذى أجمعوا عليه :

ــ نقول والله ما علمنا ، وما أمرنا به نبينا ..

وسعت المهاجرات الى منزل رقية بنت النبى ، وقد خامرهن شىء من القلق ، فاذا لديها « أم سلمة ، هند بنت زاد الركب » (٢) تحدث عما علمت من مكيدة الرجلين ..

قالت :

ــ هو ما سمعتن من ائتمار قريش بنا لما بلغهــا أنا جاورنا بالحبشة خير جار : أمِنا على ديننا ، وعبدنا الله تعالى لا نؤذَى ولا نسمع شيئا نكرهه ، فبعثوا هذين الرجلين معهما هــدايا مما يستطرف من مــتاع مكة ، وقالوا لهمــا أن يدفعــا الى كل بطريق هديته ، قبل أن يكلما

(١) السيرة : ٣٥٧/١
(٢) تزوجها الرسول بعد وفاة زوجها أبى سلمة المخزومى ــ الطبرى : ٤٢/٣

النجاشي فينا ، ثم يقدما الى النجاشي هديته ، ويسألاه أن يسلمنا اليهما قبل أن يكلمنا ..

« فخرجا حتى قدما الحبشة ، ففعلا .. وقالا لكل بطريق منهم : أنه قد ضوى الى بلد الملك غلمان منا سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينكم ، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشرافُ قومهم ليردهم اليهم ، فاذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم الينا ولا يكلمهم ، فان قومهم أعلى بهم عينا – أبصر بهم – وأعلم بما عابوا عليهم ..

فوعدهما البطارقة خيرا ، ثم انهما قدما هداياهما الى النجاشي فقبلها منهما ، ثم كلماه بمثل ما كلما به البطارقة ، فقالت البطارقة حوله : صدقا أيها الملك ، قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم اليهما فليرداهم الى بلادهم وقومهم ..

« فغضب النجاشي وقال : لاها الله !.. اذن لا أسلمهم اليهما ولا يُكاد قوم جاورونى ونزلوا بلادى واختارونى على سواى ، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان فى أمرهم ، فان كانوا كما يقولان أسلمتهم اليهما ورددتهم الى قومهم ، وان كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاورونى .. » (١)

وهذا هو قد أرسل الى رجالنا يدعوهم ، فلننتظر ما الله يرضى لنا ..

***

وطال انتظارهن قبل أن يعود الرجال من قصر النجاشي ويحدثوا عما كان ..

استقبلهم النجاشي وقد جمع أساقفته حوله ومعهم صحفهم منشورة ، فسألهم : « ماهذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به فى دينى ولا فى دين أحد من هذه الملل ؟.. »

فأجاب عنهم « جعفر بن أبى طالب » :

(١) السيرة : ١/٣٥٧ – ومعه السمط الثمين للمحب الطبرى ٨٦

ــ أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسىء الجوار ويأكل القوى منا الضعيف ، حتى بعث الله الينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا الى عبادة الأوثان عن عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا الى بلادك واخترناك على من سواك ، ورغبنا فى جوارك ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك » (١)

فصمت النجاشى مليا ثم سأل :

ــ هل معك مما جاء به عن الله من شىء ؟

أجاب جعفر : نعم ..

قال النجاشى : فاقرأه على ..

فتلا جعفر صدرا من سورة مريم ..

قالوا : فبكى والله النجاشى حتى اخضلت لحيته ، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم ، ثم قال :

ــ ان هذا والذى جاء به « عيسى » ليخرج من مشكاة واحدة .

والتفت الى عمرو وعبد الله ، مبعوثى قريش ، قائلا :

ــ انطلقا ، فلا والله لا أسلمهم اليكم ولا يكادون ..

فانصرفا ، أما عمرو بن العاص فلم يفقد ثقته فى دهائه ولا استسلم للهزيمة صاغرا ، بل قال مهددا : والله لآتينه غدا عنهم بما أستأصل به

---

(١) السيرة : ١/٣٥٩ ، وتاريخ الطبرى ، حوادث الهجرة الى الحبشة

خضراءهم (يعنى شجرتهم التى منها تفرعوا)

وأما عبد الله بن أبى ربيعة . فأخجله أن يكون النجاشى الغريب ، أبر بجيرانه منه . وما فيهم من لا يمت اليه بقربى أو رحم ..

قال لعمرو : لاتفعل . فان لهم أرحاما وإن كانوا قد خالفونا ..

ورد « عمرو » فى إصرار :

ــ والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد ! (١)

ومضى النهار كله وقطعة من الليل . وعمرو بن العاص يدبر لغده ، أما المهاجرون فباتوا آمنين لا يخافون من النجاشى غدرا ، وقد أجمعوا رأيهم أن يجيبوه اذا سألهم عن عيسى بن مريم ، بما قال الله وما جاءهم به نبيهم محمد . وليكن بعد ذلك ما يكون ..

فلما أصبحوا دعاهم النجاشى وسألهم عما يقولون فى « عيسى » فأجاب جعفر : « نقول فيه الذى جاءنا به نبينا صلى الله عليه وسلم : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها الى مريم العذراء البتول » ..

قالوا : فمد النجاشى يده الى الأرض فأخذ منها عودا وقال لجعفر :

ــ والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلتَ ، هذا العود ..

ثم أمسك لحظة . وجعل ينقل بصره بين البطارقة ، وعمرو وصاحبه ، حتى استقر على المهاجرين فقال :

« اذهبوا فأنتم آمنون بأرضى . من سبَّكم غرم ــ كررها ثلاثا ــ وما أحب أن لى جبلا من ذهب . وأنى آذيت رجلا منكم » ..

والتفت من بعد ذلك الى بطارقته قائلا :

« ردوا عليهما هداياهما ، فلا حاجة لى بها ، فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حتى رد علىَّ ملكى فآخذ الرشوة فيه . وما أطاع الناسَ فىَّ فأطيعهم فيه » (٢)

ورجع عمرو وعبد الله الى قريش بخفى حنين ..

وأقام المهاجرون مع خير جار ما شاء الله لهم أن يقيموا ..

---

(١) السيرة : ١/٣٦٠ ، ٣٦١
(٢) السيرة : ١/٣٦٢

على أن قلوبهم ظلت أبدا تنزع الى مكة ، وتحن الى من تركوا بها من الأهل والأحباب ..

وظلت أسماعهم مرهفة ، تتلهف على أنباء الرسول وصحبه فى حربهم المقدسة مع عبدة الأوثان ..

ولعل السيدة « رقية » كانت أشد المهاجرين حنينا الى مكة ، ولعلها ما افتقدت أبويها وأخواتها من قبل ، مثلما افتقدتهم آنذاك ، فلقد أثرت الأحداث الشداد التى مرت بها فى صحتها أيما تأثير ، فأسقطت جنينها الأول ، حتى خيف عليها من فرط الضعف والاعياء ..

لكنها وجدت من رعاية زوجها وحبه ، ومن عطف المهاجرين وعنايتهم ، ما أعانها على اجتياز الأزمة الحرجة ، ريثما عاودتها العافية بورود الأنباء من مكة ، أن قريشا يئست من الرسول وصحبه ، فرفعت الحصار المنهك الذى ضربته على الهاشميين ..

وأضافت الشائعات أن قريشا ثابت الى رشدها لما رأت من عجيب ثبات النبى وصدق ايمان الذين اتبعوه ، فمالت طائفة منها الى الاسلام عن تأثر واقتناع ، ورغبت أخرى فيه التماسا للغنم والمجد حين يعلو أمر محمد وينتشر الدين الجديد ..

وقد أصغى مهاجرة الحبشة الى هذا الذى قيل وشاع ، فهفت قلوبهم الى العودة الى الوطن ..

ولم يقو بعضهم على مغالبة ذلك الحنين المستثار ، فتهيئوا للرحيل على عجل ، يحـدوهم الشوق الى أحب أرض وأعز موضع ، على حين آثر آخرون أن يتلبثوا فى مهاجرهم ، ريثما يستيقنون مما قيل عن مهادنة قريش للرسول صلى الله عليه وسلم ، واسلام كثرة منها ..

***

ســار الركب فى طريق مكة ، وقد بلغ عددهم ثلاثة وثلاثين رجـلا يتقدمهم « عثمان بن عفان » وزوجته السيدة « رقية » والزبير بن العوام ابن أخت السيدة خديجة ، وعبد الله بن جحش ابن عمة الرسول ، وأبو

سلمة بن عبد الأسد معه امرأته « أم سلمة ، هند بنت أبى أمية » ، والسكران بن عمرو معه امرأته « سودة بنت زمعة » ..

وراحوا خلال سفرهم الطويل يعللون أنفسهم بلقـــاء الأحبـاب ، ويتشاغلون بتمثل ما ينتظرهم فى الوطن من أنس وطمأنينة ..

حتى اذا عبروا البحر واستقلوا رواحلهم ساعين الى البلد العتيق ، خدرتهم النشوة وتركوا خيالهم يحملهم على أجنحته السحرية الى الوطن الى أن بلغوا مشارف مكة . فكانت اليقظة المروعة ..

فهناك على الصخور الملتهبة ، رأوا بعيونهم التى ما زالت بها بقية من خدَر الحلم . نفرا من اخوانهم المسلمين المستضعفين ، تســومهم زبانية قريش سوء العذاب ..

وأخذت العائدين صيحات من هنا ومن هناك . تعدهم بالويل والهلاك . وصمت الحادى ، وطارت النشوة . وتمزقت الرؤى ، وتبعثرت الأحلام ..

ولبثوا هنالك يومهم ، حتى اذا أدبر النهار دخل بعضهم مكة فى جوار من الوليد بن المغيرة المخزومى ، أو أبى طالب بن عبد المطلب الهاشمى ..

وعلى أثرهم دخل الباقون مستجيرين بالحرم الأقدس ، وعلى وجوههم نور الاستشهاد ..

وآبت « رقية » الى بيت أبيها مشوقة مجهدة . فخفت أختاها أم كلثوم وفاطمة للقائها ، وتشبثتا بها معانقتين ، وهما تغالبان الدمع وتتكلفان التجلد .. وأفلتت من عناقهما وسألت مستريبة :

ــ أين أبى ، وأين أمى ؟ ..

أجابتا :

ــ أبوك بخير ، وقد خرج للقاء العائدين معك من مهاجرة الحبشة ..

ثم اختلجت شفاههما فى تأوه مكتوم ..

وعادت رقية تسأل وقد أوجست خيفة : « وأمى ، أين هى ؟! »

فأطرقت « أم كلثوم » صامتة لا تجيب ، أما « فاطمة » فغادرت الغرفة وهى تنشج باكية ..

هنالك كفت « رقية » عن أسئلتها ، وسارت مترنحة نحو مخدع أمها الراحلة حيث تهالكت على فراشها جامدة العين زائغة البصر ، مثلجة الأطراف ..

الى أن جاء أبوها صلى الله عليه وسلم ، فأذاب ذلك الجمود القاتل بحرارة لقائه ، وأزاح بحنوه ذلك الركام الصخرى الذى جثم على قلب ابنته ..

وأسعفها الدمع ما شاء لها حزنها وأساها ، ثم أوت الى الصدر الرحب الكريم ، وثابت الى السكينة والصبر ..

***

ولم يطل بها المقام بمكة بعد ذاك ..

هاجر أبوها النبى الى يثرب ، وكذلك هاجرت هى فى صحبة زوجها

وفى دار الهجرة ، وضعت طفلها عبد الله بن عثمان (١) ، فملأ عليها منزلها الجديد أنسا ، وأقبلت عليه تريد أن تنسى به مرارة ثكلها لجنينها البكر ، ولوعة مصابها فى أمها ، وما ذاقت فى هجرتها من شجن الغربة ..

وحسبت أنها قد استوفت حظها من الآلام . لكن الله تعالى امتحنها بمصاب جديد ..

مات « عبد الله » طفلا بنقرة من ديك ، فترنحت رقيـة تحت وطأة الثكل المرير المضاعف ، صريعة الحمى ..

وأقام « عثمان » الى جانبها يمرضها ويرعاها ، حتى اذا تناهى الى سمعه صوت داعى الرسول يؤذن أن حى على الجهاد ، ويستنفر المهاجرين والأنصار للقاء عدوهم فى « بدر » ود عثمان لو يلبى الداعى الكريم ؛ لكن قلبه لم يطاوعه على فراق « رقية » التى كانت تعالج ما يشبه سكرات الموت ، فتخلف عن شهود موقعة بدر مكرها ، وراح يشهد معركة الموت فى أعز من له ! (٢)

---

(١) نسب قريش : ٢٢ والاصابة ج ٨٣/٨ . والاستيعاب : ١٠٣٧/٣

(٢) الاصابة ٨٣/٨ ــ وتاريخ الطبرى : حوادث السنة الثانية للهجرة . والطبقات الكبرى لابن سعد : ٦/٢

وقسا الصراع وطال ، ثم رفت روحها على شفتيها فى حشرجة وانية ، وعيناها على زوجها ، وغابت عن الوجود ..

ورنا إليها « عثمان » يتزود لفراق طويل ، وفى مسـمعه صدى من حشرجة الموت ، مختلطا بهتاف البشرى بانتصار المسلمين فى « بدر » ..

***

وجاء الأب الثاكل فدنا من ابنته الراقدة يودعها بادى الحزن والأسى ، ثم انثنى فى رفق نحو ابنته « فاطمة » التى أكبت على مضجع أختها تبكى ، فجعل صلى الله عليه وسلم يمسح دموعها بطرف ثوبه (١) ..

وهنا لم تتمالك النساء أنفسهن أمام المشهد الفاجع ، فانسحبن خارج الغرفة مجهشات بالبكاء وقد تخلى عنهن ما كن يصطنعن فى حضرة الرسول من تجمل وتصبر ..

وهاج نحيبهن غضب « عمر بن الخطاب » فزجرهن فى عنف وقسوة محاولا أن يأخذهن بما يجب لمثل هذا المكان من سكينة ووقار ، لكن الرسول الرحيم كفه عنهن قائلا :

« مهما يكن من العين ومن القلب فمن الله والرحمة ، ومهما يكن من اليد واللسان فمن الشيطان » ..

وصلى الأب النبى على ابنته رقية ..

وشيعت « يثرب » جثمان بنت الرسول ، ذات الهجرتين ، حتى ووريت الثرى الطيب الذى ارتوى يومئذ بدماء الأبرار من شهداء « بدر » ..

وضرب أبوها الرسول ، لصهره « عثمان » بسهمه وأجره ، مما أفاء الله على المسـلمين فى « بدر » إذ كان إنما تخلف عن شهودها ، لمرض « رقية » الراحلة (٢) ..

---

(١) الاصابة : ٨/٨٣

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٦/٢

أم كلثوم

- عودة الى البيت
- الهجرة
- مع رقية دائما
- الرحيل

أراد الله بها خيرا ففارقها « عتيبة بن أبى لهب » عدو الله ونجت بذلك الفراق من نكد العيش مع « حمالة الحطب » كما نجت معها أختها العزيزة « رقية » التى ما لبثت أن تزوجت « عثمان بن عفان » وهاجرت معه الى الحبشة ..

وبقيت « أم كلثوم » مع أختها الصغرى « فاطمة » فى بيت أبيهما الرسول بمكة ، تشاركان أم المؤمنين الأولى عبئها الجليل ، وتستقبلان معها البطل النبى اذ يعود كل يوم الى بيته ، وعلى جسمه الكريم ندوب المعركة ، وعلى ثيابه الطاهرة آثار ما كان يلقى من أذى قريش وحربها ، فيحطن به فى بر وحنو . يحاولن ما استطعن أن ينفضن عنه هذه الآثار ، وأن يروحن عنه فى الفترات القليلة التى كان يسكن فيها الى بيته وأهله ..

وهكذا عاشت « أم كلثوم » مع أسرتها فى صميم معركة الاضطهاد الأولى التى بلغت أقسى ذروتها حين يئست قريش من خذلان أبى طالب لابن أخيه ، وخاب سعيها لديه كى يسلمه الى أعدائه فيبطشوا به ..

ثم أسلم حمزة بن عبد المطلب ، وأسلم عمر بن الخطاب ، فطار صواب قريش وتخلى عن رجالها ما عرفوا به من رشد وحلم ، فائتمروا فيما بينهم على مقاطعة بنى هاشم ، وسجلوا مقاطعتهم فى وثيقة علقوها فى جوف الكعبة (١) ، وخرج محمد بأسرته ومن تبعه الى شعب أبى طالب ، وانحازت اليه بنو هاشم وبنو عبد المطلب ، الا أبا لهب ..

وهناك عاشوا فى ضيق الحصار ، حتى انهم كانوا يأكلون الخبط وورق السمر ، وأقاموا على ذلك نحو ثلاث سنين لا يصل اليهم شىء إلا سرا ..

---

(١) انظر حديث « الصحيفة » فى السيرة ١/٢٧٥ وفى تاريخ الطبرى : ٢/٢٢٥

حـــدثوا أن أبا جهــل بن هشـــام ، لمح حكيم بن حزام بن خويلد الأســـدى ، يسير متخفيا معه غلام يحمل قمحا ، يريد به عمته خديجة بنت خويلد ، وهى مع زوجها الرســـول وبنتيها أم كلثوم وفاطمة فى الشعب ، فتعلق به أبو جهل وصاح :

« أتذهب بالطعام الى بنى هاشم ؟.. والله لا نبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة » ! (١)

***

حتى بلغ منهم الجوع مبلغا يصوره لنا قول سعد بن أبى وقاص بعد محنة الحصار بسنتين :

« لقد جُعت حتى انى وطئت ذات ليلة على شيء رطب فوضعته فى فمى وبلعته ، وما أدرى ما هو الى الآن ! » (٢) ..

ومن عجب أن ذلك السهم الذى راشته قريش ، ارتد عن المؤمنين دون أن يزعزع ايمانهم مثقال ذرة . أو يزحزحهم قيد شعرة ، عن موقفهم من نصرة الرسول ، وعاد السهم منطلقا الى معسكر قريش فأصاب منها مقتلا ! ..

ذلك أن نفرا من مشركى قريش . روعهم الحصار الوحشى المضروب على المؤمنين منهم ، فثارت ضمائرهم وسلطت عليهم سوط عذاب ..

وبدأ الحصار يهتز ويتداعى تحت وطأة الندم وعذاب الضمير ..

حدثوا أن هشام بن عمرو بن ربيعة العامرى ــ وكان ابن أخى نضلة ابن هاشم لأمه ــ كان يأتى ليلا بالبعير قد أوقره طعاما ، حتى اذا بلغ به فم الشعب ، خلع خطامه من رأسه ثم ضرب على جنبه ، فيدخل البعير على بنى هاشم وبنى عبد المطلب ، بما يحمل (٣) ..

وذات ليلة ، خرج الرسول الى قريب من فم الشعب يستقبل البعير الموقر طعاما ، كيما يشرف على توزيعه فى ذوى العيال ممن معه ، وسهرت « أم كلثوم » عند فراش أمها التى علت بها السن وأنهكتها الأحـــداث

(١) السيرة : ٣٧٩/١ . تاريخ الطبرى : ٢٢٥/٢

(٢) السيرة : ١٧/٢

(٣) السيرة : ١٤/٢

وأحست دنو أجلها ، وان بدا أنها تقاوم الضعف والمرض ببسالة ، وتتشبث بالحياة من أجل زوجها الحبيب ، ومن أجل بنتيها أم كلثوم وفاطمة ..

وقالت تناجى ابنتها :

ــ ليت الأجل يمهلنى حتى تنجلى المحنة ، فأموت قريرة العين راضية

فهتفت « أم كلثوم » من كل قلبها :

ــ لابأس عليك يا أماه !

ثم خنقتها العبرات فلم تزد ..

واستطردت الأم :

ــ أى وربى لابأس علىَّ يا ابنتى !.. ما من امرأة فى قريش ذاقت ما ذقت من نعيم !.. بل ما من امرأة فى هذه الدنيا نالت مثل الذى نلت من مجد : حسبى من دنياى أنى زوجة الحبيب المصطفى ، وحسبى من آخرتى أننى المؤمنة الأولى ، وأنى أم المؤمنين ..

ثم أسبلت عينيها وهمست :

ــ اللهم انى لا أحصى ثناء عليك !.. اللهم انى لا أكره لقاءك ، ولكنى أطمع فى مزيد من التضحية لأكون جديرة بما أنعمت علىَّ !..

واحتضر الضوء النحيل الشاحب الذى كانت تبعثه ذبالة واهية هناك ، ولفَّ الكونَ سكون خاشع ، وأرهف الليل سمعه لهذه النجوى المؤثرة ، فلم يعد يسمع فيه سوى أنفاس أم المؤمنين ، وخفقات قلب ابنتها التى راحت تدعو صامتة ..

ثم .. فتح الباب . فانبثق منه شعاع من نور باهر أضاء المخدع ، ودخل رسول الله بهى الطلعة متهلل الأسارير . فما كادت زوجته تلمحه حتى نهضت للقائه بوجه مشرق وقد سرى فى بدنها الكليل فيض من القوة والعافية ..

وأصغت « أم كلثوم » الى ما كان أبوها عليه الصلاة والسلام يحمل من الأنباء ، فأحست كأن ظلام الليل ينقشع رويدا رويدا ، كيما يفسح

المجال لنور فجر جديد ..

فلقد عاد العم « أبو طالب » فى ليلته تلك من زيارة الحرم الأقدس ، ليحدث مَن فى الشعب عما رأى هنالك وما سمع :

قال ان هشام بن عمرو ــ ذاك الذى كان يحمل المئونة الى المحاصرين ليلا ــ مشى الى زهير بن أبى أمية المخزومى ، أخى هند أم سلمة ، وابن عاتكة بنت عبد المطلب ، فقال له :

ــ يا زهير ، أقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء ، وأخوالك حيث علمت ؟.. أما انى أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبى الحكم بن هشام ، ثم دعوتَه الى مثل ما دعاك اليه من مقاطعتهم ، ما أجابك اليه أبدا ! ..

فأصغى زهير ، وفكر مليا ثم سأل :

ــ ويحك يا هشام !.. فماذا أصنع ؟.. انما أنا رجل واحد . والله لو كان معى رجل آخر لقمت فى نقض الصحيفة حتى أنقضها ..

قال هشام :

ــ قد وجدتَ رجلا ..

فسأله : من هو ؟ ..

أجاب : أنا ...

قال زهير : ابغنا رجلا ثالثا ..

فذهب هشام الى المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف ، فقال له :

ــ يامطعم ، أقد رضيت أن يهلك بطنان من بنى عبد مناف وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه ؟.. أما والله لئن أمكنتموهم من هــذه ، لتجدنهم اليها منكم سراعا ..

فكان جواب مطعم كجواب زهير ..

ومضى هشــام بعــد ذلك الى أبى البخترى بن هشام ، فحدثه بمثل ما حدث به صاحبيه زهيرا ومطعما ، فسأله أبو البخترى :

ــ وهل أجد من يعين على هذا ؟ ..

أجاب هشام :

ــ نعم ، ابن زاد الركب ، والمطعم بن عدى ، وأنا . معك ..

فطلب اليه أبو البخترى أن يلتمس مؤيدا خامسا ، فذهب الى زمعة ابن الأسود بن المطلب بن أسد . فكلمه فى بنى هاشم وذكر له قرابته منهم وحقهم عليه . فأجاب زمعة ..

وتواعد الخمسة على اللقــاء ليلا بخطم الحجون ــ بأعلى مكة ــ وهنالك أجمعوا أمرهم وتعــاقدوا على القيــام فى أمر الصحيفة حتى ينقضوها ، واتفقوا كذلك على أن يبدأ « زهير » فيكون أول من يتكلم فى مجتمع القوم ..

فلما أصبحوا غدوا الى أنديتهم ، وغدا « زهير » عليه حلة ، فطاف بالبيت سبعا . ثم أقبل على الناس فقال :

ــ يا أهل مكة ، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يباع ولا يبتــاع منهم ؟.. والله لا أقعد حتى تشق هــذه الصحيفة القاطعة الظالمة ..

قال أبو الحكم بن هشام . وكان فى ناحية المسجد :

ــ كذبتَ ، والله لا تشق !

فأجابه صوت « زمعة بن الأسود » :

ــ أنت والله أكذب ، ما رضينا كتابها حيث كُتِبت !

وثنى أبو البخترى :

ــ صدق زمعة : لا نرضى ما كُتِب فيها ولا نقر به ..

وأيدهما المطعم :

ــ صدقتما وكذب من قال غير ذلك ، نبرأ الى الله منها ومما كتب فيها ..

وتابعهم هشام بن عمرو مؤيدا ، فنقّل أبو الحكم عينيه بين هؤلاء الرجال الخمسة ثم صاح مستريبا :

ــ هذا أمر قُضِى بليل . تُشوور فيه بغير هذا المكان ..

فلم يعره الرجال اهتماما ، وقام المطعم — بمرأى من القوم . وفيهم أبو طالب قد انتحى ناحية من المسجد — والتمس الصحيفة ليشقها . فإذا الأرَضة قد أكلتها فلم تدع منها الا : « باسمك اللهم » (١) !..

ووجمت قريش ، وأسقط فى يديها وأحست بالسهم الذى راشته يرتد الى صدرها فيمزقه ..

ونهض أبو طالب يسعى الى الشِعب بالبشرى ، وقد ذكر — وهو فى طريقه من البيت العتيق — بنيه الذين هاجروا الى الحبشة ، فهتف منشدا وهو يرجو أن يبلغهم هنالك صدى من صوته :

ألا هل أتى بحريّنا صنع ربنا	على نأيهم ، والله بالناس أروَدُ
فيخبرهم أن الصحيفة مُزقت	وأن كل ما لم يرضه الله مُفسَدُ
تراوحها إفك وسحر مجمع	ولم يُلفَ سحر"آخرَ الدهر يصعد
جزى الله رهطا بالحجون تتابعوا	على ملأ ، يهدى لحزم ويرشد
قعودا لدى خطم الحجون كأنهم	مقاولة ، بل هم أعز وأمجد
قضوا ماقضوا فى ليلهم ثم أصبحوا	على مهل ،إذسائرالناس رُقَّد (٢)

وأيقظ صوته كل من فى الشعب ، فهبوا من مضاجعهم يهتفون البشرى السعيدة . وصاح المسلمون منهم : « الله أكبر » ..

وباتوا ليلتهم وما تمس جنوبهم مضجعا ، لفرط الفرح والانفعال ..

وأصبحوا ساعين الى الكعبة فطافوا بها ، ثم آبوا الى بيوتهم فى مكة ، ينتظرون ماذا يكون من قريش بعد أن خاب كيدها وتهاوى الحصار

***

وفى بيت النبى بمكة ، رقدت السيدة خديجة فى فراشها تتهيأ للقاء ربها بعد أن اطمأنت على زوجها الحبيب ، ثم ما لبثت روحها أن فاضت . والنبى الى جانبها يهون عليها سكرات الموت ، ويبشرها بما أعد الله لها من نعيم (٣) ..

(١) انظر حديث «نقض الصحيفة» فى السيرة : ١٤/٢ : ١٦ والحوار بنصه منقول منه
(٢) القصيدة رواها ابن اسحاق ، وعدد أبياتها ستة وعشرون — السيرة : ١٧/٢، ١٨
(٣) الاصابة جـ٨ ، والسمط الثمين ١٧

وبناتها الثلاث : زينب وأم كلثوم وفاطمة ، يحطن بفراشها ويتزودن منها قبل الرحيل ...

وفى اليوم العاشر من رمضـــان سنة عشر من المبعث . حُملت الى الحجون . وهنالك أضجعها زوجها الرسول بيديه فى حفرتها ، ثم ودعها وآب الى بيته محزونا . فضم اليه ابنتيه أم كلثوم وفاطمة ، يواسيهما ويعينهما على المصاب الفادح ..

وأحس من تلك اللحظة أن مكانه بمكة قد نبا به . فلم يعد له فيها بعد رحيل « خديجة » مقام !

لكن طيفا منها ظل يلم به غاديا ورائحا ، فيؤنس غربته فى وطنـــه . حتى أذن الله له فى الهجرة الى يثرب ..

وودع الرسول بناته . ثم ذهب فى ضحوة النهار الى بيت الصديق أبى بكر فاستصحبه ..

وتلبث لحظة قبل أن ينفصل عن مكة ، فأشرف من علية هناك على مهد الصبا ومبعث النور . ثم قال :

« والله انك لأحب أرض الله الى الله ، وانك لأحب أرض الله الىَّ . ولولا أن أهلك آخرجونى ما فارقتك » ..

ومضى فى طريقه الى الغار يصحبه الصديق ، وترك ابنتيه أم كلثوم ، وأختها فاطمة . وحيدتين فى البيت المهجور ، يكاد يتلفهما الأسى لولا رحمة الله ..

***

وتلكأت الأيام فى سيرها متباطئة مشحونة بالقلق واللهفة . ومضت الليالى حوالك ليلاء مثقلات بالسهد والشجن ، حتى جاءت البشرى بوصول النبى سالما الى يثرب ، ثم ما لبث زيد بن حارثة أن أقبل ، ليصحب أم كلثوم وشقيقتها الصغرى الى دار الهجرة

وأمضت بنتـــا النبى يومهما الأخير بمكة مع أختيهمـــا زينب زوجة أبى العاص . ورقية زوجة عثمان ، يذكرن الأمس السعيد الذى ولّى وراح

ثم أغلقن الدار التى شهدت ماضيهن الخلى . وسعين الى الحجون فروين قبر الأم بدموعهن ..

وأمسكت أم كلثوم بيد أختها الصغرى فاطمة . ومضت بها الى حيث كان « زيد » ينتظرهما متهيئا للرحيل ..

وألقتا نظرة وداع على مغانى مكة وما تدريان آتكون اليها عودة !

ثم اندمجتا فى الركب المهاجر . وقد خفف عنهما شجنَ الفراق أنهما ذاهبتان الى أبيهما الرسول فى منزله الكريم بين الأنصار !

***

ومضى على الهجرة عامان حافلان بجليل الأحداث ..

وشهدت « أم كلثوم » عودة أبيها منتصرا من « بدر » . كما شهدت موت شقيقتها الغالية « رقية » يوم النصر ..

وأهلَّ العام الثالث وما يزال الحزن على رقيــة جديدا ، وما تزال قريش تبكى قتلاها وتتداعى للثأر من الفئة الظافرة ..

وكانت « أم كلثوم » تلمح « عثمان » فى هذه الفترة ، وهو يلازم أباها ويلتمس لديه العزاء عن فقيدته الغالية ..

الى أن كان يوم من أيام شهر ربيع ، وقد أوى الرســول الى بيته يستريح . فاذا عمر بن الخطاب يسعى اليه مستثار الغضب ليشكو اليه صاحبيه أبا بكر وعثمان ..

لقد عرض على أحدهما بعد الآخر ، أن يتزوج من بنته « حفصة » بعد أن مات عنها زوجها حصن بن حذافة . فسكت أبو بكر . وأجاب عثمان : ما أريد أن أتزوج اليوم (١) ..

وسمعت « أم كلثوم » أن أباها الرسول قال لعمر ملاطفا :

ــ يتزوج حفصةَ من هو خير من عثمان ، ويتزوج عثمانُ من هى خير من حفصة ! (٢) ..

وخفق قلبها لما سمعت !

(١ ، ٢) الاستيعاب ١٨١١/٤ ، ١٩٥٢، المحب الطبرى : السمط الثمين ٨٣

فما من امرأة خير من بنت عمر الا بنت النبى ، فهل تشغل مكان أختها « رقية » فى بيت عثمان ؟

وعجبت لأن أباها لم يحدثها فى هــذا الأمر من قبل . وقد عهــدته لا يزوج احدى بناته دون أن يعرف رأيها ..

وعادت بها الذكرى الى ماض بعيد ، يوم وقفت هى وأختها الراحلة « رقية » تصغيان الى أبيهما حين عرض عليهما رغبة ابنى أبى لهب فى الزواج منهما ..

وقد عُقد الزواج . ثم واجهت الأختان حظهما المشترك ، الى أن طلقهما ابنا حمالة الحطب فى وقت واحد ..

وتزوجت « رقية » بعد ذلك من عثمان ، فأى قدر عجيب يجمع بين الأختين . لو كُتِب لأم كلثوم أن تتزوج هى أيضا من زوج شقيقتها : عثمان بن عفان ؟ !

وبينا هى تحدق ــ شــبه حالمة ــ فى الخيوط الخفيــة التى ينسجها القدر ليربط بينها وبين أختها رقية ، دخلت عليها « أم عياش » خادم النبى ، تدعوها للقاء أبيها صلى الله عليه وسلم ..

وتم عقد زواجها من عثمان ، « على مثل صداق رقية ، وعلى مثل صحبتها » ..

وخرجت الى بيت زوجها وعليها ثوب عرس ، شبيه بذلك الذى دخلت به رقية على عثمان ..

وبعث النبى معها « أم عياش » كما بعثها مع أختها من قبل ..

فلما شــارفت البيت الجديد ، أحست كأن طيفا من أختها الراحلة ينتظرها لدى الباب ، ليصحبها هنالك فلا يفارقها فى يقظة أو منام ..

ولعلها همست فى شجن :

« لم يبق يا رقية الا أن ألحق بك حيث ترقدين ، فيجمعنا الموت كما جمعتنا الحياة منذ كنا ! » ..

لكنها عاشت ست سنوات ، رأت فيها الاسلام يبلغ أوج انتصاره ، وشاهدت أباها البطل يخرج من معركة فى اثر معركة ، مؤيدا مظفرا .. و « عثمان » زوجها معه ، صاحبا ومجاهدا ..

وفى ذى القعدة من السنة السادسة للهجرة . خرج أبوها صلى الله عليه وسلم على راحلته القصواء . مع نحو ألف وخمسمائة من أصحابه . يريدون « مكة » لقضاء العمرة . وليس معهم سلاح الا السيوف فى القرب ..

وتصدت قريش لهم ، تأبى أن يدخلوا مكة ..

وقال الرسول لصهره ذى النورين « عثمان بن عفان » : اذهب الى قريش فأخبرهم أنا لم نأت لقتال أحد . وانما جئنا زوارا لهذا البيت معظمين لحرمته ، معنا الهدى ننحره وننصرف ..

وأمسكت « أم كلثوم » قلبها . وهى تخشى على زوجها غدر المشركين وساورها القلق ، وهى فى انتظار أوبة عثمان . بعد أن طال غيابه ..

فما راعها الا نبأ ذاع ، أن عثمان قد قتل ..

وبادر النبى صلى الله عليه وسلم ــ لما بلغه النبأ ــ فدعا المسلمين الى « بيعة الرضوان » وفيها بايع لعثمان رضى الله عنه ، فضرب بشماله على يمينه وقال : « انه ذهب فى حاجة الله وحاجة رسوله .. » (١)

لكن لم يطل بأم كلثوم الحزن !

فلقد عاد « عثمان » من رحلته . ولم يصبه أذى ..

وتم صلح الحديبية ..

وكان « عثمان » ممن لم يرضوا عن شروطه ..

وحين نحر الرسول هديه وحلق رأسه . حلق عامة الصحابة ، وقصر نفر . منهم « عثمان بن عفان » ! (٢)

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٧٠/٢

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٧٥/٢

وقد عز الموقف على « أم كلثوم » وهى تسمع أباها يقول : « رحم الله المحلقين .. » قالها ثلاثا ..

ولم تطمئن ابنته . حتى قال من بعد ذلك : « والمقصرين .. » (١)

***

وتم النصر الأكبر ..

فتحت مكة ، بعد عامين من صلح الحديبية ، وأدركت « أم كلثوم » هذا الفتح . كما أدركته أختها « فاطمة » ..

ورقّ قلباهما لذكرى الراحلات الغاليات : أمهما خديجة ، وشقيقتيهما زينب . ورقية ..

ثم رحلت « أم كلثوم » ..

ماتت فى بيت عثمان . فى شهر شعبان سنة تسع ، عن غير ولد (٢) ..

ووسدوها ثرى « يثرب » الى جانب ما بقى من رفات أختها ، ووقف النبى على قبر ابنته دامع العينين (٣) . مثقل القلب بألم الثكل المتتابع ..

ورحم الله « أم كلثوم » فأعفاها من محنتى اليتم والترمل ، فلم تشهد أباها النبى بعد عام واحد يرحل عن الدنيا ، ولا شهدت زوجها «عثمان» يلقى مصرعه الدامى بعد نحو ربع قرن من الزمان ، على مرأى من زوجتيه اللتين جاءتا الدار بعدها : أم البنين بنت عبيدة بن حصن ، ونائلة بنت الفرافصة الكلبية (٤) ..

---

(١) تاريخ الطبرى . حوادث سنة تسع ، والاصابة جـ ٨ . والاستيعاب ١٩٥٢/٤

(٢ ، ٣) مسند أحمد : ٣٥٤/٥

(٤) تاريخ الطبرى . حوادث سنة ٣٦ هـ ــ ونسب قريش : ١٠٢

فاطمة الزهراء

كانت رابعة البنات فى تلك البيئة التى عرفناها مفتونة بالبنين ، لكنها مع ذلك دخلت التاريخ الاسـلامى كما لم يدخله أحد قط بعد أبيها النبى . وتركت فيه من خطير الآثار ما جاوز كل تصور واحتمال . يوم استقبلها البيت المحمدى وليدة ، قبل المبعث بخمس سنوات ..

ولقد شاء الله أن يقترن مولدها بالحادث الجليل الذى ارتضت فيه قريش « محمدا » حكما فيما اشتجر بينها من خلاف على وضع الحجر الأسود ، بعد تجديد بنـاء الكعبة المكرمة ، فاستبشر أبواها بمولدها واحتفلا بها احتفالا لم تألفه « مكة » فى مولد أنثى سبقتها ثلاث أخوات ليس بينهن ولد . وأمضت طفولتها سعيدة بحب أبويها وتدليل أخواتها ، وبخاصة كبراهن « زينب » التى كانت لها بمثابة أم صغيرة ..

حتى تزوجت « زينب » من ابن خالتها أبى العاص بن الربيع ، ومن بعدها تزوجت « رقيـة . وأم كلثوم » من ابنى عبد العزى بن عبد المطلب . فعز على فاطمة أن تفارقها أخواتها واحدة فى اثر أخرى . وأعياها — فى طفولتها الباكرة — أن تدرك حكمة هذا الزواج الذى يفصل بين البنت وأبويها ، وبين الأخت وأختها ، وشغلتها هذه الخاطرة أياما وليالى ذات عدد . حتى تركت أثرا عميقا فى مشاعرها الغضة وقلبها البكر . وكان للظروف التى طرأت على الأسرة حينذاك ، يد فى تقوية ذلك الأثر : فلقد شغل الأب بتأملاته التى انتزعته من دنيا الناس ومضت به الى عزلة عابدة متأملة . وشغلت الأم بزوجها الحبيب تحنو عليه ما أقام معها وترسل قلبها فى أثره اذا غاب ، وشـغلت الأخوات الثلاث بحياتهن الزوجيـة الجديدة . وتركت « فاطمة » شبه وحيدة مع خواطرها التى انفردت بها وراحت تؤثر فى وجدانها على مهل ..

وكانت بحيث تجد فى ابن العم ، على بن أبى طالب — ذاك الذى

اختاره أبوها فضمه اليه واتخذه ولدا (١) ــ أخا وزميلا ، فما كان يكبرها بأكثر من أربع سنين . لولا أنها استحيت أن تفضى اليه بهمومها التى تدور حول الزواج ، ولو حاولت أن تفعل لما طاوعها لسانها ..

ثم كان الحادث الأجـل الذى هز الجزيرة هزا ، فانتزع فاطمة من شواغلها الخاصة وأيقظها فى عنف من أحلام طفولتها . وألقى بها فى دوامة الأحداث الهائلة التى أعقبت المبعث ..

ووجدت نفسها ــ ولما تتجاوز الخامسة من عمرها ــ تواجه الصدمة العنيفة . وتقف فى مهب الأعصـار المـارد الذى أثارته الوثنية العتيقة العاتية . فى وجه الدين الجديد ..

لكنها لم تأس قط على ما فاتها من مرح الصـبا ولهو الحداثة . ولا عز عليها أن تتخلى هكذا سريعا عما كانت تنعم به من راحة وخلو بال . بل حلت تمائم صباها راضية . وهجرت ملاعب أترابها ولداتها فى غير تردد . واستقبلت الحياة الجديدة وهى تدرك على صغر السن . معنى بنوتها للنبى الذى اصطفاه الله رسولا . وتعى فداحة العبء الذى يجب عليها أن تحمله . لتكون جديرة بمكانها من البطـل الذى يلقى قريشا مجتمعة ، أعزل الا من ايمانه بالحق . وحيدا الا من فئة قليلة مضطهـدة

ولم تعد « فاطمة » تشعر بالوحدة التى كانت فيها قبل المبعث . فلقد ربط الاسلام بينها وبين أبيها النبى . ووالدتها أم المؤمنين . وأخواتها المسلمات . برابطة أقوى من النسب وأغلى من الدم وأقرب من الرحم . ونسى كل فرد فى البيت المحمدى شواغله الخاصة ، منذ تلاقوا جميعا حول دين واحد . لا يدينون بغيره . ورب واحد . يجثون له سجدا . لا يشركون به الها آخر ولا يعبدون ربا سواه ..

وسرها أن « على بن أبى طالب » لم يتردد فى الايمان بأبيها الرسول . اذ كان بمثـابة أخ لها عزيز ، ولا يهون عليهـا أن يختلف بهما الدين فتحظى هى بنعمة الاسلام دونه . ويترك هو مكانه فى بيت سيد البشر .

---

(١) السيرة : ٢٦٣/١

فيلحق بالعصبة الكافرة التى باءت بغضب من الله ..

وودت لو يسلم شيخ الهاشميين « أبو طالب » فانه لكما قال أبوها الرسول : « وأنت أى عم ، أحق مَن بذلتُ له النصيحة ودعوتُه الى الهدى ، وأحق من أجابنى اليه وأعاننى عليه » ..

وودت كذلك لو يسلم أبو العاص بن الربيع ، ابن خالتها هالة ، وزوج شقيقتها العزيزة زينب . بل ودت لو يسلم بنو هاشم جميعا ، فهم آل أبيها وعشيرته الأقربون ، يعز عليه فراقهم ، ويشق عليه حربهم وعداوتهم . لكن الله أراد أن يمتحن آل النبى ويصهرهم فى بوتقة الابتلاء وشاء تعالى ــ جلّت مشيئته ــ أن يضرب رسوله المصطفى المثلَ الأعلى فى قوة العقيدة وصدق الايمان وجلال التضحية ..

كما آثر ــ سبحانه وتعالى ــ فاطمة بنت محمد بالحظ الأوفى من الألم العبقرى ، فكتب لها أن تشهد الحرب المقدسة وتصلى نارها منذ طفولتها الباكرة ، وتعيش دون أخواتها جميعا ، حتى يجود أبوها البطل بأنفاسه ، ويلحق بالرفيق الأعلى ..

وكانت لذلك كله أهلا ..

وهذه هى ، قد هجرت ملاعب الصبا وانتبذت من صواحبها مكانا قريبا من أبيها فى قلب الميدان ، وكان صغر سنها يتيح لها أن تخرج من البيت وتتبع أباها إذ يسعى كل يوم الى أندية قريش ومحافلها ليبشر بدعوته ، ويلقى فى سبيلها ما يلقى من كيد الطغاة وأذى السفهاء ..

كانت هناك ، قريبا منه ، يوم أقبل يمشى الى الكعبة حتى استلم الركن ، فما لحِه المشركون حتى وثبوا اليه وثبة رجل واحد ، وأحاطوا به يقولون : أنت الذى تقول كذا وكذا ؟ ــ وعدّدوا ما قال من شتم آبائهم وعيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم ..

فيقول الرسول : نعم ، أنا الذى يقول ذلك ..

وأمسكت « فاطمة » أنفاسها وهى ترى رجلا منهم يأخذ بمجمع رداء أبيها ، وشل الذعر حركتها فوقفت حيث هى ، وقام أبو بكر دون

الرسول وهو يقول منكرا :

« أتقتلون رجلا أن يقول : ربى الله ؟ ! » ..

فالتفتوا اليه وشرر الغضب يتطاير من عيونهم . فجذبوه بلحيته ، ثم لم يدعوه الا وقد صدعوا رأسه ! (١) ..

وغادر محمد — صلى الله عليه وسلم — البيت الحرام . ومشى فى الطريق ، وابنته تتبعه عن كثب . فلم يلقه أحد من الناس . لا حر ولا عبد . الا كذبه وآذاه . حتى بلغ بيته ، فتدثر فى فراشه مقرورا ينتفض من شدة ما أصابه ..

وكانت هناك . تقف غير بعيد من أبيها وتحوم بعينيها وقلبها حوله . اذ هو ساجد فى الحرم . وحوله ناس من مشركى قريش ، فجاء « عقبة ابن أبى معيط » بسلى جزور . فقذفه على ظهره . فلم يرفع — صلى الله عليه وسلم — رأسه حتى تقدمت ابنته فاطمة فأخذت السلى ودعت على من صنع ذلك . واذ ذاك رفع النبى رأسه وقال :

« اللهم عليك الملأ من قريش !.. اللهم عليك أبا جهل بن هشام وعتبة ابن ربيعة . وشيبة بن ربيعة . وعقبة بن أبى معيط . وأبىّ بن خلف »..

فخشع المشركون لدعائه . وغضوا بأبصارهم حتى انتهى من صلاته وانصرف الى بيته . تصحبه ابنته فاطمة ..

ولن تمضى غير أعوام معدودات لترى فاطمة هؤلاء الملأ الذين دعت ودعا عليهم أبوها الرسول . صرعى مجندلين حول ماء بدر ..

وكانت هناك . يوم خرج أبوها النبى الى قريش وقد نزل عليه قوله تعالى : « وأنذر عشيرتك الأقربين » فجعل ينادى :

« يا معشر قريش . اشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئا ..

« يا بنى عبد مناف . لا أغنى عنكم من الله شيئا ..

« يا عباس بن عبد المطلب . لا أغنى عنك من الله شيئا ، ويا صفية

---

(١) السيرة : ١/٣١٠

بنت عبد المطلب ، لا أغنى عنك من الله شيئا ، ويا فاطمة بنت محمد ، سلينى ما شئت من مالى ، لا أغنى عنك من الله شيئا » ..

وخفق قلب « فاطمة » حنانا وتأثرا ، فهمست تقول :

ــ لبيك يا أحبَّ والد وأكرم داع ..

ثم جمعت نفسها وسارت بين الناس بهيكلها الصغير اللطيف ، مرفوعة الهامة مشرقة الأسارير . وكأنما ازدهاها أن يختارها أبوها النبى ، من بين أخواتها جميعا . بل من بين أهل بيته الخاص ، ليؤكد للبشر أنه لا يغنى من الله شيئا عن أعز الناس عنده وأحبهم اليه وأدناهم منه ..

لقد بدأ بقريش قومه وقبيلته ، ثم ببنى مناف عشيرته الأقربين ، ثم عمه العباس وعمته صفية ، ثم كانت ابنته فاطمة هى آخر من يتخذه الرسول مثلا فى ذات الموقف الجليل . فعندها اذن ، ينتهى أقصى ما يبلغه صلى الله عليه وسلم فى العظة والاعتبار ، واذا كان محمد لا يغنى عن بنته فاطمة من الله شيئا ، فهل يطمع غيرها ــ كائنا من كان ــ فى أن يغنى عنه أحد من الله شيئا ! ؟

وليست هذه هى المرة الوحيدة التى يضرب النبى فيها المثل بابنته فاطمة ، تأكيدا لما يريد نشره فى أمته من الحق . فلقد حدثوا أن امرأة من قريش سرقت بعد أن أسلمت . وبلغ الرسول أمرها فأشفقت قريش أن تقطع يدها . فاستشفعوا لها عند الرسول حتى جاءوا « أسامة بن زيد » ليشفع فيها وكان الرسول يُشفّعه . فلما فعل . قال صلى الله عليه وسلم :

« لا تكلمنى يا أسامة ، فإن الحدود اذا انتهت الىَّ . فليس لها متركٌ . ولو كانت بنتَ محمد فاطمة لقطعتُ يدها » (1) ..

ولم يقل الرسول : « لو كانت بنت محمد » على الاطلاق والتعميم ، بل سمَّى « فاطمة » وهى من عرفت قريش مكانتها الأثيرة عند أبيها الرسول . ولقد سمع صلى الله عليه وسلم يقول :

---

(1) الاصابة : ٨/١٦٠

« خير نساء العالمين أربع : مريم وآسية وخديجة وفاطمة » ..

وسمع كذلك يقول لها : « ان الله ليرضى لرضاك ويغضب لغضبك »

وعن ابن جريج : « قال لى غير واحد : كانت فاطمة أصغر بنات النبى صلى الله عليه وسلم وأحبهن اليه » (١) ..

***

وهذه المرويات تلفتنا الى ما سبق أن أشرنا اليه من موقف متعصبى المستشرقين فى اتهام ما يملأ كتب السيرة والحديث من حب النبى لابنته فاطمة ، والزعم بأنها مرويات صُنعت بأخَرَة ، بعد ما تطورت فكرة الشيعة تطورها السياسى والدينى . ذا الأثر البالغ فى التاريخ الاسلامى كله ..

وفى ذلك يقول « لامنس » :

« ان المؤرخين المسلمين تناسوا فاطمة فلم يحفلوا بها أول الأمر ، حتى اذا ظهرت فكرة التشيع فى الاسلام ، عادوا يطيلون الحديث عنها ، وأخذت شهرتها تذيع وتنتشر على حين ظلت أخواتها وليس لهن ذكر ولا عنهن حديث » ..

ويرد أحد الكتاب المسلمين ــ الأستاذ عمر أبو النصر ــ على هذا الزعم قائلا :

« فأما عدم ذكر مؤرخى السيرة لفاطمة وغير فاطمة من بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمرده أن مؤرخى السيرة انما كانوا يؤرخون للنبوة والاسلام ، ولم تكن النبوة والاسلام معلقين ببنات الرسول متصلين بهن ، خصوصا وأنهن لم يخضن حربا ولا اندفعن فى معركة ولا كان لهن من الشأن فى سياسة الرسول وشريعته ما يدفع المؤرخ الى ذكرهن والتبسط فى تاريخهن . ومن البداهة والحالة هذه ألا يذكر المؤرخون من أخبارهن الا ما كان له كبير شأن أو عظيم أثر » (٢)

وهو رد لا ينفى زعم « لامنس » ..

---

(١) انظر صحيح البخارى : فضائل أصحاب النبى ، ومسند أحمد ٢٠٤/٥ وصحيح مسلم : كتاب المناقب

(٢) فاطمة بنت محمد : ٦٠

وكان الأستاذ أبو النصر مرجوا عندنا لأن يدحض الفرية بما فى كتب السيرة والحديث عن فاطمة بصفة خاصة . وهذا الذى جئنا ونجىء به من أخبارها فى حياة أبيها النبى . ومكانتها لديه . لم نأت به من عندنا ، ولا نقلناه عن مصادر متأخرة قد تظن بها الظنون وتحمل على أنها من مخترعات الشيعة أو مختلقات الرواة . بعد أن دخلت الزهراء فى تاريخ الاسلام وشارك اسمها فى سيره واتجاهه أعنف مشاركة ، كلا ... وانما كان مرجعنا الأول هو « ابن اسحق » شيخ كتاب السيرة . و « ابن سعد الزهرى » أول مؤرخ لطبقات الصحابة . والطبرى عميد مؤرخى الاسلام المتقدمين . وكتب الحديث الستة الأمهات (١) . ولا أذكر أنى سقت هنا خبرا واحدا غير مأخوذ من هذه الأصول ..

وليس يغيب عنى ما قيل فى حاجة هذه المراجع الى التحرير والتوثيق . ولا أنا بجاهلة ما حف بها من ظلال لم تسلم من مثلها الآثار النقلية قط . لكنى هنا انما أرد على الزعم القائل « بأن المؤرخين المسلمين وكتاب السيرة . تناسوا فاطمة كما تناسوا أخواتها . ثم عادوا فآثروها بأكبر العناية والاهتمام بعد ظهور التشيع »

فهذه هى كتبهم بين يدى ، أقرأ فيها وأنقل منها ما أنقل من أخبار « الزهراء » ثم لا أرى بى حاجة الى رد الزعم الباطل بأكثر من هذا . اللهم الا أن أعرض مثلا آخر من تهافت هذه العصبة الحاقدة من المستشرقين . فى حديث الحلية التى رُوى أن الرسول قال عنها : « لأهبنها أحب أهلى الىّ » ثم دفعها الى حفيدته « أمامة بنت أبى العاص ابن الربيع » فلقد تلكأ غير واحد من المستشرقين عند هذا الحديث . يريدون أن ينقضوا به كل ما تواترت به الأخبار من حب الرسول لابنته فاطمة . ومن عجب أنهم حملوا خبر الحلية محمل الثقة التى لا يرتفع اليها ظن ولا تجوز عليها ريبة . وتلقوا أخبار « فاطمة » بالتكذيب والاتهام . مع أن الراوى واحد !

---

١ راجع مفتاح كنوز السنة : ص ٣٧٨ ، ٣٧٩

ولو أنصفوا ، لما رأوا فى أمر الحلية سوى مظهر من مظاهر عطفه صلى الله عليه وسلم على حفيدته الطفلة التى حرمت من أمها زينب ، ولفتة كريمة من لفتاته التى طالما أسعدت النساء من أهله وعشيرته .
وسنجده صلى الله عليه وسلم فى موقف آخر . يُهدَى حلةً من استبرق ، فيقول لابن عمه على : « اجعلها خُمُرا بين الفواطم » فشقها « على » أربعة أخمرة ، أحدها لفاطمة بنت محمد . والثانى لفاطمة بنت أسد بن هاشم . زوج أبى طالب وأم بنيه على وجعفر وعقيل ، والثالث لفاطمة بنت الشهيد حمزة بن عبد المطلب ، والرابع لفاطمة بنت أبى طالب « أم هانيء » ، وفى رواية . لفاطمة بنت شيبة بن ربيعة ، زوج عقيل بن أبى طالب ..

***

وندع هذا لنسأل : لم استأثرت السيدة فاطمة بهذه المكانة الخاصة عند أبيها صلى الله عليه وسلم ؟

وهو سؤال يعرض دائما لكل من يكتب عن الزهراء ، أما متعصبو المستشرقين فأراحوا أنفسهم كما رأينا بجواب سهل قريب ، هو أن ما رُوِى عن حب محمد لفاطمة انما اخترعته الشيعة بعد وفاته – صلى الله عليه وسلم – وما هذا بمستغرب من بعض المستشرقين ، فهكذا يلتوى تاريخ الاسلام فى أيديهم ويصطبغ بصبغة من التعصب لا نلومهم عليها وهم بشر لا يبرأون من ضعف وهوى . وان كنا فى الوقت نفسه نأسف لما ضاع ويضيع على الانسانية من جهود هؤلاء العلماء الذين نقدر ما أتيح لهم من صبر على البحث ، ودأب فى الدرس ، كانا جديرين بأن يؤتيا خير الثمر . لو برئا مما شابهما من شوائب هذا التعصب ، وهيهات !
وأحسب أنهم لو حاولوا الحياد الفكرى ليواجهوا موضوع حب الرسول لابنته « فاطمة » ، لاستطاعوا أن يصلوا الى نتائج أعمق وأبعد من هذه التى وصلوا اليها ارتجالا من أقرب الطرق ، وربما أتيح لهم أن

يربطوا بين هذا الحب للبنت الرابعة . وبين ما عرف عن العرب بخاصة من كراهة للإناث . فهل كان الرسول فى حبه لفاطمة . متأثرا بما كان يُظن من عدم ترحيبه بمولدها بعد أن سبقتها أخوات ثلاث ؟

لست أستبعد هذا . فمحمد فى أبوته الرحيمة وإنسانيته المهذبة . أهل لأن يغمر بحبه هذه البنت التى شاء لها القدر أن تجىء حيث يُظن ألا تلقى ترحابا . وأحق بأن يحبوها مزيدا من عطفه حتى لاتحس — ولو على سبيل الوهم — أنها غير مرغوب فيها . ونحن الأمهات قد بلونا هذا الشعور الغامر بالحنان والرحمة ، حين تولد لنا بنت ثانية أو ثالثة . فكيف إذن يكون موقف الأب الكريم الذى اصطُفِى ليُبعث رسولا ؟ .. مثله بلا ريب من يذود عن طفلته تلك الظلال الكئيبة التى تحيط بمولد البنت الرابعة . ويحميها من ذلك الاحساس المر الذى قد يكسر قلبها ويعقد نفسيتها ..

ولنا أن نقول بعد هذا ، ان تلك المكانة الخاصة لفاطمة عند أبيها . لم تنتقص حبه لأخواتها الثلاث . ولنا أن نقول كذلك إن حظ الزهراء من حب أبيها صلى الله عليه وسلم قد ازداد بعد موت هؤلاء الأخوات ، ثم تضاعف بمولد الحسنين . وانحصار ذريته صلى الله عليه وسلم فى نسل هذه الابنة الوحيدة التى بقيت له !

***

دخلت « فاطمة » على أمها السيدة خديجة ، تحدثها — والدنيا لا تسعها من فرط فرحتها وزهوها — عما سمعت من دعوة أبيها لقومه أن يشتروا أنفسهم . فإن أحدا لن يغنى عن أحد من الله شيئا . حتى فاطمة بنت محمد . لن يغنى عنها أبوها النبى شيئا إذا لم تؤمن ..

وهى قد آمنت بالله وصدقت بنبيه ورسالته ، وباعت دنياها بالآخرة ، وللآخرة خير وأبقى ..

ومرت الأم الطيبة بيدها الحانية على جبين ابنتها الطفلة . وغمغمت فى رفق :

ــ ماذا ستلاقين من بعدى يا صغيرتى ؟.. لقد نلتُ حظى من الدنيا فأنا هامة اليوم أو غد ، وأختاك زينب ورقية قد اطمأن بهما مكانهما فى كنف أكرم زوجين . ولأم كلثوم من سنها وتجربتها ما يغرى بشىء من الطمأنينة عليها ، وأما أنت يا فاطمة ، فتستقبلين الحياة هكذا فى مستهل الصبا . حافلة بالمتاعب منذرة بمزيد من المحن والآلام ..

فردت فاطمة وهى تذكر أباها البطل :

ــ اطمئنى ، فلا بأس علىَّ يا أماه ، لتطغ قريش ماشاءت لها وثنيتها أن تطغى . ولتمضين فى اضطهادها للفئة المسلمة الى أقسى وأفدح ما تستطيع ، فلقد طابت نفوسهم باحتمال هذا العذاب الجليل ، و « فاطمة » أجدر بأن تحمل منه ما يكافىء ما نعمت به من بنوتها للنبى ، واستئثارها بالحظ الأوفى من محبته واعزازه ..

***

واستجاب الله لها ، فامتحن ايمانها بأقسى ما يمتحن به مثلها ، فقد كان تعلقها بأبيها يجعلها تتعذب لما يلقى من فادح الأذى ، وتروَّع بالذى يكابده أتباعه من اضطهاد مرير ، حتى لتكاد تحس لسع الصخور الملتهبة التى كانت تلقى عليهم حين يحمر القيظ ، وتتحسس على بدنها أثر السياط التى كانت قريش تلهب بها ظهور من تقدر عليه من المستضعفين

وصحبت « فاطمة » أبويها الى شعب أبى طالب ، حيث عاشت هنالك بين أسوار الحصار المنهك سنين عددا . ثم عادت الى مكة بعد انهيار الحصار ، لتشهد بعينها موت أمها خديجة ، ثم هجرة أبيها الى يثرب ، بعد أن لم يبق له فى مكة مكان !

وعلى أثره هاجر « على » ابن العم أبى طالب ، وكان قد تمهل ثلاثة أيام فى مكة . ريثما أدى عن النبى المهاجر . الودائع التى كانت عنده للناس [1] ..

وبقيت فاطمة وأختها أم كلثوم ، حتى جاء رسول من أبيهما فصحبهما الى يثرب ، وأغلقت دارُ محمد بمكة ، كما أغلقت دور المسلمين فيها

(١) السيرة ١٢٩/٢

هجرةً . ليس فيها ساكن ..

ولم تسر رحلتهما بسلام : فما كادتا تودعان أم القرى وينفصل بهما الركب مستقبلا طريق الشمال ، حتى طاردهما اللئام من مشركى قريش . وباء « الحويرث بن نقيذ بن عبد بن قصى » — وكان ممن يؤذى أباهما النبى بمكة — بإثم اللحـاق بهما حتى نخس بغيرهمـا فرمى بهما إلى الأرض (١) ..

وكانت فاطمة يومئذ ، ضعيفة نحيلة الجسم ، قد أنهكتها الأحـداث الجسام التى لقيتها قبل أن تمتلىء شبعا وريا . وترك الحصار المنهك أثره فى صحتها وان زاد معنويتها قوة على قوة ، فلما نخس بها « الحويرث القرشى » فرمى بها وأختها على أديم الصحراء الأوعث . سـارت بقية الطريق متعبة ، الى أن بلغت « المدينة » وما تكاد ساقاها تنهضان بها . فلم يبق هناك من لم يلعن الحويرث ، وسـوف تسر السنوات ه‍أبوها الرسول لا ينسى الفعلة الآثمة ، بل سنراه فى العام الثامن للهجرة ، يذكر الحويرث يوم الفتح الأكبر ، ويسميه مع النفر الذين عهد النبى الى أمرائه أن يقتلوهم وإن وُجِدوا تحت أستار الكعبة ..

وكان على بن أبى طالب ، أحق هؤلاء الأمراء بقتل الحويرث . وقد فعل ! (٢) ..

***

كان الرسول قد شرع فى بناء مسجده ومنزله ، حيث بركت ناقتـه القصواء عند وصوله الى دار الهجرة ، ونزل صلى الله عليه وسلم ريثما يتم البناء ، فى دار أبى أيوب الأنصارى ، وهى الدار التى صارت من بعده الى مولاه « أفلح » فاشتراها منه المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بألف دينار ، بعد ما خربت وتداعت جـدرانها ، فأصلحها وتصدق بها على بعض فقراء المدينة ..

وكان صلى الله عليه وسلم يعمل فى بنـاء مسجده وبيته الجديد ،

---

(١) السيرة : ٥٢/٤

(٢) السيرة ٥٢/٤ — وتاريخ الطبرى ، حوادث السنه الثامنة للهجرة

مما أثار همة المهاجرين والأنصار ، فأقبلوا يتنافسون على العمل وقائلهم يقول :

لئن قعدنا والنبى يعملُ
لذاك منا العملُ المضلل

فيجيبه المسلمون :

لا عيش الا عيش الآخره
اللهم فارحم الأنصار والمهاجره !

ورؤى الرسول يومئذ وهو ينفض بيده الكريمة وفرة « عمار بن ياسر » وقد جاء مثقلا بما يحمل من اللبن ..

وسُمع على بن أبى طالب ينشد مرتجزا :

لا يستوى من يعمر المساجدا
يدأب فيه قائما وقاعدا
ومن يُرى عن الغبار حائدا

فأخذها عنه « عمار » وجعل يرتجز بها حتى تم البناء ..

ولم يكن البيت الجديد للرسول قصرا فخما ولا صرحا مشيدا . بل كان حجرات بسيطة مطلة على فناء المسجد النبوى . بعضها من حجارة مرصوصة ، وبعضها من جريد يمسكه الطين . وكانت جميعا مسقوفة بالجريد ..

أما ارتفاعها فيقول الحسن بن على ، حفيد الرسول وابن بنته الزهراء : كنت أدخل بيوت النبى صلى الله عليه وسلم وأنا غلام مراهق ، فأنال السقف بيدى

وفى البخارى : إن بابه عليه الصلاة والسلام كان يقرع بالأظافر — يعنى : لا حلق له !

أما الأثاث فأقصى ما عرفت المدينة يومئذ بساطة وخشونة وتواضعا : كان سريره صلى الله عليه وسلم . خشبات مشدودة بالليف ، بيع زمن بنى أمية ، بأربعة آلاف درهم ..

أما البيوت . فلما توفيت زوجات النبى ، جاء كتاب عبد الملك بن مروان الى واليه بالمدينة ، يأمره أن تُخلَط الحجراتُ المسجد ، فضج أهل المدينة بالبكاء . كيوم وفاته صلى الله عليه وسلم ..

***

الى هذا المنزل الجديد المتواضع ، جاءت فاطمة بنت محمد مهاجرة من مكة ، لترى أباها صلى الله عليه وسلم فى أعز موضع ، ولتجد المهاجرين وقد اطمأن بهم المقام ، وآخى الرسول بين الأنصار وبينهم ، ليذهب عنهم وحشة الاغتراب ، ويشد أزر بعضهم بعض ..

وتمت المؤاخاة قبل قدوم « فاطمة » من البلد العتيق ، ولعلها لو كانت بيثرب يومها ، لما استغربت أن ترى أباها صلى الله عليه وسلم يقف فى أصحابه فيقول :

« تآخوا فى الله أخوين أخوين » ..

ثم يأخذ بيد على بن أبى طالب ويقول :

« هذا أخى » (١) ..

ويختار لعمه جعفر ــ وكان ما يزال غائبا بأرض الحبشة ــ معاذ بن جبل ، ولأبى بكر الصديق ، خارجة بن زهير الخزرجى ، ولعمر بن الخطاب . عتبان بن مالك العوفى ، ولأبى عبيدة بن الجراح ، سعيد بن معاذ . ولعثمان بن عفان ، أوس بن ثابت أخا بنى النجار ، وللزبير بن العوام بن خويلد . سلمة بن سلامة ..

وهكذا ذهب كل مهاجر بأخ ، وذهب على بن أبى طالب بسيد البشر أخا ! ..

ولن يمضى وقت طويل ، حتى نرى عليا ، صهرا لأخيه النبى ، وزوجا لأحب بناته اليه ..

***

كانت « فاطمة » اذ ذاك قد قاربت عامها الثامن عشر ، وما تزال منصرفة عن الزواج زاهدة فيه ، متأثرة بنفورها القديم منه ، يوم انتزعوا

(١) السيرة : ٢/١٥٠ وتاريخ الطبرى : حوادث الهجرة

أختها الحبيبة « زينب » من بيت أبويها ، وزفوها الى دار أبى العاص ابن الربيع ، وفاطمة طفلة فى عامها الرابع ..

ولقد مضت الأعوام ، ونمت الطفلة فأدركت مع الزمن حكمة الزواج ، وأعدتها فطرتها لأن تستجيب لهذا الوضع الطبيعى الذى بلته كل أنثى قبلها : من حواء ، الى خديجة وزينب ورقية وأم كلثوم ..

وكانت الى ذلك كله ، تحس ابن العم ، على بن أبى طالب ، قريبـا منها فى المنزل الجديد ، وتلمحه يحوم حول أبيها الرسول وفى نفسه أمر يكتمه لا يريد أن يفصح عنه ، وعلى لسانه كلمات يمسكها قبل أن تمس شفتيه ، على أن « فاطمة » لم تكن بالتى يخفى عليها سر ابن العم ، فمنذ بلغت سن الزواج وهى تحس بالهام فطرتها ووحى قلبها ، أن « عليا » متعلق بها غير منصرف عنها ولا راغب فى سواها من بنات المسلمين ..

وكذلك هى : لم تشعر فى عالمها النفسى بمن هو أقرب اليها من «على» وأعز موضعا ، وهو بعد أكثر من أخ عزيز وابن عم قريب . فليس بين فتية قريش من يفوقه شجاعة وذكاء وعزيمة ، ولا بين شباب المسلمين جميعا من هو أسبق منه الى الاسلام أو أقرب الى رسول الله (١) ..

ولكنها مع ذلك أغلقت قلبها دونه كما أغلقته دون الرجال جميعا ، مؤثرة مكانها الى جانب أبيها الحبيب . متشبثة بموضعها فى بيته الكريم ، فمنذ ماتت أمها « السيدة خديجة » — رضى الله عنها — وهى ترى نفسها ربة هذا البيت التى تحمل عبء ادارته . وخليفة الأم الراحلة فى الوقوف الى جانب البطل المجاهد ، تهيىء له راحة وسكنا . وقد بلغت فى ذلك المجال ما جعلها تظفر بأجل كنية ، فتدعى « أم أبيها » !

وما كانت لتعدل بموضعها ذاك الأعز ، موضعا سواه !

لكن الى متى ؟

هذا ما لم تفكر فيه فاطمة بنت محمد ، أو لعلها فكرت فيه حينا ثم انصرفت عنه ، كيلا تفسد حاضرها بما يحتمل أن يأتى به الغد المجهول !

---

(١) السيرة : ١/٢٦٢ وانظر معها ترجمة الامام على فى الاستيعاب وسنن الترمذى : كتاب المناقب

حتى دخلت « عائشة بنت أبى بكر » فى حياة محمد ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ زوجة وربة بيت . فأحست « الزهراء » أن قد آن لها أن تنتقل من بيت أبيها راضية أو كارهة . لكى تخلى المكان لربته الشابة الذكية الحسناء ! ..

ولا أرتاب فى أن الزهراء رضى الله عنها قد ذكرت أمها الراحلة طويلا ليلة زفت « عائشة » الى محمد ، بعد الهجرة بأشهر معدودات ؛ وأخذت مكان خديجة فى داره ودنياه . ولعل الزهراء بكتها أحر بكاء فى ليلتها تلك . ثم هون عليها الأمر أن يجد أبوها ـــ الذى تؤثره على نفسها ـــ فى عروسه اللطيفة . ما يؤنس وحشته بعد رحيل خديجة . وما يسرى عن فؤاده بعض الشجن الذى أثقله زمنا طال حتى أوشك أن يبلغ خمسة أعوام ..

***

وزواج « أبى الزهراء » من عائشة لم يكن مفاجأة لابنته ولا لأحد من قومه ، فهو صلى الله عليه وسلم قد خطبها قبل هجرته من مكة ، يوم سعت اليه « خولة بنت حكيم » متلطفة مترفقة تقول :

« يا رسول الله . كأنى أراك قد دخلتك خلة لفقد خديجة ! » ..

ثم ما زالت به حتى أذن لها أن تمضى فتخطب له سودة بنت زمعة ، وعائشة بنت أبى بكر (١) ..

وما كانت الزهراء لتكره أن يجد أبوها النبى من تسكن اليها نفسه ويرتاح لها فؤاده . وانها لتعرف ما يحمل من أعباء الرسالة ومشاق الجهاد . وما يكابده من محنة الغربة عن الوطن ، ومأساة الاضطهاد من قومه وعشيرته ..

وقد جاءت « سودة » قبل عائشة ، فشعرت فاطمة ـــ كما لم يشعر سواها ـــ أن الفراغ فى حياة النبى زوجا ؛ ما يزال كما كان قبل أن

---

(١) تاريخ الطبرى : ١٧٦/٣ ـــ وانظر معه السمط الثمين ٣١ ـــ والاصابة حـ ٨ وانظر الفصل الخاص بالسيدة عائشة . فى كتابى « نساء النبى » ط الهلال

تجىء بنت زمعة . فإن الرسول لم يتزوجها إلا جبرا لخاطرها وعزاء لها عن زوجها « السكران بن عمرو » الذى لم يكد يعود بها من مهاجرها فى الحبشة حتى مات وتركها أرملة مسنة ، قد هدت المحن قواها ، وطحنتها السنون الطوال العجاف ..

ولم يغب عن فاطمة . ولا غاب عن سودة ، أن حظ هذه الزوجة من الرسول بر ورحمة . لا حب وتآلف وامتزاج ، فلا عجب أن بقيت الزهراء « أم أبيها » فى مكانها الأول ، دون أن تشعر بأن وجود « سودة » يغنى عنها ..

أما حين جاءت « عائشة » فالأمر جد مختلف !

فلا عجب أن لم يمض على دخولها بيت زوجها النبى أربعة أشهر ، حتى كانت « الزهراء » فى طريقها إلى بيت على بن أبى طالب (١) ..

***

والواقع أن « عليا » كان يتلبث حتى تحين فرصة مواتية مسعفة يستطيع فيها أن يطمع فى قبول الزهراء الانتقال من بيت أبيها الى بيت الزوجية ..

وطال انتظاره سنين عددا . حتى اذا دخل الرسول بعائشة الحبيبة . خامر « عليا » الرجاء فى تحقيق رغبته ، لكنه ظل محجما فترة ، لايدرى بم يمهرها وليس فى يده مال . ثم زاد إحجامه ، حين بلغه أن أبا بكر وعمر — رضى الله عنهما — قد طلبا يد الزهراء ، فردهما أبوها صلى الله عليه وسلم فى رفق بالغ (٢) ..

وشعر خاصة أصحاب « على » بما يهمه ، فشجعوه على خطبة الزهراء ، وذكروا له قرابته من أبيها ، ومكانته عنده ، ومكانة أبويه من قبله : والده أبى طالب . وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف (٣) ..

---

(١) الاصابة ١٥٧/٨ . والاستيعاب : ١٨٩٣/٤

(٢) طبقات ابن سعد : ١١/٨ . وسنن النسائى : ٢٦ ك/٧ ب

(٣) نسب قريش ٤٠ — وهى احدى الفواطم الاربع التى آثرهن الرسول بهدية جاءته . انظر صفحة ١٥٥

قال « على » يائسا : « بعد أبى بكر وعمر ؟ »
أجابوه :
« ولم لا ؟.. ووالله ما بين المسلمين ــ وفيهم أبو بكر وعمر ــ من له مثل قرابتك من رسول الله ، وقد كفله أبوك . ورعته أمك . ثم نشأت فى كنفه وربيت فى بيته ، وكنت أسبق رجل الى الاسلام به »

وتشجع « على » وأخذ طريقه الى ابن عمه ، حتى اذا جاءه حيّاه بتحية الاسلام ، ثم جلس قريبا منه على استحياء ، لا يذكر حاجته ..
وأدرك صلى الله عليه وسلم أن أخاه وابن عمه وصاحبه . جاء لأمر لا يقوى على الافصاح عنه ، فأقبل عليه يسأله فى تلطف :
ــ ما حاجة ابن أبى طالب ؟
أجاب بصوت خفيض ، وهو يغض من بصره :
ــ ذكرتُ فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ..
قال الرسول ومايزال على بشره وتلطفه : « مرحبا وأهلا ؟ »
ثم أمسك لا يزيد ..
وطال صمته ، فانصرف « على » حائرا قلقا . لا يدرى بم يجيب أهله وأصدقاءه الذين كانوا فى انتظاره . يترقبون عودته برأى الرسول ..
فلما ألحوا عليه ، قال : « ما أدرى والله شيئا : تحدثت الى رسول الله بالأمر ، فمازاد على قوله : « مرحبا وأهلا ! »
هتفوا جميعا : « يكفيك من رسول الله إحداهما ! »
ثم تركوه مستجد الأمل ، حيّ الرجاء !

＊＊＊

وأقبل فى اليوم التالى فوقف غيرَ بعيد من الرسول ، وقال بحيث يسمعه عليه الصلاة والسلام :
« أردت أن أخطب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته ، فقلت : والله مالى من شىء ، ثم ذكرت صلته وعائدته فخطبتها اليه » ..
فما راعه الا أن التفت اليه أبو الزهراء وسأله مترفقا :

ــ وهل عندك شيء ؟

أجاب على : « لا ، يارسول الله .. »

لكن الرســول ذكر أن « عليا » أصاب درعا من مغانم بدر ، فعاد يسأله : « فأين درعك التى أعطيتك يوم كذا ؟ »

أجاب وقد غلبه التأثر لما يلقى من بر النبى ورعايته :

ــ هى عندى يا رسول الله ..

قال عليه الصلاة والسلام : « فأعطها إياها (١) .. »

فانطلق « على » مسرعا ، وجاء بالدرع . فأمره النبى أن يبيعها ليجهز العروس بثمنها (٢) ..

وتقدم « عثمان بن عفان » فاشترى الدرع بأربعمائة وسبعين درهما . حملها « على » ووضعها أمام الرسول . فتناولها بيده الكريمة ثم دفعها إلى « بلال » ليشترى ببعضها طيبــا وعطرا ، ثم يدفع البــاقى الى « أم سلمة » لتشترى جهاز العروس (٣) ..

ودعا الرسول صحابته فأشهدهم أنه زوج ابنته فاطمة من على بن أبى طالب ، على أربعمائة مثقال من فضــة . على السنة القائمة والفريضة الواجبة ، وختم خطبة الزواج بمباركة العروسين الهاشميين ، والدعاء لهما بالذرية الصالحة ..

ثم قدم الى الضيوف وعاء تمر ..

***

وعلى هذا النحو من البساطة . تمت خطبــة الزهراء بنت النبى لابن عمه على . وعقــدت أخطر مصاهرة عرفها الاســلام فى تاريخه الحافل الطويل ..

وتمّ عقد النكاح فى شهر رجب من السنة الأولى للهجرة ، فلما أهلّ

---

(١) طبقات ابن سعد : ١٢/٨

(٢) صحيح البخارى : كتاب البيوع . ومسند أحمد ١٤٢/١

(٣) مسند أحمد : ٩٣/١ ، ١٠٤ ، ١٠٨ وسنن النسائى : كتاب النكاح باب ٨١

المحرم من السنة الثانية . كان « على » قد وفق الى منزل خاص يستقبل فيه عروسه الزهراء ..

واحتفل بنو عبد المطلب بهذا الزواج كما لم يحتفلوا بزواج مثله من قبل . وجاء حمزة ـ عم محمد . وعلى ـ بشارفين فنحرهما وأطعم الناس بمدينة الرسول ..

فلما تم الحفل انصرف القوم مهنئين . ودعا الرسول « أم سلمة » فطلب اليها أن تمضى بالعروس الى بيت على . ولينتظراه هناك ..

وأذن « بلال » لصلاة العشاء . فصلى النبى بالمسلمين فى المسجد ؛ ثم مشى الى دار على ، حيث دعا بماء فقرأ عليه بعض آى الذكر الحكيم ثم أمر العروسين أن يشربا منه . وتوضأ بالباقى ونثره على رأسيهما (١) . وهمّ بعد ذلك بالانصراف وهو يقول :

ـ اللهم بارك فيهما . وبارك عليهما ؛ وبارك لهما فى نسلهما !

فلم تملك فاطمة دمعها ؛ فتمهل الأب برهة ؛ وحنا عليها مهونا عليها الأمر بأنه إنما تركها وديعة عند أقوى الناس ايمانا وأكثرهم علما وأفضلهم أخلاقا وأعلاهم نفسا .. (٢)

ثم انصرف وطيف من « خديجة » يطيف بالعروس فى ليلتها الأولى . ويحوم حولها . ويسرى عنها بعض ما تجد من وحشة لفراق الأب . وشجن لغياب الأم ..

واستجاب الله لدعاء نبيه فى تلك المناسبة السعيدة . فكانت الزوجية المباركة التى شاء سبحانه أن تنحصر فى نسرها ذرية نبيه المصطفى ..

***

كانت سن « الزهراء » عندما تزوجت ثمانية عشر عاما . ولكن الهوى جنح بالمستشرق «لامانس» فخيل اليه أنها كانت أسنّ من ذلك بكثير . « وانما عمد بعض كتّاب السيرة الى تأخير ميلادها . كيلا يقال انها ظلت مزهودا فيها مرغوبا عنها الى أن فاتت سن الشباب » ..

---

(١) طبقات ابن سعد : ١٥/٨

(٢) طبقات ابن سعد : ١٦/٣

ولعلنا لو سألناه : فلم لم يفعل كتّاب السيرة مثل هذا مع خديجة وعائشة ؟.. لِم لَم يجعلوا الأولى أصغر سنا ويضيفوا الى الأخرى عشر سنين أو عشرين ، ليلائموا بينهما وبين زوجهما النبى فى السن ؟.. أقول : لعلنا لو سألنا « لامانس » مثل هذا السؤال لما حار جوابا ..

و « لامانس » ــ فيما أرجح ــ قد اعتمد فى ذلك على خلاف يسير الشأن فى تاريخ مولد الزهراء ، فاستغله الى أبعد حد فى إرضاء هواه ، وبدلا من أن يزن الروايات المختلفة ويعرضها على مقاييس النقد والتقويم ، نراه يضع أصبعه على قول نقله « المسعودى » بولادة الزهراء قبل الهجرة بثمانية أعوام فحسب . وآخر ذكره «اليعقوبى» بأنها ولدت بعد نزول الوحى . يضع « لامانس » إصبعه على هذا القول أو ذاك . ثم يصوب الطعنة المسمومة ، متجاهلا أقوال الكثرة من الثقات الذين عليهم المعتمد فى هذا الشأن . كابن اسحاق . وابن هشام ، والطبرى ؛ وهم يكادون يجمعون على أن مولدها قد كان قبل البعثة بخمس سنين

والخلاف ــ كما قلت آنفا ــ يسير الشأن . لأننا تعودنا أن نلقى مثله وأكثر منه فى تاريخنا النقلى ، وبخاصة ذاك الذى يعتمد على المروى شفاها قبل عصر التدوين . حيث لا تكاد تخلو ترجمة شخص من خلاف كهذا ، وبخاصة فى سنة مولده . اذ المألوف ألا تتجه العناية الى ترجمة شخص الا بعد أن ينمو وتظهر شخصيته ويبدو أنه جدير بالعناية . وكان للمستشرق أن يأخذ من هذه الظاهرة العامة ما شاء . لا أن يتمسك بجزئية بعينها ، ثم يخصها بالتجريح والطعن وسيىء التأويل ..

وما أظن « لامانس » بالذى يغيب عنه الموقف المنهجى حين يختلف الرواة ، لكنه تجاهل عامدا « ابن اسحاق » وهو مرجعنا الأول فى السيرة ، لأنه أقرب كتابها عهدا بالرسول وبناته ، وابن اسحاق لم يذكر فى مولد « فاطمة » غير قول واحد اقتصر عليه . وهو السنة الخامسة قبل البعثة ، ثم أيده بحكم عام هو أن بنات محمد ولدن جميعا قبل أن يبعث صلى الله عليه وسلم ، وهذا القول أغفله « لامانس » كما أغفل

من بعده أقوال الأئمة من رجال الحديث والثقات من المؤرخين . ليتمسك برواية المسعودى ، حتى اذا استغلها ماشاء له التعصب والهوى ، واتكأ عليها فى الزعم بأن كتّاب السيرة أخروا مولد فاطمة لكى ينفوا عنها تهمة البوار . عاد فنقضها برواية « اليعقوبى » التى تقول بولادة الزهراء بعد المبعث ! ..

***

الى ذلك الحد . بلغ بمتعصبى المستشرقين التواء الأسلوب وانحراف المنهج واغتصاب الدليل . وكانوا فى غنى عن هـذا كله . ليصلوا الى ماشاءوا تقريره من تأخر زواج فاطمة ، مستندين الى قول ابن اسحاق نفسه . فسن الثامنة عشرة جد متأخرة اذا قيست بسن أخواتها الثلاث حين تزوجن . وهى أبعد تأخرا اذا قيست بسن أم المؤمنين « عائشة » بنت أبى بكر . لكن معاذ الحق أن يكون هذا التأخر عن زهد فيها ورغبة عنها . فهى بنت الأمين الطاهرة . وهى أخت زينب . ورقية ، وأم كلثوم ، اللواتى تنافس شبان قريش على الزواج منهن ولما يزلن فى مستهل الصبا . وكانت بعد هـذا كله . أقرب الناس شبها بأبيها فى الخلقة . وهو من هو بهاء طلعة وجمال صورة . وانما عرف القوم زهد الزهراء فى الزواج . وتشبثها بمكانها الى جانب أبيها الرسول . وقدروا موضعها من البيت المحمدى وحاجته اليها بعد وفاة أمها رضى الله عنها .

ثم . لم لا نقول ــ اذا لم يكف كل ما قدمنا ــ إن تأخر زواجها كان عن تهيب لها ؟.. لقد بعث أبوها صلى الله عليه وسلم . وهى وحدها التى لم تتزوج . اذ كان عمرها خمس سنوات . والناس بعد المبعث أحد رجلين : اما كافر بنبوة محمد وهيهات أن يفكر فى مصاهرته ؛ وقد علمنا ما كان من سعى قريش الى أصهار محمد فى رد بناته الثلاث اليه كى يشغلوه بهن . واما مسلم يؤمن بنبوة محمد ويصدق برسالته . وقد عرفنا موقف المسلمين من نبيهم والى أى مدى كانوا يجلونه ويعظمونه ويفتدونه بالمهج والأرواح . فغير مستغرب ألا يروا أنفسهم كفئا لمصـاهرته ؛

وأن يغضوا الطرف عن « أم أبيها ، الزهراء » اجلالا وتهيبا

ولا يرد على هذا بأن « عثمان » رأى فى نفسه كفئا لرقية . فلقد قلّ فى أصحاب الرسول — بل فى قريش بعامة — مثل عثمان ثراء وشرفا وجاها ، وهو بعد قد طمع فى الزواج من بنت النبى . بعد أن طلقها ابن أبى لهب كيدا وحقدا . وليس الأمر كذلك مع الزهراء ..

ونحن — حتى يومنا هذا — نرى بنات الأسر الكريمة يتأخر زواجهن فى انتظار الأكفاء وهم عادة القلة . اذ القاعدة المطردة هى أنه كلما تميزت الفتاة لعلمها أو ثرائها أو عزتها ، قلّ أكفاؤها ..

ولم يكن « على » مع ذاك أول من طمع فى الزواج من « فاطمة » بعد تهيب وتردد ، فقد تسامى الى ذلك الشرف قبله . صاحبا الرسول أبو بكر وعمر ، على ما روى « البلاذرى » فى « أنساب الأشراف » . وابن سعد فى طبقاته (١) ، والنسائى فى سننه (٢) ، فردهما أبوها ردا كريما ..

ويأبى « لاماس » بعد ذلك كله الا أن يعلل الزهد المزعوم فى « الزهراء » بأنها كانت محرومة من الجمال والذكاء والمرح (!!) ولست أطيل الوقوف عند هذا الزعم المريض ، بعد أن تهاوى كلام صاحبه على ما بيّنا ...

***

لم تكن حياة « الزهراء » فى بيت زوجها مترفة ولا ناعمة ، بل كانت أقرب الى أن توصف بالخشونة والفقر ، وهى فى ذلك تختلف عن حياة أخواتها اللواتى أتيح لهن حظ غير قليل من الثراء المادى . فقد تزوجت « زينب » من أبى العاص وهو معدود من أثرياء مكة ، وتزوجت رقية وأم كلثوم أولا من ابنى أبى لهب ذى المال الوافر . ثم تزوجتا واحدة بعد الأخرى من « عثمان بن عفان » الواسع الغنى . أما « على بن أبى

---

(١) جـ ٨ ص ١١
(٢) كتاب النكاح ، الباب السابع

طالب » فلم يك ذا حظ من مال مكتسب أو موروث . اذ كان أبوه على عظم مكانته وعلو شرفه . قليل المـال كثير العيال . مما دفع ابن أخيه محمدا الى أن يقترح على عمه « العباس » التخفيف من أعباء أبى طالب ، بأن يأخذ كل منهما أحد بنيه فكفله عنه . وكان من نصيب « على » أن يختاره « محمد » دون بقية أبناء العم ..

وبُعث « محمد » صلى الله عليه وسلم رسولا ، فكان « على » أول من آمن به صبيا . اذ كان عمره عشر سنوات على ما نقل ابن اسحق (١) وهكذا اشترك « على » فى الحرب المقدسة بمجرد أن شب عن الطوق ، وشُغل بالجهاد عن جمع المال ، وصرفته صحبة الرسـول وهو يواجه المشركين . عما كان يرجى أن يشـتغل به من التجارة التى هى حرفة الرجال من قريش ، وصنعة الأشراف فى مكة . وسبيل الثراء بالوادى الأجرد غير ذى الزرع . فلا عجب أن رأيناه يطلب يد « الزهراء » وليس فى يده ما يمهرها به سوى درع أفاءها الله عليه من مغانم « بدر » التى أبلى فيها « على » خير البلاء ، على ما هو معروف فى تاريخ الاسلام . ومشهود له من ثقات الاخباريين والمؤرخين (٢)

ولم يغب شىء من ذلك عن فاطمة حين عرض عليها أبوها صلى الله عليـه وسـلم طلب « على » يدها . ولو صـحت الرواية التى انفرد « البـلاذرى » ــ فيما أعلم ــ بذكرها . وهى أن الزهراء ذكرت فقر خطيبها ، فرد أبوها يزكيه :

« إنه سيد فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين ، وانه أكثر الصحابة علما وأفضلهم حلما وأولهم اسلاما » ..

أقول لو صحت هذه الرواية . لكانت مما يقال عادة فى مثل هـذا الموقف ، لكن « لامانس » لم يدعها تمر دون أن يغمز ويلمز ، ليغض من شأن الامام على كرم الله وجهه ، حتى اذا أحس أن الفقر لا يمكن أن

---

(١) السيرة : ٦٢/١
(٢) تاريخ الطبرى : حوادث غزوة بدر . والسيرة ٣٧٢/٢

يعاب على الامام ، وقد نشأ النبى نفسه يتيما فقيرا . راح يتخبط ليلتمس مغمزا آخر . وأخـذ يبدى ويعيد عن ضآلة حظ « على » من جمال الصورة وحسن الشكل ! .. ولو راجع نفسه فسـألها : كيف يستقيم مزعمه فى أن شخصية فاطمة رسمت بأخرة . وأضيفت اليها ألوان زاهية من صنع التشيع ، مع هذا الذى ينقله من روايات عن الامام على ؟ .. أقول : لو راجع نفسه . لاستوقفه هنا أن مؤرخى الاسـلام لم يضيفوا الى امام الشيعة من الثراء والجمال ما يرفع قدره عند أمثال «لامانس» . بل انهم ــ بشهادته ــ قد ذكروا أنه كرم الله وجهه « كان فقيرا معدما قصيرا أفطس الأنف دقيق الذراعين » دون أن يجدوا فى ذلك ما يغض من شأنه ، أو ينقص مقداره حين يوزن بموازين الرجال ويقدر بمقاييس الأبطال ! ..

***

ونرجع الى حيث تركنا « الزهراء » تستقبل فى عامها الثـامن عشر حياتها الجديدة . فلا نرى أحدا من رواة المسلمين حاول أن ينفى عنها ما كانت تجده من شـظف العيش ، أو يجىء فى جهـازها بفراش وثير وأثاث جميل ، بل نقرأ أنها دخلت بيت زوجهـا بخميلة . ووسـادة حشوها ليف . ورحاءين وسقاءين ، وشىء من العطر والطيب ..

وكان زوجها من الفقر بحيث لم يستطع أن يستأجر لها خادما تعينها أو تقوم عنها بالعمل الشاق . فكان عليها ــ رضى الله عنها ــ أن تنفرد بهذا العبء الثقيل (١) . لكن « عليا » لم يكن يهون عليه أن يراها هكذا كادحة مجهدة . فحاول أن يساعدها فى بعض أعمال البيت ما مكنته ظروفه من ذلك ، اذ كان يخشى أن يستنفد العبء ما بقى لها من قوة جسدية ، بعد الذى كابدته ــ منذ عامها الخامس ــ من محنة الحصار ومشقة الهجرة ومتاعب الجهاد ..

حتى ناء كلاهما بما يحمل ، فانتهز كرم الله وجهه فرصـة مواتية ،

(١) صحيح البخارى ٦/٦٩ ، ٧ وصحيح مسلم : ٨٠/٤٨

وقال لها ذات يوم وقد عرف أن أباها النبى عاد من إحدى غزواته الظافره بغنائم وسبايا :

ــ لقد شقوت يا فاطمة حتى أسليت صدرى . وقد جاء الله بسبى ، فاذهبى فالتمسى واحدة تخدمك ..

أجابته وهى تنحى الرحى جانبا فى تعب وكلال : أفعل إن شاء الله ..

ثم لبثت ساعة حيث هى فى ساحة الدار ريثما استردت بعض قواها الذاهبة . وقامت فتلفعت بخمارها وخرجت تسعى الى بيت أبيها بخطوات بطيئة وانية . فلما رآها صلى الله عليه وسلم هش لها وسأل :

ــ ما جاء بك يا بنية ؟ ..

أجابت : « جئت لأسلم عليك ! .. »

ومنعها الحياء أن تسأله فيما جاءت من أجله ..

ثم عادت من حيث أتت ، لتنبىء زوجها أنها استحت أن تطلب من أبيها شيئا ..

فقام كرم الله وجهه وصحبها الى بيت الرسول . وتولى عنها السؤال وهى مطرقة من استحياء ..

أجاب صلى الله عليه وسلم :

ــ لا والله . لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تتلوى بطونهم لا أجد ما أنفق عليهم ، ولكن أبيع ، وأنفق عليهم بالثمن ..

فانصرفا شاكرين ، وما يدريان أن شكواهما مست قلب الأب الحنون ، وشغلته نهاره كله ! ..

وجن الليل وكان البرد قارسا ثقيل الوطأة ، فرقدا على فراشهما الخشن يحاولان النوم فلا يجدان اليه سبيلا لفرط ما يشعران به من قسوة البرد . فاذا بالباب يفتح « ويقبل عليهما الرسول وقد انكمشا فى غطائهما مقرورين . اذا غطيا رأسيهما بدت أقدامهما . واذا غطيا أقدامهما انكشفت رأساهما » . فهبّا للقاء الضيف الكريم ، لكنه صلى الله عليه وسلم ابتدرهما قائلا : « مكانكما ! .. »

ثم أضاف فى رفق وهو يقدر حالهما : « ألا أخبركما بخير مما سألتمانى»
أجابا معا : « بلى يا رسول الله .. »
قال : « كلمات علمنيهن جبريل : تسبحان الله فى دبر كل صلاة عشرا ، وتحمدان عشرا . وتكبران عشرا ، واذا أويتما الى فراشكما . تسبحان ثلاثا وثلاثين . وتحمدان ثلاثا وثلاثين ، وتكبران ثلاثا وثلاثين ..

ثم ودعهما ومضى . بعد أن زودهما بهذا المدد الالهى . ولقنهما هذه الرياضة النفسية التى تغلب المصاعب وتهزم المتاعب ..
ولقد سمع « الامام على » بعد أكثر من ثلث قرن يذكر كلمات الرسول ويقول : « فوالله ما تركتهن منذ علمنيهن ! »
سأله رجل من أصحابه : « ولا ليلة صفين ؟ » ..
فأجاب مؤكدا : « ولا ليلة صفين ! » ..

***

وتأبى سنة الله التى فطر الناس عليها ، ألا تؤثر هذه الحياة الشاقة الكادحة على صحة « الزهراء » ومزاجها ، وقد كان وجودها رضى الله عنها فى صميم المعركة منذ طفولتها ، يميل بها عن المرح والابتهاج ، ثم أحزنها موت أمها أشد الحزن ، وزادها وحشة وشجنا . وكانت الى جانب ذلك كله مشغولة البال بأبيها النبى ، تفكر فيه على البعد والقرب ، وتتبعه قلبها فى غزواته ومعاركه . وقد تأذن لها الظروف بمصاحبته الى ميدان القتال ، كما حدث فى موقعة « أحد » اذ رؤيت هنالك تضمد الجراح وتأسو الكلوم وتسقى المحتضرين من الشهداء ..

وليست هذه الظروف مجتمعة ، مما يعين على بهجة وانشراح . ولعل الزهراء حاولت أن تتأسى بغيرها من نساء البيت النبوى . وهى ترى مثلا ، أم المؤمنين عائشة ، تضفى على بيت زوجها إشراقا وتبث فيه حيوية وأنسا ، وتلقى البطل إذ يعود الى سكنه ، بابتسامتها الوضاءة ودعابتها اللطيفة ومرحها الحلو ..
وربما حاولت الزهراء كذلك ، أن تنحى عن بيتها الخاص ظلال الكآبة

التى كانت تغشاه لفرط نزوعها الى ذكرى أمها ، ومزيد قلقها على أبيهـا وزوجهـا . وعمق تأثرها بما لقيت ولقى أهلهـا والمسلمون من محن واضطهاد . لكنما أعوزها ــ لكى تنجح فى محاولتها هـذه ــ أن تجد الى جانبها زوجا لطيفا وديعا هينا لينا ، و « على » كرم الله وجهه لم يكن من هذا الصنف من الأزواج ، بل كانت فيه شدة أقرب الى أن تكون صرامة ، وخشونة توشك أن تشتبه بالغلظة ، وحزما يكاد يكون صلابة . واذا كانت رضى الله عنها فى حاجة الى يد حانية رقيقة ، تأسو جرحها وتنسيها ما لقيت فى مستهل صباها من متاعب وصدمات . وتلطف أشجانها لفراق بيتها الأول الحبيب ، فقد كان « على » كرم الله وجهه لا يقل عنها حاجة الى هذه اليد اللطيفة الرحيمة التى تنفض عنه غبار المعارك التى خاضها منذ كان صبيا ..

فليس يروعنا اذن . ما تحدث به الرواة من خلاف كان يقع أحيانا بين الزوجين . وقد يبلغ أحيانا سمع الأب الرسول فيهتم له ويحاول جهده أن يقربهما بمزيد من الاحتمال ..

حدثوا انه صلى الله عليه وسلم ، رئى ذات مساء وهو يسعى الى دار بنته فاطمة . بادى الهم والقلق . فأمضى وقتا هناك ثم خرج ووجهه الكريم يفيض بشرا . فقال قائل من الصحابة : يا رسول الله . دخلت وأنت على حال . وخرجت ونحن نرى البشر فى وجهك ! ..

فأجاب عليه الصلاة والسلام :

ــ وما يمنعنى وقد أصلحت بين أحب اثنين إلىّ ؟ ... (١)

وحدث مرة أن ضـاقت « الزهراء » بما تجد من شـدة زوجهـا صلابته . فقالت له :

« والله لأشكونك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم » ..

وخرجت . و « على » فى أثرها ، حتى جاءت أباها فشكت اليه ما أنكرت من زوجها (٢) . فتلطف الأب النبيـل فى ترضيتها وحملها على

---

١ طبقات ابن سعد : ١٦/٨
٢ طبقات ابن سعد : ١٦/٨

الرفق بعلى واحتماله ..

قال « على » كرم الله وجهه وهو يصحب زوجته الى بيتها :

ــ والله لا آتى شيئا تكرهينه أبدا !

***

لكنه كاد يأتى ــ غير متعمد ــ شيئا تكرهه فاطمة أشد الكره ، وتألم منه أفدح الألم ..

وأى شىء أبغض الى زوجة كالزهراء ، من أن يأتيها زوجها وابن عمها بضرة ! ؟

لقد همّ « على » بالزواج على فاطمة ، وفى حسابه أنه انما يجرى على مألوف عادة قومه فى الجمع بين زوجتين وأكثر ، ويفعل ما أباحه له الاسلام من تعدد الزوجات ، دون أن يخطر بباله أن فى هذا ما تنكره بنت نبى الاسلام !

لكن الأمر جرى على غير ما قدّر « على » ..

فما كاد يهم بالزواج من بنت عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومى ، حتى راعه أن يرى أبا الزهراء يقبل على المسجد مغضبا ، ويخطب فى الناس منكرا على « ابن أبى طالب » أن يتزوج على فاطمة ، بنت عمرو هذا ..

لكن كيف والاسلام يبيح تعدد الزوجات ، ومحمد صلى الله عليه وسلم كان يجمع فى بيته يومئذ بين زوجات ثلاث أو أربع ، فيهن عائشة بنت أبى بكر الصديق ، وحفصة بنت عمر بن الخطاب الذى أعز الله به الاسلام ؟ ..

كيف يحرم النبى ما أحله الله ، وينكر على ابن عمه ما لم ينكره على نفسه ؟ ..

ليكن هذا الزواج مؤذيا لفاطمة ، أفلم تتعرض لمثله بنتا أبى بكر وعمر ؟ ..

وهل يأبى النبى أن يجوز على ابنته ما يجوز على كل مسلمة ، وهو

القائل فى المرأة السارقة : « لو كانت بنت محمد فاطمة ، لقطعت يدها » ؟

وهل استثنى الاسـلام من تعدد الزوجات . بنات نبيه الذى بلَّغ رسالته ؟ ..

يا له من موقف بالغ الدقة والصعوبة والحرج !

فالنبى يعلم حق « على » فى الزواج ولو على فاطمة بنت محمد ..

ومحمد . فى أبوته الرحيمة وبشريته السوية ، يؤذيه أن تروَّع أحب بناته بضرة ، ويشفق عليهـا من تجربة قاسية كهذه ، يعلم أنها لا قبل لها باحتمالها ..

ألا ليت « عليا » قد صبر على واحدة ، أسوة بابن عمه حين اكتفى بخديجة زوجة ، مدى ربع قرن من الزمان !.. اذن لأعفى الأب النبى من الحرج ، وأغناه عن ذلك الموقف الشائك الصعب ..

وانى لأتمثله صلى الله عليه وسلم ، يرنو الى بنته الغالية وهى تترقب المحنة فى خوف وقهر ، فتكاد لفرط أساها وقلقها ، تذوب من ضعف وكمد ، ويود بكل ما استطاع أن يدفع عنها ما تكره ، وأن يحميها من الخوف الذى يقرح أجفانها ويروع أمنها ، ويؤرق لياليها ، لكن الأمر يبدو معقدا ، فما كان لنبى أن يحرم ما أحلَّ الله ! ..

وفى ظلمات الحيرة ، يلوح شعاع من الضـوء ينير السبيل : إن عليـا ذكر بنت « عمرو بن هشام المخزومى » ، فهل يرضى الله أن يجمع بيت « على » بين بنت رسول الله ، وبنت عدو الله ؟

فعمرو هذا ، هو « أبو الحكم بن هشام » ــ أبو جهل ــ الذى لم ينس الرسول والمؤمنـون ما اقترف من آثام فى اضـطهاد الدعـوة الاسلامية ..

هو عدو الله الذى قال لقريش : « يا معشر قريش ، ان محمدا قد أبى إلا ما ترون من عيب آلهتنا وشتم آبائنا وتسفيه أحلامنا ، وانى أعاهد الله لأجلسن له غدا بحجر ما أطيق حمله ، فإذا سجد فضخت به رأسه »

فأسلسونى عند ذلك أو امنعونى ، فليصنع بى بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم » (١) ..

هو هو القائل مستهزئا بالرسول :

« يا معشر قريش ، يزعم محمد أن جنود الله الذين يعذبونكم فى النار ويحبسونكم فيها ، تسعة عشر ، وأنتم أكثر الناس عددا . أفيعجز كل مئة رجل منكم عن رجل منهم ? » فنزلت فيه الآية :

« وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة الذين كفروا » (٢) ..

ثم هو هو القائل لمن سأله رأيه فيما سمعه من محمد :

« ماذا سمعت ؟.. تنازعنا وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا . وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا . حتى اذا كنا كفرسى رهان قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء ؟.. فمتى ندرك هذه ؟.. والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه ! .. »

وهو هو الذى كان اذا سمع برجل أسلم ، من ذوى الشرف والمنعة ، أنّبه وأخزاه ، وقال : « تركت دين أبيك وهو خير منك ؟.. لنسفهن حلمك . ولنقبحن رأيك ، ولنضعن شرفك » . وان كان الذى أسلم تاجرا ، قال : « والله لنكسدن تجارتك ، ولنهلكن مالك » . وان كان ضعيفا ضربه وأغرى به ..

وهو هو . الذى لقى حكيم بن حزام بن خويلد ، يحمل طعاما يريد به عمته خديجة فى محنة الحصار . فتعلق اللعين به وقال : « أتذهب بالطعام إلى بنى هاشم ؟.. والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة » وأبى أن يطلقه حتى اشتبكا ونال أحدهما من صاحبه ..

وفيه نزل قوله تعالى : « ان شجرة الزقوم طعام الأثيم ، كالمهل يغلى فى البطون ، كغلى الحميم ! » (٣) ..

---

(١) السيرة : ٣١٩/١
(٢،٣) الزمخشرى ، الكشاف .. والسيرة : ٢٣٣/١ ، ٢٣٥

وهو هو الذى اعترض وفدا من النصـــارى جاءوا مكة يستطلعون لقومهم أمر محمـــد حين بلغهم خبره من الحبشة . فمـــا جلســـوا اليه واستمعوا له حتى آمنوا به . فلقيهم إثر انصرافهم أبو جهل فقال لهم : « خيَّبكم الله من ركب !.. بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل . فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه ؟ ! .. ما نعلم ركبا أحمق منكم ! » (١) ..

وهو هو الذى رأى لقريش قبيل الهجرة ، أن تختار كل قبيلة منها فتى شابا جليدا نسيبا ، ثم يُعطى سيفا صارما ، فيعمدوا جميعا الى محمد ويضربوه ضربة رجل واحد ، فيقتلوه ، فيتفرق دمه فى القبـــائل جميعا (٢) ..

فلما هاجر الرسول ، غدا القوم وفيهم أبو جهـــل ، فوقفوا بباب أبى بكر ، فخرجت اليهم أسماء فقالوا لها :

ــ أين أبوك يا بنت أبى بكر ؟ ..

أجابت : « لا أدرى والله أين أبى .. »

فرفع « أبو جهل » يده ــ وكان فاحشا خبيثا ــ ولطم خدها لطمة طرحت قرطها ..

وحين تهيأ الفريقان للقتال فى بدر ، بعث جيش قريش من يأتيها بنبأ العدو ، فرجع اليها محذرا . ومشى حكيم بن حزام بن خويلد الى عتبة ابن ربيعة يرجوه أن يرجع بالناس . فكاد عتبة يستجيب له . وســـأل « حكيما » أن يذهب الى أبى الحكم . فما يخشى « عتبة » المخالفة من سواه . فلما سمع أبو جهل بهذا ، أبى الا القتال ! ..

وكان أحد سبعة ، سمع الرسول يدعو عليهم يوم بدر (٣) ..

وظل ــ عليه الصلاة والسلام ــ يقول لأصحابه : اطلبوه (٤) ..

وقُتل كافرا ملعونا ، وجىء برأسه الى « محمد » فحمد الله ! ..

(١، ٢) السيرة جـ ٢ صفحات : ٣٢ ، ١٢٦ ، ١٣٢

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٢/١٥

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٢/١٧

واستبقى ــ عليه الصلاة والسلام ــ جمل أبى جهل ، حتى اذا توجه للعمرة ــ بعد أربع سنوات ــ ساق الجمل هديا ، ونحره يوم الحديبية (١) ..

أتكون بنت هذا الرجل ، ضرة لفاطمة بنت النبى ؟ ..

يأبى الرسول ذلك ! ..

وانطلق صلى الله عليه وسلم الى المسجد مغضبا حتى بلغ المنبر فخطب فى صحبه قائلا :

« ان بنى هشام بن المغيرة استأذنونى أن ينكحوا ابنتهم علىّ بن أبى طالب ، فلا آذن لهم ثم لا آذن لهم ثم لا آذن لهم ، اللهم الا أن يحب ابن أبى طالب أن يطلق ابنتى وينكح ابنتهم ، فان ابنتى بضعة منى يريبنى ما أرابها ويؤذينى ما آذاها ، وإنى أتخوف أن تفتن فى دينها » ..

ثم ذكر صلى الله عليه وسلم صهره أبا العاص ــ وهو من بنى عبد شمس ، لا من بنى عبد المطلب كعلى ــ فأثنى عليه فى مصاهرته إياه أحسن الثناء وقال :

« حدثنى فصدقنى ، ووعدنى فأوفى لى ، وإنى لست أحرم حلالا ولا أحل حراما ، ولكن الله لا يجمع بنت رسول الله وبنت عدو الله ببيت واحد أبدا » ..

ولقد ورد هذا الحديث فى الكتب الستة الأمهات (٢) ولكن أحدا من الرواة لم يذكر لنا وقعه على المسلمين وصداه فى المدينة

فهل ترى يعيينا أن نتصور مدينة الرسول وقد باتت ليلتها ساهرة ، تؤمّن على قول النبى ، وترى فيه مظهرا جميلا من مظاهر بشريته التى طالما أصر على الاعتراف بها ، وآية ناطقة بأبوته الرحيمة التى كانت مضرب الأمثال ، ودليلا جديدا من أدلة حبه لبناته . هذا الحب الذى شاء الله أن يملأ به قلب النبى المختار ، فى بيئة وأدت بناتها ؟ ! ..

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٦٩/٢

(٢) صحيح البخارى ٢٩/٥٣٨ ، وصحيح مسلم : سنن أبى داود «كتاب ١٢» وفى سنن الترمذى « كتاب ٤٦ » وفى سنن ابن ماجه : ٥٦/٨ وفى مسند احمد : ٣٢٦/٤ ، ٣٢٨

أو هل يقصر خيالنا عن متابعة « على » وهو ينصرف من المسجد اثر سماعه خطبة صهره النبى ، ويأخذ طريقه الى بيته بطىء الخطو . مثقل القلب يفكر فيما كان ! ؟ ..

أتراه حقا قد أراد الزواج على فاطمة ، من بنت عدو الإسلام ؟..

كيف هان عليه جهاده الطويل الباسل فى سبيل الدعوة المحمدية ؟ .. بل كيف هان عليه أن يروع أمن الحبيبة بنت الحبيب . ويكسر قلبها بزواج مثل هذا لا يمكن أن يؤول الا بالرغبة فى متاع حسى مادى . لا يجده لديها ؟ ..

لقد كان لزواج « محمد » من كل واحدة من نسائه مبرراته الخاصة ، وظروفه الملجئة ، والا فما باله صلى الله عليه وسلم . قد اكتفى بخديجة خمسا وعشرين سنة ، فلم يتزوج عليها حتى ماتت . وقد بلغ الخمسين من عمره ، وحين كانت الأحداث الكبار تشغل باله . والجهاد فى سبيل الدين الجديد يملأ وقته ؟ ..

ألا فلتكن بنت أبى جهل من حظ غيره . أما هو ، فليس بالذى يحبط جهاده الباسل ، فيستبدل بالنبى ، أبا جهل بن هشام صهرا !.. وليس هو بالذى يؤذى نبيه وأباه وابن عمه . فى أحب بناته اليه ، ولن يكون أبو العاص بن الربيع ، قبل إسلامه ، أبر منه ببنت محمد ، ابن عمه عبد الله بن عبد المطلب ، ولا أرعى فى مصاهرته للنبى ذماما ! ..

***

وينتهى به المسرى الى البيت ، حيث يجد « الزهراء » فى وحدتها تجتر أحزانها وتسامر همومها ، فيدنو منها حتى يأخذ مكانه الى جانبها صامتا لا يدرى ماذا يقول ..

واذ رآها تبكى ، همس معتذرا :

— هبينى أخطأت فى حقك يا فاطمة . فمثلك أهل للعفو والمغفرة ..

ومضت قطعة من الليل قبل أن تجيب : « غفر الله لك يا ابن العم »

فأقبل عليها مترفقا ، ثم راح يروى لها ما كان من حديث المسجد ،

ويصف لها شعوره حين سمع ابن عمه يتحدث عن ضيقه بالأذى يلحق ابنته فاطمة ، وانكاره أن يتزوج «على» من بنت أبى جهل مع الزهراء ، وقسمه ألا يجمع بنت رسول الله وبنت عدو الله بيت واحد أبدا ! ..

واغرورقت مقلتا « فاطمة » بالدموع تأثرا بحب أبيها ، وانفعالا بموقفه . ثم قامت للصلاة ! ..

***

وبقى سؤال ذو بال :

متى همّ « على » بالزواج على الزهراء بنت النبى ؟ ..

صمت المؤرخون ورجال الحديث فلم يشيروا الى موعد الخطبة ، على ما لذلك من أهمية وخطر ، لكننا نطمئن الى أنها كانت فى الفترة الأولى من زواجهما ، وهو اطمئنان لا يسنده دليل نقلى ، وإنما يغرينا به فهمنا لطبيعة الموقف . وتقديرنا أنه أقرب احتمالا ، قبل أن يرزقا الولد ، حين كانت فاطمة وعلى فى مستهل حياتهما الزوجية ، لم تألف بعد شدته وصرامته ، ولم يَرُض هو نفسه على احتمال ما كانت لا تزال تجد من حزن لفقد أمها . وشجو لفراق بيتها الأول ! ..

وبهذا الاطمئنان . نميل الى توقيت الحادثة على وجه التقريب . بالعام الثانى من الهجرة ، قبل أن يأتيهما العام الثالث بأولى الثمرات المباركة للزواج ..

***

انقشعت السحابة التى ظللت أفق « الزهراء » حينا لا نحدد مداه . وعاد البيت أصفى جوا مما كان قبل أن يمتحن بتلك التجربة القاسية ، ومضت الحياة تسير بالزوجين الكريمين على ما يرجوان من تعاون ومودة : فاطمة فى الدار تقوم على خدمة زوجها ما وسعها الجهد ، وتتخلص شيئا فشيئا مما كان يعتادها من شجن وانقباض ، وعلىّ الى جانبها يبذل لها من الحدب والرعاية ما يعينها على مشقة العيش الكادح فى جو « المدينة » الذى لم تسعفها صحتها على أن تألفه بسرعة كما ألفه

كثير من المهاجرين . ويحاول قدر ما أطاق . أن يترفق بها ويروض نفسه على شيء من اللين واليسر ..

ثم شاء الله أن يقر عين الزهراء وعيون من يحبونها . فوضعت بكرها « الحسن بن علي » في السنة الثالثة من الهجرة (١) ؛ وسعى البشير الى أبيها النبي بالنبأ السعيد . فخف اليها مشوقا فرحا . وحمل وليدها بين ذراعيه . وتلا الأذان في مسمعه . ثم أقبل عليه يتأمله في غبطة وحنان وهو يذكر ولديه اللذين استردهما الله صغيرين قبل سن الفطام ! ..

واحتفلت مدينة الرسول بمولد « الحسن » وتصدق جده صلى الله عليه وسلم على الفقراء من أهلها بزنة شعره فضة . ثم راح يرقب تفتح الحياة في هذه الفلذة الغالية منه . فلما بلغ الوليد من العمر عاما وبعض عام . حتى أردفته أمه الزهراء بشقيقه « الحسين » في شهر شعبان سنه أربع من الهجرة (٢) ..

وتفتح قلب النبي لهذين الحفيدين الغاليين يملآن حضن أم أبيها « الزهراء » . ورأى فيهما امتدادا لحياته الخاصة على هذه الأرض . ومتنفسا لما يفيض به قلبه الكبير من عاطفة الأبوة التي يئست من الولد منذ ماتت خديجة رضي الله عنها ..

كان الرسول اذ ذاك — في العام الرابع الهجري — في نحو السابعة والخمسين . وقد مضى على وفاة خديجة ما يقرب من سبع عشرة سنة ؛ تزوج خلالها من خمس نساء : سودة بنت زمعة الكهلة الأرملة . وعائشة بنت أبي بكر الصبية العذراء ، وحفصة بنت عمر الشابة الناضجة . وزينب بنت خزيمة أم المساكين . وأم سلمة . هند بنت أبي أمية المخزومي زاد الركب . وقد دخل بها في شوال من السنة الرابعة للهجرة (٣) . وكان لها من زوجها الأول . عبد الله بن عبد الأسد بن المغيرة ، ابن عمة الرسول برة بنت عبد المطلب : سلمة ؛ وعمر . ودرة . وزينب . ومع ذلك . لم يرزق النبي بولد من إحدى هاتيك الزوجات

---

١ ، ٢ الاستيعاب وطبقات ابن سعد : ترجمتا الحسن والحسين . رضيهما

٣ تاريخ الطبري : ٤٢/٣

الخمس . وبدا أن قد انقطع خلف محمد بن عبد الله ، الا أن يكون عن طريق ابنته « الزهراء » ..

فلا عجب أن أقبل الرسول على سبطيه « الحسن والحسين » يغمرهما بكل ما امتلأ به قلبه الكبير من حب وحنان . ويفيض عليهما من عاطفة الأبوة ما شاء له الحرمان من الولد ، على كثرة من تزوج من النساء ..

بل لا عجب أن دعاهما ابنيه ، فعن أنس بن مالك أنه صلى الله عليه وسلم « كان يقول لفاطمة رضى الله عنها : ادعى لى ابنىَّ.. فاذا ما جاءا اليه شمّهما وضمهما » ..

ونقل الترمذى فى (سننه) عن « أسامة بن زيد » أنه قال :

« طرقت باب النبى صلى الله عليه وسلم فى بعض الحاجة . فخرج رسول الله وهو مشتمل على شىء لا أدرى ما هو . فلما فرغت من حاجتى قلت : ما هذا الذى أنت مشتمل عليه يا رسول الله ؟ ..

« فكشفه . فاذا الحسن والحسين . وقال : هذان ابناى وابنا ابنتى . اللهم انى أحبهما فأحبهما ، وأحب من يحبهما » ..

وكان اسماهما ــ رضى الله عنهما ــ نغمة حلوة فى فم أبى الزهراء . يستعذبها ولا يمل من ترديدها . وفيهما كان يجد أنسه وسلوته عن فقد من الأبناء ! ..

لقد آثر الله الزهراء بالنعمة الكبرى ، فحصر فى ولدها ذرية نبيه المصطفى . وحفظ بها أشرف سلالة عرفتها البشرية منذ كانت ..

كما كرم الله وجه « على » فجعل فى صلبه نسل خاتم الأنبياء . فكان له من هذا الشرف مجد الدهر وعزة الأبد ..

ولعل محمدا صلى الله عليه وسلم لو خُيّر أى بناته تكون وعاء لنسله الطهور ، وأى أصهاره يكون أبا لأهل البيت الشريف . لاختار ما اختاره له الله ! ..

فعلىّ ، أقرب أصهاره اليه مكانا وأمسهم رحما ، فى عروقه . يجرى

الدم الهاشمى الأصيل . وعند عبد المطلب يلتقى نسبه بنسب الرسول ؛ فكلاهما له حفيد ..

وقد كان لمحمد عند أبى طالب منزلة الابن : كفله منذ بلغ الثامنة من عمره ، حتى اذا شب واستقل بحياته بعد زواجه من السيدة خديجة ، ضم اليه عليا ابن العم أبى طالب ، وأنزله من بيته وفى قلبه منزلة الولد

وليس لأبى العاص بن الربيع ، ولا لعثمان بن عفان ؛ مثل هذه الآصرة من الرحم ولا تلك المكانة من القربى ، وان كان لكل منهما موضعه الذى لا يسامى فى قريش ، ولعثمان مكانه الذى لا يجحد فى الاسلام ..

وكان « على » يعرف منزلته عند صهره النبى ويعتز بها الى حد جعله يسأل الرسول ذات مرة وقد غمره فيض عطفه :

— أيهما أحب الى رسول الله : ابنته الزهراء ، أم زوجها على ؟ ..

فأجاب الرسول فى ابتسامة لبقة :

فاطمة أحب الىَّ منك ، وأنت أعز علىَّ منها ! ..

وليس بمستغرب بعد هذا ، أن يعى الزمن من آيات حب الرسول للزهراء وعلى وبنيهما ، ما نستطيع معه أن نتمثله صلى الله عليه وسلم وهو يرنو الى بيت صهره « على » كلما مر به ، وقلبه الكريم يخفق حبا وحنوا ، فاذا وجد من وقته سعة ، عرَّج على دار الأحبة ، فأسعد أهلها بعطفه ، وأسبغ على حفيديه فيضا من حنانه الغامر !

وحدث فى احدى المرات أن ألفى ابنته وزوجها قد غلبهما النعاس ، والحسن يبكى ويطلب طعاما ، فلم يهن على الأب الكريم أن يوقظ العزيزين النائمين ؛ بل أسرع الى غنمة كانت تقف فى ساحة الدار ، فحلبها وسقى « الحسن » من لبنها حتى ارتوى ! ..

ومر بالبيت يوما وهو متعجل ، فبلغ مسمعه صوت بكاء الحسين ، فدخل يقول لابنته معاتبا :

« أو ما علمتِ أن بكاءه يؤذينى ؟ .. »

ولا أصف هنـا ما كان لهذا الحب الأبوى من أثر بعيد عميق فى إسعاد « فاطمة » التى أرهقتها الحزن صغيرة ، وأنهكها العبء شـابة ، بل لا أصف هنا مدى ما بعث فى حياتها الزوجية التى عرفنا خشونتها وقسوتها ماديا ، من بهجة وأنس واشراق . فلقد أسعد « فاطمة » أن تكون أما لهذين الولدين الأثيرين عند أبيهـا صلى الله عليه وسلم ، وأرضاها أن تستطيع بفضل الله ، أن تهيىء لأبيها الحبيب ــ بعد أن انتقلت من بيته ــ هذه المتعة الغامرة التى يجدها فى سبطيه الغاليين ..

ولم يكن على ــ كرم الله وجهه ــ أقل منها سـعادة وغبطة . فلقد سره ، بل ازدهاه ، أن تتصل به حيـاة ابن عمه النبى هـذا الاتصال الوثيق ، فيمتزج دمه بدم النبى الزكى ، لتخرج من صلبـه ذرية سيد العرب ، وبنو بنته الزهراء ، ويذهب دون النـاس جميعا بمجد الأبوة لسلالة النبى ، وآل بيته الأكرمين ..

***

وتتابع الثمر المبارك : ولدت الزهراء طفلتها الأولى فى العام الخامس من الهجرة ، فسماها جدها « زينب » تحية لذكرى خالتها الراحلة التى لم ينسها أبوها ، ولا نسيتها أختها « فاطمة » قط ! ..

ثم وضعت الزهراء بعد عامين من مولد « زينب » طفلة ثانية اختار لها الرسول اسم ابنته « أم كلثوم » ، كأنما كان يحس أنه ثاكلها بعد عامين اثنين ! ..

وبذلك قدر للزهراء أن تحيى بابنتيها ذكرى أختيها زينب وأم كلثوم بنتى النبى ، كما شاء لها الله أن يكون منها ولدا الرسول « الحسن والحسين » حين عَزّ الولد ..

وحفظ الله تعالى لنبيه هـذا القدر من سعادة الأبوة ، فلم يفجعه فى الزهراء ولا فى أحد بنيها حتى لحق ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالرفيق الأعلى ..

لقـد مات ولداه « القاسم وعبد الله » صغيرين ، ثم رزقه الله على

الكبر غلامه الثالث « ابراهيم » فى ذى الحجة من السنة الثامنة بعد الهجرة ، فقرت به عيناه صلى الله عليه وسلم ، لكن الفرحة لم تتم ، اذ ما لبث الهلال أن غرب . وثكل النبى ولده الثالث قبل أن يستكمل عامه الثانى ، وأبوه اذ ذاك قد جاوز الستين من عمره ! (١)

كذلك ماتت بناته الثلاث : زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وهن فى ربيع العمر ، وأرقدهن أبوهن الثاكل المحزون ، واحدة بعد الأخرى ، فى ثرى يثرب الذى ضم جثمان أبيه عبد الله حين كان محمد لايزال جنينا فى رحم أمه « آمنة بنت وهب » ..

وعاشت له فاطمة ، كما عاش بنوها يملئون دنيا الرسول بهجة وأنسا ، ويرضون فيه عاطفة الأبوة التى آدها ثكل البنين والبنات . ولم يبق لها الا هذه البنت الحبيبة ، تعوض أباها عمن فقد ، وتعزيه عمن غاب ..

عاشت « الزهراء » ليظل محمد ما عاش يجد من يدعوه : « يا أبت ! »

وعاش ولداها ليظل النبى الانسان يسعد بترديد اللفظ العذب : « ابنى » ..

وعاشت بنتاها زينب وأم كلثوم ، ليظل الأب الحنون يدعو باسم ابنتيه الراحلتين ، بعد أن أقام زمنا يفتقدهما ويمسك لسانه عن ندائهما !

ووقف التاريخ الانسانى يرقب مبهورا هذا النبى الانسان ، فى أبوته الفياضة بأنقى الحب وأصفى الحنان ، وأصغت الانسانية فى فخر واعتزاز ، الى ما تواترت به الأنباء من حديث ذلك الحب الكبير ، الذى يكشف عن جانب من عظمة الرجل المصطفى من السماء ! ..

وما تزال حتى اليوم ، وحتى غد ، والى الأبد ، تتلو هذا الحديث ، وترى فيه آية من آيات الله الذى سوى ذلك البطل ، بشرا رسولا !

وهيهات لها أن تنسى مشهد النبى وهو يمشى فى أسواق المدينة حاملا أحد حفيديه على كتفه ، حتى اذا بلغ المسجد وقام للصلاة ، وضعه الى جانبه فى رفق وأقبل يؤم القوم ، فتأخذهم الحيرة والعجب اذ يطيل

---

(١) الاصابة جـ ١ – ابراهيم بن محمد ، والطبرى حوادث السنة الثامنة ، والسمط الثمين ١٤٣

السجود على غير المألوف من عادته ، فلما قضيت الصلاة قيل له :

ـ يا رسول الله انك سجدت سجدة أطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمر أو أنه يوحى اليك ..

فقال : « كل ذلك لم يكن . ولكن ابنى ارتحلنى فكرهت أن أعجله حتى يقضى حاجته !.. »

أو تنسى مرآه وقد وقف يوما يخطب المسلمين . فجاء الحسن والحسين ، عليهما قميصان أحمران ، يعثيان ويعثران ، فنزل النبى صلى الله عليه وسلم من المنبر ، فحملهما ووضعهما بين يديه ثم قال يخاطب القوم :

ـ صدق الله : انما أموالكم وأولادكم فتنة !.. نظرتُ الى هذين الصبيين يعثيان ويعثران . فلم أصبر حتى قطعت حديثى ورفعتهما ! ..

أو تغيب عنها صورته ، وهو آخذ بكتفى الحسين ، وقدماه على قدميه صلى الله عليه وسلم ، يرقصه قائلا : « ترق . ترق » فما يزال الصبى يرقى حتى يضع قدميه على صدر جده ، فيقول له : افتح فاك ! .. فيفتحه ، ويقبله صلى الله عليه وسلم وهو يقول : « اللهم أحبه ، فإنى أحبه ! » ..

أو يفوتها موقفه ، وقد خرج يوما فى نفر من صحابته الى طعام دعوا اليه ، فاذا بالحسين فى السكة يلعب مع غلمان من أترابه ، فتقدم الرسول أمام القوم وبسط يديه محاولا أن يمسك بحفيده ، والغلام يفر ها هنا ، وها هنا ، فما زال ـ عليه الصلاة والسلام ـ يضاحكه حتى أخذه ، فوضع احدى يديه تحت قفاه ، والأخرى تحت ذقنه ، ثم قبله وقال : « حسين منى وأنا من حسين .. أحب اللهم من أحب حسينا ! »

والناس من حوله خاشعون اجلالا ، يقول قائلهم : أراد صلى الله عليه وسلم يصنع هذا بحفيده ، فوالله ان لى ولدا وما قبّلته قط ! ..

فيرد النبى الانسان ، وقد أنكر هذه الغلظة الجافية :

« من لا يَرحم ، لا يُرحم ! » ..

ويرخى الزمن للزهراء . لتشهد أباها البطل وهو يغزو الجزيرة بالنور الجديد ويدنو من النصر المؤزر الذى وعده الله به والمسلمين . وتمسى رضى الله عنها ذات ليلة . وهى تتأهب للسفر الى مكة . وقد زاد الكرى عن عينيها قربُ الأوبة الى الوطن الذى غابت عنه ثمانية أعوام . فراحت تسامر زوجها المهاجر . وتستعيد وإياه ذكريات صباهما الحلو الذى مضى وراح :

أترى مكة لا تزال على العهد بها كما تركاها منذ سنين . أم غيَّرها كرة الغداة ومر العشى . ومحت يد الحدثان من معالمها ما كان لكليهما بالأمس مهدا ومرتعا ؟

ودار الأهل . حيث مولد « فاطمة » ، أتراها باقية كما كانت ، أم عدا عليها العدو فنقضها وصيرها طللا دارسا وخرابا بلقعا ؟

والكعبة الشريفة . أما يزال الحمام الأبيض الجسيل يرتع فى حماها آمنا ملء الحرية والطلاقة والحياة . أم روعته الوثنية الغاشمة الضالة فانكمش هناك مكتئبا محزونا مهيض الجناح ؟

وملاعب الصبا . أما تزال تذكر مَن رحل عنها من الأحباب ، أم نسيتهم على مر الأيام وتطاول السنين ، فعادت لا تعرف منهم اليوم أحدا ولا ترد لسائل جوابا ؟ ..

ومثوى خديجة . وقبر أبى طالب . وقبور غيرهما من الأهل والعشيرة . أما تزال محتفظة بودائعها الغالية . أم نبشها الطغاة الكفرة وبعثروا ما بها من رفات الأعزة الراحلين ؟

واذ هما فى غشية من شجوهما يطرق الباب . فينهض على — كرم الله وجهه — ليرى من الطارق بليل ، وتفتح « الزهراء » عينيها وان فيهما لبقية من خدر الذكرى . فاذا أمامهما « أبو سفيان بن حرب » حامل لواء المشركين . وزوج آكلة الأكباد التى صنعت ما صنعت بشهداء أحُد . ثم راحت تغرى قومها بنبش قبر «آمنة أم محمد» اشتفاء وحقدا..

ويتكلم « أبو سفيان » فيذكر كيف جاء الى المدينة لمَّا بلغ قريش تأهب

« محمد » للمسير الى مكة ، فرأى من قوة الاسلام وضخامة استعداد الجيش المعبأ للزحف على مكة ، وما روعه . فدخل على ابنته « رملة ، أم حبيبة ، زوجة الرسول » فما كاد يهم بالجلوس على الفراش حتى طوته عنه كراهةَ أن يجلس عليه وهو مشرك ، فانصرف محزونا حتى أتى النبى فكلمه فلم يرد عليه شيئا ، فذهب الى أبى بكر ، ثم الى عمر ، يسأله أن يكلم له الرسول ، فأبى عمر قائلا : « أأنا أشفع لكم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟.. فوالله لو لم أجد الا الدر لجاهدتكم به ! » (١)

وصمت « أبو سفيان » ريثما استرد أنفاسه ثم قال لابن أبى طالب :

ــ يا على ، انك أمسّ القوم بى رحما ، وانى قد جئت فى حاجة فلا أرجعن كما جئت خائبا ، فاشفع لى الى رسول الله ..

فقال على : « ويحك يا أبا سفيان !.. والله لقد عزم الرسول صلى الله عليه وسلم على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه .. »

فالتفت « أبو سفيان » الى الزهراء ، وكانت حتى تلك اللحظة صامتة لم تتكلم ، فقال لها وهو يشير الى غلامها « الحسن » الذى استيقظ من نومه ، وراح يدب بين يدى أمه :

ــ يا ابنة محمد ، هل لك أن تأمرى بُنَيَّك هذا فيجير بين النـاس ، فيكون سيد العرب الى آخر الدهر ؟

أجابت فى هدوء : « والله ما بلغ بُنَىّ ذاك أن يجير بين الناس ، وما يجير أحد على رسول الله صلى الله عليه وسلم .. »

وقام « أبو سفيان » لينصرف محسورا ، ثم تلبث لدى الباب برهة وقال فى انكسار :

ــ يا أبا الحسن ، انى أرى الأمور قد اشتدت علىّ ، فانصحنى .

قال على : « والله ما أعلم لك شيئا يغنى عنك شيئا ، ولـكنك سيد بنى كنانة ، فقم فأجر بين الناس ، ثم الحق بأرضك » .. (٢)

قال : « أو ترى ذلك مغنيا عنى شيئا ؟ » ..

---

(١) السيرة : ٣٨/٤
(٢) السيرة : ٣٩/٤

فصمت « على » يفكر لحظة ثم أجاب :

ـ لا والله ما أظنه ، ولكنى لا أجد لك غير ذلك ..

فانصرف « أبو سفيان » وقد استقر عزمه على أن يعمل بما أشار « على » . وأغلق الزوجان بابهما وجلسا يتحدثان فى عجائب القدر وتصاريف الأيام . حتى مضى شطر من الليل فناما يحلمان بالأوبة المنتظرة الى أم القرى : مقر الكعبة . ومهد الصبا . ومنزل قريش ! ..

***

وسار النبى من المدينة فى عشرة آلاف من المسلمين ، ميمما شطر البلد الحرام الذى تسلل منه منذ ثمانية أعوام ولا أحد معه الا صاحبه وحموه الصديق ..

وخرجت « الزهراء » فيمن خرج من آل الرسول ، لتشهد العودة الظافرة والنصر المبين ..

ولم يفتها أن تلمح خلال النقع المثار ، تلك البقعة التى كادت تلقى فيها حتفها وهى فى طريقها الى دار الهجرة ، مع أختها « أم كلثوم » ..

وهاجت شجونها للذكرى : أين رقية ، وأين زينب ؟ .. لقد هاجرتا مثلها من مكة . لكن الى غير رجعة أو مآب ..

وهذه هى ، تعود ولم يبق لها من شقيقاتها الثلاث ، غير واحدة ، وثوت الأخريان فى ثرى يثرب ..

غير أن الأطياف بقيت معها ، وهى تقترب من أم القرى . فما انفكت فى غمرة من شجوها وأساها حتى بلغ الركب « مرّ الظهران » حيث عسكر النبى بجيشه ترقبا للمعركة الفاصلة ..

ثم لم يكد النهار يولى ، حتى أقبل « أبو سفيان بن حرب » قائد لواء المشركين ، فبات ليلته بباب النبى انتظارا لأمره صلى الله عليه وسلم فى أهل مكة ، فلما تنفس الصبح دخل على محمد فأسلم ، ثم انطلق عائدا الى مكة فوقف بحيث يُسمع وقال :

« يا معشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم بما لا قِبَل لكم به ، فمن

دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن » (١) ..

فتفرق الناس الى دورهم والى المسجد الحرام ، ووقف الرسول على راحلته بذى طوى ، بين كبار الصحابة ، ثانيا رأسه تواضعا لله على ما أكرمه ، حتى لتكاد الشعرات التى بين شفته وذقنه تمس الرَّحل ..

ونظَّم دخول جيشه الى البلد العتيق ، فقسمه فرقا على رأس كل منها أحد كبار الصحابة ، وكانت الراية مع سعد بن عبادة ، فقال الرسول لعلى « أدركه فخذ الراية منه ، فكن أنت الذى تدخل بها ! » (٢)

ومن قبل ، كان « على » حامل « العقاب » فى خيبر ، وهى أول راية للرسول (٣)

وكذلك حمل « على » لواء الرسول فى غزوة بنى قريظة ، ولواء المهاجرين يوم أحُد (٤)

ودخل الرسول من « اذاخر » حتى نزل بأعلى مكة ، وضُربت له قبة هناك ، قريبا من مثوى « خديجة » ..

وصحبته اليها ابنته « الزهراء » وقد أنساها الفرح الأكبر كل ما ألمَّ بها من شجن ، منذ مرت بالمكان الذى نخس فيه « الحويرث » راحلتها وهى مهاجرة من مكة ، فألقت بها على الأرض ..

لكن أباها ، عليه الصلاة والسلام ، لم ينس ! .. وهذا هو يعهد الى امرائه من المسلمين ألا يقاتلوا الا من قاتلهم ، واستثنى نفرا سماهم بأسمائهم ، وأمر بقتلهم ولو وجدوا تحت أستار الكعبة ..

وكان من هؤلاء « الحويرث بن منقذ » وقد تولى قتله زوج الزهراء .. وسجد الرسول لله شاكرا ..

---

(١) السيرة : ٤٧/٤ ــ والاستيعاب : أبو سفيان بن حرب وقد فصلنا الحديث عن اسلامه فى الباب الخاص بابنته « أم حبيبة ، رضها » فى كتاب « نساء النبى »
(٢) السيرة : ٤٨/٤ وتاريخ الطبرى . فتح مكة
(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٧٧/٢
(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢٧/٢
وقد حمل « على » بعد ذلك لواء الرسول يوم حنين « الطبقات الكبرى ١١٧/٢ »

وكادت الجبال تتصدع من خشية ورهبة ، وهى تصغى الى هتـاف عشرة آلاف من المسلمين :

الله أكبر الله أكبر ، لا اله الا الله وحده ، نصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، لا اله الا الله والله أكبر ...

***

ثم أوى البطل الظافر الى قبتـه ، حيث كانت « الزهراء » تنتظره هناك ..

حدثت أم هانىء بنت أبى طالب ــ وكانت زوجة لهبيرة بن أبى وهب المخزومى ــ قالت :

« لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأعلى مكة ، فرَّ الىَّ رجلان من بنى مخزوم ــ قال ابن هشام : هما الحارث بن هشام ، وزهير بن أمية بن المغيرة ــ فدخل علىَّ أخى . على بن أبى طالب ورآهما فقال : والله لأقتلنهما . فأغلقت عليهما باب بيتى ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بأعلى مكة . فوجدته يغتسل من جفنة فيها أثر العجين ، وفاطمة ابنته تستره بثوبه ، فلما اغتسل أخـذ ثوبه فتوشح به ، ثم صلى ثمانى ركعات من الضحى ، ثم انصرف الىَّ فقال : مرحبا وأهلا يا أم هانىء ، ما جاء بك ؟.. فأخبرته خبر الرجلين وخبر « على » فقال صلى الله عليـه وسلم : قدأجـرنا من أجرتِ ، وأمنا من أمنت ، فلا يقتلهما » (١) ..

واستراح الرسول برهة ريثما اطمأن الناس اثر موجة الفتح الدافقة ، فخرج حتى جاء البيت الحرام وسط الجموع الزاخرة . فطاف به سبعا على راحلته . فلما قضى طوافه أمر ففتحت له الكعبة ثم وقف على بابها فخطب فى الناس خطبة الفتح . ثم قال :

« يا معشر قريش . ما ترون أنى فاعل بكم ؟.. قالوا : خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء » ..

---

(١) السيرة : ٤/٥٥

وأقبل المساء رقيقا نديا بعد نهار حار ، حافل بالحركة والضجيج ، فضمت « أم القرى » جناحيها على أبنائها المهاجرين العائدين ، وعلى من نزل معهم من الأنصار وبقية المسلمين ، وسهرت السماء ترعى ذلك الحشد الضخم الذى لم تشهد قط مثله حول قائد نبى ، وطافت الملائكة بحزب الله تبارك انتصاره على حزب الشيطان ..

وهناك كانت « فاطمة » غير بعيدة من أبيها البطل ، ترقد ساهرة فى فراشها ، يقظى لا تنام ..

كم شاقها فى ذلك الليل الساجى أن تتمثل أمها خديجة وهى تطل من علاها على حبيبها النبى فى يومه الأغر الميمون .. ؟ !

وكم شجاها أن تتمثل شقيقتيها الراقدتين بيثرب ، تسرى روحاهما الى البلد العتيق الذى لم يكتب لهما رجعة اليه ، فتطيفا بمن بقى من الأهل والأحباب ، وتشاركا فى فرحة النصر المؤزر ؟ !

وكم رق قلبها لذكرى طفولتها الباكرة فى البيت السعيد ، حيث الشمل ملتئم والحياة حب وصفو !

وكم استهواها أن تبيت هكذا ساهرة يقظى ، حتى تسمع صوت « بلال » يؤذن لصلاة الصبح من فوق الحرم الأقدس ، فيخشع الكون لجلال الدعاء ، ويخف المؤمنون من مضاجعهم ساعين الى المسجد الحرام ، ليؤدوا للمرة الأولى فى تاريخ الاسلام ، فريضة الصبح فى البيت العتيق المطهر من الأوثان !

وقال « على » وهو يتهيأ للخروج الى صلاة الصبح :

ـ أما نمتِ يا أم الحسن ؟

أجابت وقد غلبها التأثر :

ـ بل أردت أن أستمتع بعودتنا الظافرة وأنا كاملة اليقظة ، وكأنى أشفق اذا نمت ، أن يكون الأمر كله حلما فى الكرى ..

ثم قامت تصلى ، وأغفت قليلا بعد أن طال بها السهر ..

وأصبحت تمنى نفسها بالعودة الى دار مولدها . ومرتع صباها وصبا « على » ربيب النبى . ولكن هذه الدار كانت قد انتقلت على أثر الهجرة الى مِلك « عقيل بن أبى طالب » وقد سئل الرسول يومئذ : ألا تنزل منزلك ؟

فقال : « وهل ترك لنا عقيل منزلا ؟ (١) »

وتساءلت الزهراء : ترى أى دار يختار أبى لتكون لنا فى مكة منزلا ؟

وكذلك تساءل الأنصار ، وقد ظنوا أن الرسول مقيم بمكة . لما رأوا من ابتهاجه صلى الله عليه وسلم باسلام قريش . وحرصه على تآلفهم ، وغبطته بالرجوع الى مكة بعد طول اغتراب ..

وقال قائلهم : « لقد لقى والله رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه ! » ..

وأنشد شاعرهم « حسان بن ثابت الأنصارى » يعاتب الرسول على إيثاره قريشا وقبائل العرب بالعطاء والفىء دون الأنصار :

وأت الرسول فقل : ياخير مؤتمَن	للمؤمنين اذا ما عدد البشرُ
علام تُدعى « سليم » وهى نازحة	قدّام قومهم آووا وهم نصروا ؟
سماهم الله أنصارا بنصرهم	دينَ الهدى وعوان الحرب تستعر
وسارعوا فى سبيل الله واعترفوا	للنائبات وما ضاقوا وما ضجروا
والناس الب علينا فيك . ليس لنا	الا السيوف وأطراف القنا وَزَرْ
فما ونينا ، وما خُنّا . وما حبروا	منا عثارا وكل الناس قد عثروا ! (٢)

وبلغ الصوت مسمع « فاطمة » كما بلغ مسمعَ كل من فى مكة ، فقدرت أن لهذا العتاب ما بعده . وأشفقت من الموقف الصعب ، وان اطمأنت الى أن أباها صلى الله عليه وسلم سوف يجد منه مخرجا ..

لكن أى مخرج ؟

لم تدر « فاطمة » على التحديد . حتى سمعت أباها يسأل « سعد بن عبادة » وقد شكا له ما تجد الأنصار :

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٩٨/٢
(٢) السيرة : ١٤٠/٤

ـــ فأين أنت من ذلك يا سعد ؟

أجاب الرجل : « يا رسول الله ، ما أنا إلا من قومى .. »

فلم تبد على النبى العربى بادرة ضيق أو ضجر ، بل عطف على صاحبه وطلب اليه أن يجمع له قومه الأنصار ، فلما فعل « سعد » ، خرج اليهم الرسول فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« يا معشر الأنصار ، ما قالة بلغتنى عنكم ، وجدة وجدتموها علىَّ فى أنفسكم ؟ .. ألم آتكم ضلاّلا فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألّف بين قلوبكم ؟ » ..

أجابوا : « بلى ، الله ورسوله أمَن وأفضل » ..

قال : « ألا تجيبوننى يامعشر الأنصار ؟ » ..

قالوا مشفقين : « بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ .. لله ولرسوله المَنّ والفضل » ..

فما راعهم الا أن قال النبى الكريم :

« أما والله لو شئتم لقلتم فلصَدقتم ولصُدقتم : أتيتَنا مكذّبا فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريدا فآويناك ، وعائلا فآسيناك ! .. أوجدتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم ، فى لعاعة ــ بقلة خضراء ناعمة ــ من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ، ووكلتكم الى إسلامكم ؟ ... ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله الى رحالكم ؟.. فوالذى نفس محمد بيده ، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبا وسلكت شِعبا لسلكت شعب الأنصار ! .. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار ! » ..

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم ، وهتفوا بملء ألسانهم : رضينا برسول الله قسما وحظا ! (١) ..

وكذلك بكى أهل مكة ، وقد رأوا الرسول يوشك أن ينصرف راجعا

---

(١) السيرة : ١٤٢/٤ وتاريخ الطبرى ، غزوة الطائف ، حوادث السنة الثامنة

الى دار الهجرة التى اختارها منزلا ومقاما ..

وراحت « الزهراء » تودع دار الصبا ، وتزور قبر « خديجة » قبل أن يحين الرحيل ! ..

ولم يجاوز مقامها بمكة غير شهرين وبعض شهر : جاءتها فى شهر رمضان من العام الثامن للهجرة ، وغادرتها مع أبيها الى مدينة الأنصار ، فى أخريات ذى الحجة من العام نفسه ..

لكأنما كان الأمر كله ، كما قالت فاطمة فى الليلة الأولى بعد الفتح ، حلما فى الكرى أو رؤيا منام ..

وقد امتد الحلم الهنىء عامين ، سعدت فيهما « الزهراء » بصحبة أبيها تستجلى طلعته البهية فى الغدو والآصال ، وتنعم بحبه المضاعف لها ولبنيها وزوجها ، ما شاء الله لها أن تنعم . وقد أتيح لها فى تلك الفترة أن تسترد بعض ما ذهبت به الصدمات الأولى من قواها ، فتتوفر على تربية بنيها ــ أحفاد الرسول وأحبابه ــ تاركة شئون الدار لخادم جاء بها « على » بعد أن أيسر بما ناله من غنائم الفتح والنصر !

***

ثم كانت اليقظة المروعة !

شكا أبو الزهراء صلى الله عليه وسلم من مرض ألمَّ به ، فى ليال بقين من صفر فى السنة الحادية عشرة للهجرة ، فحسب آل البيت والمسلمون أنها وعكة طارئة لا تلبث أن تزول ، دون أن يجرؤ أحد على الظن بأنه مرض الموت ! ..

غير أن « أم أبيها ، الزهراء » لم تكد تسمع بشكوى أبيها النبى ، حتى أجفلت وكأنما لسعتها نار ! ..

ذلك أنها ذكرت حديثا أسرَّ به صلى الله عليه وسلم اليها منذ أيام ، وكانت قد جاءت لزيارته وهو عند أم المؤمنين عائشة ، فلما رآها أبوها مقبلة ، أشبهَ أحدٍ به سمتا وهديا ، على ما وصفت عائشة ، هشَّ للقائها قائلا : « مرحبا بابنتى » ..

ثم قبّلها وأجلسها الى يمينه وأسرّ اليها أنه يحسب أن قد حان أجله . فلما بكت هوّن عليها بقوله : (١)

« وانك أول أهل بيتى لحوقا بى » ثم أضاف : « ألا ترضين أن تكونى سيدة نساء هذه الأمة ؟ » ..

فسرّها ما سمعت ، وضحكت بعد بكاء . فعجبت عائشة وقالت : « ما رأيت كاليوم فرحا أقرب الى حزن ! » ثم سألت الزهراء حين سنحت فرصة ، عما أسرّ به الرسول اليها . فأجابت أم أبيها :

« ما كنت لأفشى على رسول الله سرّه ! » ..

وانصرفت يومئذ الى دارها ، وقد رد اليها بعض طمأنينتها أن رأت أباها صلى الله عليه وسلم صحيحا معافى ..

فلما بلغها بعد أيام أنه يشكو . ساورها قلق مشوب بالخوف ، وأسرعت الى بيت أبيها وهى تحس أن قلبها قد سقط من موضعه فى صدرها ..

ورأته يتحامل على نفسه ، ويتجمل بالصبر ، ويدور على نسائه أمهات المؤمنين كمألوف عادته ، حتى اذا بلغ بيت « أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث الهلالية » تتامّ به وجعه فدعا زوجاته اليه واستأذنهن فى أن يمرض فى بيت عائشة (٢) ..

وأقامت « الزهراء » الى جانبه تخدمه وتسهر عليه حانية متجلدة ، تتكلف الصبر . ولا تكف عن الدعاء والابتهال ..

لكن تجلدها خانها حين رأته وقد اشتد به الوجع . يأخذ الماء بيده ويجعله على رأسه وهو يقول : وا كرباه ! ..

فخنقتها العبرة وقالت بصوت يفيض حزنا ولوعة :

« وا كربى لكربك يا أبتاه ! » ..

فرد عليها وهو يرنو اليها فى عطف وحنو :

« لا كرب على أبيك بعد اليوم ! » ..

---

(١) صحيح البخارى : ١٢/٦٢ ـ وصحيح مسلم : ٦٧/٤٤ وطبقات ابن سعد ، ١٦/٨
(٢) الاستيعاب : جـ ٨ ترجمة السيدة عائشة وأنظر معه السيرة جـ ٤ وتاريخ الطبرى

ثم حمّ القضاء ، ولحق محمد بالرفيق الأعلى . وترك الزهراء من بعده يتيمة حزينة ، لا تجد الى العزاء سبيلا ! ..

***

وأذهلها المصاب الفادح . فما أفاقت من غشيتها الا وقد تمت البيعة « لأبى بكر الصديق » فى السقيفة ؛ ولما يكد يمضى على وفاة الرسول غير ثمان وأربعين ساعة فحسب ! ..

وجمعت كيانها الممزق . وتحاملت تسعى الى قبر الحبيب وما تقوى قدماها على حملها . حتى اذا بلغته أخذت قبضة من تراب القبر فأدنتها من عينيهـا اللتين قرحهمـا البكاء (١) ، ثم راحت تشمها وهى تقول متفجعة :

ماذا على مَن شمّ تربة أحمـد ألا يشم مدى الزمان غواليا ؟
صُبَّت علىّ مصـائب لو أنهـا صبت على الأيام عُدنَ لياليا !

واستعبرت باكية ، فبكى النـاس لبكائها ؛ وتقطعت قلوبهم وهم يرونها تفلت التراب من بين أناملها فى حركة يائسة ؛ ثم تحدق فى يديها الفارغتين ، وتمضى ، كمن فرغت من الدنيا ! ..

وأتبعوها عيونهم الدامعة وقلوبهم المتصدعة ، حتى اذا بلغت دارها استأذن عليها « أنس بن مالك : خادم أبيها النبى » وراح يسألها الصبر الجميل ..

قالت له معاتبة : « كيف مكنك قلبك أن تسلم للأرض جثة رسـول الله ؟ .. »

فشهق بدمعه دون أن يجرؤ هو أو سواه على أن يعاود الحديث فى الصبر والعزاء ! ..

الصبر والعزاء ؟ .. كيف وكل مصاب بعد مصابها لم ! ؟ ..

***

ودخل على اثره زوجها « على » كرم الله وجهه ، وفى صحبته رجال

(١) صحيح البخارى : ٦٤ ك ، ٨٣ باب وطبقات ابن سعد ٢/٢ ومسند أحمد : ١٤١/٣

من بنى هاشم ، فتحدثوا على مسمع منها بالذى كان من أمر البيعة ..

وتذاكروا بلاء « على » فى نصرة الاسلام ، ومكانه من رسول الله :

لقد شهد « على » مع الرسول مشاهده كلها ..

وكان يحمل لواء المهاجرين يوم أحُد ، ولواء الرسول يوم غزوة بنى قريظة ، وحمراء الأسد ، ويوم حنين ..

وحمل يوم خيبر ، أول راية للاسلام .. وكان صلى الله عليه وسلم قد اتخذها من برد لزوجه « عائشة » أم المؤمنين ، وقال :

« لأدفعن الراية الى رجل يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، ويفتح عليه .. »

فتطاول « عمر بن الخطاب » لها واستشرف ، رجاء أن يدفعها الرسول إليه . فلما كان الغد ، دعا الرسول « عليا » ودفعها اليه (١) ..

ويوم الفتح ، كانت الراية مع « سعد بن عبادة » فقال الرسول لعلى : « أدركه فخذ الراية منه ، فكن أنت الذى تدخل بها » (٢) ..

وقاد سرايا الرسول الى « فدك » فى شعبان من السنة السادسة للهجرة ..

والى « الفـُلس : صنم طيىء » فى السنة التاسعة ..

والى « اليمن » فى السنة العاشرة ..

وعاد منها جميعا مظفرا منصورا ..

وعلى « القصواء » ناقة الرسول المباركة . خرج « على » الى الحج بعد الفتح بعام (٣) ..

ويوم آخى الرسول بين المهاجرين والأنصار ، اصطفى « عليا » أخا

ويوم خرج الى « بدر » غازيا ، ومعه أصحابه ، كل ثلاثة على جمل ، اختار عليا وأبا لبابة زميلين ، وقد عرضا عليه صلى الله عليه وسلم أن يمشيا ليستريح فى مركبه ، فأبى وقال :

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٢/٨٠

(٢) السيرة : ٤/٤٨

(٣) طبقات ابن سعد : ٢/١٢١

« ما أنتما أقوى على المشى منى . وما أنا أغنى عن الأجر منكما » (١)

وتذاكر القوم أحاديث الرسول لعلى ، وفى على :

« أنت منى بمنزلة هرون من موسى » (٢)

« أنت منى وأنا منك » (٣)

« أنت ولىّ كل مؤمن بعدى » (٤)

« من كنتُ مولاه . فعلىّ مولاه ؟ » (٥)

« لا يحبه الا مؤمن . ولا يبغضه الا منافق » (٦)

أهناك من هو أحق بالخلافة من « على » ربيب النبى ، وابن عمه أبى طالب . وزوج ابنته الزهراء . وأبى الحسنين ريحانتى الرسول . وأول الناس اسلاما . وأطولهم فى الجهاد باعا ، وفتى قريش شجاعة وعلما ؟ ..

وأمسكت « الزهراء » صامتة لا تعقب ، ومضت أيام وهى فى عزلة عن الناس . لا تنشط للنضال عن ميراثها الذى أباه عليها أبو بكر . وهل أبقى الحزن لها من قوة تسعفها على نضال ؟ ..

وكان بحيث تظل منطوية على جراحها وحزنها . لو لم يدعها الواجب الى أن تؤدى حق زوجها وولديها عليها . فتسعى فى رد الأمر الى أهل بيت الرسول ..

وحملها « على » فوق دابة . وخرج بها ليلا فطافت بمجالس الأمصار مجلسا مجلسا . تسألهم أن يؤيدوا أبا الحسن فيما يطلب من حق جُحِد .

أجابوا جميعا : « يابنت رسول الله . قد مضت بيعتنا لأبى بكر ، ولو أن زوجك وابن عمك سبق الينا لما عدلنا به أحدا » ..

فكان الامام يقول : « أفكنت أدع رسول الله فى بيته ولم أدفنه ، وأخرج أنازع فى سلطانه ؟ » (٧)

---

(١) طبقات ابن سعد : ٣/١٤

(٢) رواه البخارى . ومسلم . والترمذى ، وابن ماجة . وابن حنبل

(٣) رواه البخارى . والترمذى . وابن ماجة . وابن حنبل

(٤) رواه الترمذى وابن حنبل

(٥) رواه ابن حنبل . فى أكثر من موضع

(٦) رواه الترمذى وابن ماجة وابن حنبل

(٧) كان على رضه ـ هو الذى غسل الجسد الشريف ، انظر طبقات ابن سعد ٢/٦٠ ومسند أحمد : ١/٢٦٧ ـ والسيرة ج ٤

وترد فاطمة : « ما صنع أبو الحسن الا ما ينبغى ، ولقد صنعوا ما الله حسيبهم وطالبهم » ..

***

ورجعت الى بيتها فلزمته ، فما راعها حين أصبحت الا ضجة قد علت قريبا من الباب ، وتناهى اليها صوت « عمر » يحاول أن يدخل ، وهو يقسم منذرا ، أن سوف يحمل « عليا » على البيعة اتقاء الفتنة وخوفا من تفرق كلمة المسلمين وانتثار قواهم . فصاحت الزهراء بملء لوعتها :

« يا أبت رسولَ الله ، ماذا لقينا بعدك من ابن الخطاب وابن أبى قحافة ؟ » ..

فضج الناس بالبكاء ، ومضى « عمر » محزونا مغلوبا على أمره . فأتى « أبا بكر » وسأله أن ينطلق معه الى « الزهراء » لعلهما يحاولان استرضاءها ..

واستأذنا عليها فلم تأذن لهما ، حتى جاء « على » وأدخلهما فسلما ، لكنها أشاحت بوجهها عنهما واستدارت الى الحائط معرضة مغضبة ..

واستطاع « أبو بكر » رضى الله عنه أن يجد صوته ويقول :

ـــ يا حبيبة رسول الله ، والله ان قرابة رسول الله أحب الىَّ من قرابتى ، وانك لأحب الىَّ من عائشة ابنتى ، ولوددت يوم مات أبوك أنى مت ولا أبقى بعده ، أفترانى أعرفك ، وأعرف فضلك وشرفك ، وأمنعك حقك وميراثك من رسول الله ، إلا أنى سمعته صلى الله عليه وسلم يقول : لا نورَث ، ما تركنا صدقة ؟ ..

فقالت فاطمة : « أرأيتكما ان حدثتكما حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تعرفانه وتعملان به ؟ .. »

أجابا بصوت واحد : نعم ..

قالت : نشدتكما الله ، ألم تسمعا رسول الله يقول : رضى فاطمة من رضاى ، وسخط فاطمة من سخطى ، فمن أحب فاطمة ابنتى فقد

أحبنى . ومن أرضى فاطمة فقد أرضـــانى . ومن أسخط فاطمة فقـــد أسخطنى ؟ ..

أجابا : بلى . سمعناه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

قالت : فانى أشهد الله وملائكته أنكما أسخطتمانى وما أرضيتمانى ، ولئن لقيت رسول الله لأشكوكما اليه ..

فارتاعا لما سمعا . وخرج أبو بكر الى النـــاس والدمع ينســـاب من مقلتيـــه ، فســـألهم أن يقيلوه من بيعتهم ، لكنهم أبوا حتى لا تكون فتنة ! .. (١)

***

ولا يذكر المؤرخون ــ فيما قرأت ــ أن الزهراء قد حاولت بعد ذلك أن تسترجع ما فات . وانما الذى وعاه التـــاريخ أنها أســـلمت نفسها للحزن . فلم ترَ قط منذ مات أبوها صلى الله عليه وسلم ، الا محزونة باكية ..

وعز العزاء وغلب الصبر ، ولم يبق لها من رجاء الا أن تلحق بأبيها كما بشرها قبل الرحيل ..

وما أسرع ما لحقت به ! ..

أصبحت يوم الاثنين . الثانى من رمضان سنة احدى عشرة ، فعانقت أهلها وملأت عينيها منهم . ثم دعت اليها « أم رافع » مولاة أبيها عليه الصلاة والسلام . فقالت لها بصوت واهن خفيض :

ــ يا أمه . اسكبى لى غسلا ..

واغتسلت كأحسن ما كانت تغتسل ، ثم لبست ثيابا لها جددا كانت قد نبذتها حدادا ، ثم قالت لأم رافع :

« اجعلى فراشى فى وسط البيت » ..

فلما فعلت . اضطجعت عليه واستقبلت القبلة ، تتهيأ للقاء ربها ، ولقاء أبيها الحبيب ..

---

(١) انظر صحيح البخارى لـ ١/٥٧ وصحيح مسلم ٥٢/٣٢ وطبقات ابن سعد : ج ٢ ، ج ٨ . وسنن الترمذى ٤٤/١٩

ثم أغمضت عينيها ونامت ! ..

وقام « على » فاحتملها باكيا ، ودفنها بالبقيع ، ثم ودّعها وعاد محزونا الى صغاره ، والى البيت الذى أوحش من بعد « الزهراء » ..

وبات المسلمون محزونين ، بعد أن شيعوا الى القبر آخر بنات النبى ، ولما تمض ستة أشهر بعد وفاته ، على أرجح الأقوال (١) ..

***

وعاد الشمل الممزق فالتأم من جديد ولكن فى غير هذا العالم ، فضم ثرى يثرب جثمان فاطمة كما ضم جثمان أبيها صلى الله عليه وسلم وأخواتها الثلاث : زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، رضوان الله عليهن ..

وطوى القدر الصفحة الأولى من حياة الزهراء ، ثم ما لبث أن عاد بعد حين الى الكتاب التاريخى الحافل ، ليملأه بنضال الشيعة ، ومأساة كربلاء ، ومصارع الطالبيين ، وخدعة الدعوة العباسية ، وقيام الدولة الفاطمية ، وما حف بذلك من جليل الأحداث ، وما تخلف عن ذلك كله من بعيد الآثار فى حياة العقيدة الاسلامية ، وفى التاريخ المذهبى والسياسى للمسلمين ! ..

---

(١) طبقات ابن سعد : ١٧/٨ ـ وجمهرة أنساب العرب ١٤ والاستيعاب : ١٨٨٨/٤

فهرس







